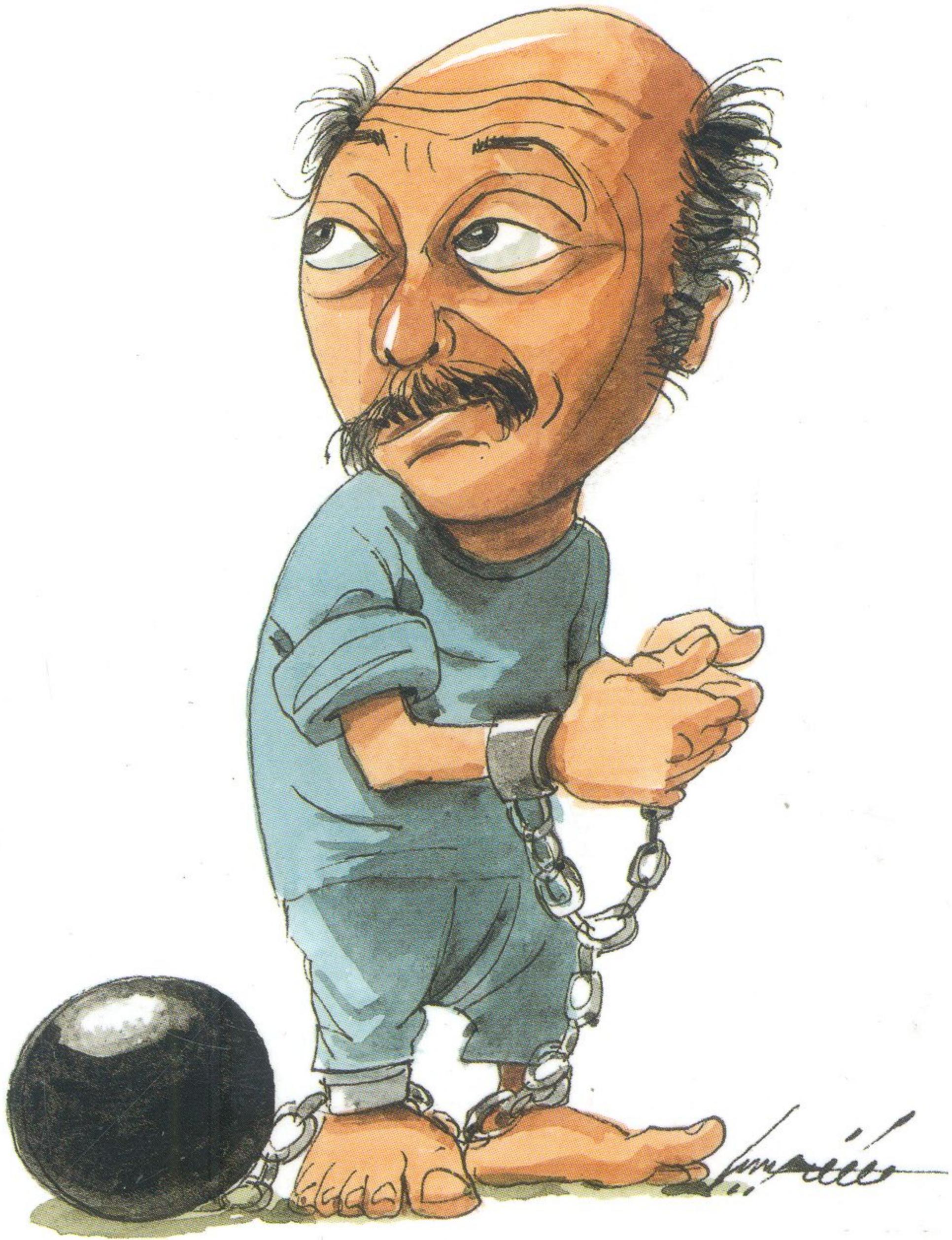


محمود السعدني

الطريق إلى زمش



دار الشروق

إهداء ٢٠١٠
دار الكتب و الوثائق القومية
القاهرة

الطريق إلى زمش

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠١٠

رقم الإيداع ٢٣٠٢٣ / ٢٠٠٩

ISBN 978-977-09-2726-5

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق —

٨ شارع سيويه المصري

مدينة نصر - القاهرة - مصر

تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩

فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢) +

email: dar@shorouk.com

www.shorouk.com

محمود السعدني

الطريق إلى زمش

دارالشروق—

المحتويات

٧	الفصل الأول: الطريق إلى زمش
١٧	الفصل الثاني: سجن الممالك!
٢٩	الفصل الثالث: هابيوس كوربوس
٤١	الفصل الرابع: ولكن هناك فرق!
٥٣	الفصل الخامس: معتقل الأحلام
٦٣	الفصل السادس: عساكر الهجانة!
٧٧	الفصل السابع: العنبر رقم «٤»!
٨٩	الفصل الثامن: فتش عن اليهود!
٩٩	الفصل التاسع: المؤامرة والتفاح
١٠٩	الفصل العاشر: ألفية ابن ماركس
١٢١	الفصل الحادى عشر: حكايات الصول شاهين
١٣٥	الفصل الثانى عشر: معركة السبارس!
١٤٩	الفصل الثالث عشر: مسئول الأمن.. يالى!
١٦١	الفصل الرابع عشر: وليمة الخروج!
١٧١	الفصل الخامس عشر: شاهين وإخوته!

١٨٣.....	الفصل السادس عشر: الرقص على السلام!
١٩٣.....	الفصل السابع عشر: الرفيق إعدام!
٢٠٥.....	الفصل الثامن عشر: مفتى الديار الشيوعية!
٢١٩.....	الفصل التاسع عشر: والجماهير آه ياني!
٢٢٩.....	الفصل العشرون: المأمور والشاعر!
٢٣٩.....	الفصل الحادى والعشرون: المصليحي أول مرة!
٢٥١.....	الفصل الثانى والعشرون: أجمل سنوات العمر

الفصل الأول

وهكذا بدأت رحلة الضنى والعذاب.. وأصل الحكاية أن العبد لله كان في دمشق في شتاء ١٩٥٧، وكانت دمشق وقتئذ واحة الديمقراطية والحرية وحلبة الآراء المتصارعة في العالم العربي. كان فيها الحزب الشيوعي السوري برئاسة بكداش.. هو الحزب الشيوعي العربي الوحيد المعترف به في الكرملين.

الطريق إلى «زمش»!

كانت له جريدة يومية منتشرة هي جريدة النور، وكان هناك حزب البعث القديم بقيادته الثلاثية عفلق، البيطار، الحوراني. وكان هناك الحزب الوطني بقيادة صبري العسلي، وكان هناك حزب الشعب بقيادة علي بوظو، وكان إلى جانب هؤلاء يوجد الناصريون واليمينيون والذين مثل طنجة على الحياض، كانت الصحف السورية بعدد شعر الرأس وكل منها يعبر عن اتجاهه.

وفي الحكم كان هناك الجيش السوري بفرقه المختلفة، فرقة حزب البعث بقيادة مصطفى حمدون، والناصريون بقيادة عبد الحميد السراج، وكانت هناك فرق أخرى مجهولة الهوية أحيانا ومربية الهوية أحيانا، ثم بعد هذا وقبل هذا كان يوجد الشيوعيون بقيادة عفيف البزري رئيس الأركان، واستهوتني الحياة في سوريا وامتدت إقامتي من نوفمبر ٥٧ إلى فبراير ٥٨، وخرجت منها بصديق هو أكرم الحوراني رئيس المجلس النيابي، وعبد الغني قنوت أحد زعماء الفرق السياسية في الجيش، وأحمد جنيدي وكاظم زيتونة من زعماء القبائل العسكرية السورية، وقد ر للعبد لله أن يشهد الاجتماع

التاريخي، الذي تمّ بين بكداش وأكرم الحوراني في مكتب الأخير في المجلس النيابي، جاء خالد بكداش يعلن لرئيس المجلس النيابي احتجاجه على عملية الوحدة بين مصر وسوريا واشترط بكداش للموافقة على الوحدة السماح بقيام أحزاب في القطرين وخصوصاً الحزب الشيوعي، وإجراء انتخابات حرة مباشرة لانتخاب الحكومة في القطرين، وقال بكداش لرئيس المجلس النيابي، إذا تمت الوحدة بالشكل الذي تريده فإنه الشيوعيين سيقاثلون في المستقبل ولكن ليس على طريقة القومية العربية.

وقال أكرم الحوراني لبكداش: الليلة هي الجلسة التاريخية للمجلس النيابي وتستطيع أن تقول رأيك كما تشاء، وسننصت لك وسنعطيك الوقت اللازم لعرض آرائك، وسنعرض الأمر في النهاية على ممثلي الأمة وما تقررته الأغلبية سيلتزم به الجميع.

وقال خالد بكداش وهو يغادر المكتب: إذن إلى اللقاء في المجلس النيابي، وخرج من مكتب أكرم الحوراني إلى المطار واستقل الطائرة وسافر بها إلى موسكو، وانهقد المجلس النيابي في المساء ولم يحضره خالد بكداش، ووافق المجلس بالإجماع على قيام الوحدة بين مصر وسوريا وانفجرت سورية من أقصاها إلى أقصاها ونام الشعب السوري في الشوارع ورقص الجميع الدبكة، وانطلقت الصواريخ في السماء وتعطلت جميع المصالح والمؤسسات لمدة أسبوع، وعاشت سوريا كلها في عيدها الأكبر.

في تلك الأثناء كان زعماء الحزب الشيوعي العراقي يعيشون في دمشق هرباً من جحيم نوري السعيد، وقدر للعبد لله أن يجتمع

بهم عدة مرات مع سياسي مصري توفاه الله هو المرحوم الدكتور فؤاد جلال، وكان رجلا من أخيار الناس، وكان أول وزير للإرشاد لحكومة الثورة، ثم صار وكيلا لمجلس النواب، ثم رئيسا لمؤتمر الخريجين العرب، وهو الذي جمع صفوة شباب الأمة العربية، وقد حاول المهرجون تقليده ولكنهم لم يفلحوا حتى الآن، ولكن لأن الشيوعيين كانت لديهم هواية التحليل، فقد حللوا مسألة العبد لله، وخرجوا بنتيجة تقول: إنني من كبار المسئولين في مصر والدليل على ذلك أنني حضرت اجتماعاتهم مع فؤاد جلال، بل ذهب بعضهم إلى حد أنهم تصوروا أنني مسئول عن فؤاد جلال ورقيب عليه؛ لأنني التزمت الصمت خلال الاجتماعات التي حضرتها.

وبعد فرار خالد بكداش إلى موسكو فوجئت بالأستاذ عامر عبد الله والأستاذ عزيز شريف والدكتور صفاء وهم من قادة الشيوعيين العراقيين المقيمين في دمشق يتصلون بالعبد لله ويدعونني إلى سهرة سياسية في منزل أحدهم، ولأن العبد لله هلهلي وعلى بركة الكريم؛ فقد تصورت أنها دعوة للسهر والسمر فلبيت الدعوة وبالفعل قضيت سهرة ممتعة في حي «أبو رمانة» تبادلنا فيها أنخاب الشراب وتناولنا فيها شرائح اللحم المشوي على الفحم، إلى جانب الكبة النية والنقانق وبلح الشام، وفي نهاية السهرة قال لي عزيز شريف: نريد منك طلبا ونرجو أن نجد استجابة لديك، وتصورت أنهم يريدون اقتراض بعض النقود، أو شيئا أشتريه لهم من القاهرة، فقلت سأفعل على قدر ما أستطيع ولكنني فوجئت به يخرج مظروفا كبيرا وقال لي في هذا المظروف رسالة ونريد توصيلها إلى الرئيس عبد الناصر، وفي براءة منقطعة النظر قلت لعزيز شريف: إذن سأسلمها في الصباح

للسفير محمود رياض، ورد عامر عبد الله: نحن نعرف محمود رياض
ونتصل به دائما ولو أردنا توصيلها عن طريقه لفعلنا، ولكن اخترناك
أنت بالذات لأننا ندرك ونعلم أنك تستطيع أن تفعل ذلك فلا تقع
الرسالة في يد إنسان آخر، لأن الهدف هو أن يسمع عبد الناصر صوتنا
وأن تصل الرسالة إليه.

وبراءة أشد قلت: ولكني لا أعرف عبد الناصر ولم أقابله من قبل،
وارتسمت ابتسامة على شفاه الجميع، لقد تصوروا أنني باعتباري من
كبار المسؤولين لا ينبغي لمثلي أن يكشف سره! وأني رجل حويط
أخفي عن نفسي صفتي وأخفي مقامي السامي ومنصبي الرفيع. ولما
ابتسموا عملت بنصيحة عمنا المتنبئ فابتسمت أنا الآخر.

فلما صار ود الناس خبا جزيت على ابتسام بابتسام

وانتهت السهرة على خير ما يرام وذهبت إلى الفندق وقد نسيت
الأمر كله، ولكن الرسالة لا تزال في جيبتي ومرت ثلاثة أيام وإذا
بالعبد لله يتلقى برقية من جريدة الجمهورية تدعوني للعودة بسرعة
إلى القاهرة، وتصورت أن هذه البرقية نتيجة منافسة بين بعض الزملاء
في الجريدة وأن البعض يريد إفاد أحد غيري لينقل للجريدة أخبار
دمشق، ولذلك قرأت البرقية وصهنت، ولكني تلقيت برقية بعدها
بيومين تدعوني للعودة ثانيا، وبعد فترة أصبحت عادة أن أستيقظ
كل يوم من النوم فأتلقي مع الإفطار برقية من القاهرة تدعوني إلى
العودة.

وفجأة وصل إلى دمشق وفد مصري برئاسة الأستاذ أحمد سعيد
المذيع الذي كان اسمه يدوي كالتبل في أنحاء الأمة العربية وقتئذ،

وقلت لأحمد سعيد: إنني تلقيت عدة برقيات من القاهرة تدعوني للعودة وسألته المشورة، فنصحني بالعودة على الفور وقال: لا بد أن في الأمر شيئاً، وبعد أسبوعين من تسلمي رسالة الحزب الشيوعي العراقي وصلت إلى القاهرة، وكان أول من التقيت به هو السيد أنور السادات رئيس تحرير الجمهورية وقتئذ وهو المسئول الوحيد من رجال الثورة الذي أعرفه، كما أنه رئيسي المباشر، وأخبرته بالرسالة التي في جيبى، وسلمته الرسالة وعندما وجدها مغلقة لم يحاول فتحها، ولكنه اتصل تليفونيا بجهة مجهولة وطلب منها إفاد مندوب لتسلم الرسالة التي جاء بها السعدني من دمشق، وبعد دقائق قليلة حضر رجل دخل الغرفة وسلم على رئيس التحرير وصافح العبد لله أيضاً ثم تسلم الرسالة ومضى.

وجلس مع الرئيس أنور السادات يرحمه الله أحكي له عما شاهدته في دمشق وعن آخر التطورات هناك، ثم قال لي وأنا أغادر مكتبه: يلا بقى روح استلم شغلك وعاوزك تشد حيلك، وقضيت شهر إبريل كله أشد حيلي، وعهد إلي المرحوم كامل الشناوي بمهام جديدة في الجريدة وأضاف إلى العبد لله أعباء أخرى ولكنني كنت حريصاً على تنفيذ نصيحة رئيس التحرير وشمرت عن ساعدي وهات يا شغل كما الحمار الحصاوي، ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان، وكما تصور الشيوعيون العراقيون الذين يقيمون في دمشق أنني من كبار المسئولين في مصر، تصورت الأجهزة في مصر أنني من كبار الشيوعيين في العالم العربي، وإلا فلماذا اختارني الحزب الشيوعي العراقي دون بقية خلق الله لكي أحمل الرسالة وأذهب بها إلى الرئيس عبد الناصر. لا بد أنني جهة أمينة وموثوق بها وعلى علاقة

ود بكل الأحزاب الشيوعية في العالم العربي. ولا بد أنني حريص وحويط وحن أزرق مقلل لدرجة أن جميع الأجهزة المصرية لم تشعر بتحركاتي ولم تكتشف الدور الذي كنت أؤديه على مدى سنوات طويلة، قدروها بعشر سنوات على أقل تقدير!

وفي أول شهر مايو ذهبت إلى خزانة جريدة الجمهورية لتسلم المرتب، ولكن مسئول الخزينة الطيب انتحى بي جانباً وراح يعتذر للعبد لله عما حدث، ولم أكن قد فهمت بعد ما هو الذي حدث، ثم قدم لي ورقة لكي أوقع عليها، ثم قدم لي خطاباً فإذا به خطاب فصل من الجريدة.

يا قوة الله، في المواقف الصعبة من حياتي تتباني حالة غباء منقطعة النظر، تصورت أن أعدائي في الجريدة قد تمكنوا مني أخيراً، وسرحت بعيداً أستعرض الأشخاص الذين يمكن أن يكونوا قد اشتركوا في هذه المؤامرة لفصل العبد لله، ولكنني اكتشفت أن آخرين محررين مثلي في الجريدة يوقعون على نفس الورقة ويتسلمون نفس الخطاب، وكان بعضهم من كبار الشخصيات العامة أمثال بيرم التونسي، وكان بعضهم فنانيين شاباً كالفريد فرج، فسألت رئيس الخزينة، هل هناك كثيرون، قال حوالي ٦٠ شخصاً، وسألت على الفور، هل منهم عبد الرحمن الخميسي، فأجاب بالإيجاب، فضحكت ضحكة صافية وعميقة انتزعته من أعماقي، وأمسكت بساعة التليفون واتصلت بالخميسي في المنزل وبعد السلام والذي منه، سألتني الخميسي أنت بتكلم منين؟ وأجبت من الخزينة في الجمهورية، فقال على الفور فيه فلوس، فلما أجبت بالإيجاب قال طيب يا بني ماتمشيش من عندك أنا

جايلك على طول، قتلته أنا مستنيك بس فيه حاجة عاوز أقولها لك، قال إيه، قتلته أنا فصلوني النهاردة، قال بدهشة شديدة مين الحمار اللي فصلك ده، قتلته مش عارف، قال خليك ماتمشيش وأنت مش ممكن تتفصل، وإن فصلوك أنا هكون معاك ولازم ترجع الليلا دي، استناني يا ابني.

عندما اقتحم الخميس غرة رئيس الخزينة كنت جالسا أرتشف ما تبقى من كوب الشاي وصرخ الخميس في وجه رئيس الخزينة: الخبر ده صحيح إزاي ترفدوا الصحفي الوحيد في الجريدة، وقال الرجل معذرا أنت عارف إحنا ملناش لا في الطور ولا في الطحين، وأنا بعذر لك أنت كمان يا أستاذ عبد الرحمن ولو تكلمت وقع على الورقة دي، ووقع الخميس بسرعة على الورقة ثم ناوله المظروف إياه، فتح الخميس المظروف وقرأ قرار فصله، وهاج الخميس وثار ثورة عارمة وسحبني من يدي وراح ينزل درجات السلم بسرعة وهو يردد بصوت عال. رضينا بالهم والهم مش راضي بينا، ناس معندهاش دم ولا أدب، ترفدوا ناس من جواهر المجتمع المصري، ثم قال وبيرم التونسي كمان ده معقول؟! الناس دي اتجننت، الناس دي اتجننت، ثم خرج إلى الشارع واستوقف تاكسيا ودعاني إلى الركوب فركبت، وقال للسائق: اطلع بينا على ميدان التحرير وسأله إلى أين؟ وتصورت أنه ذاهب إلى جريدة الشعب حيث كانت في طريقها إلى الصدور وكان يقع مبناها في شارع قصر العيني، ولكن الخميس صرخ في السائق ونحن في ميدان التحرير، اكسر يمين على كوبري قصر النيل، وقلت للخميسي أنت رايح فين، قال أنا رايح للشعب، قتلته الشعب كده في شارع قصر العيني، سألني إيه ده، قتلته الشعب

الجريدة، فصرخ في وجهي جريدة إيه ومصيبة إيه أنا رايع للشعب المصري، قتلته لا.. نزلني هنا وروح لوحذك للشعب المصري، أنا رايع الشعب الجريدة.

حاول الخميسي أن يمسك بي ولكنني قفزت من التاكسي وركبت سيارة أجرة إلى منزلي، وجلست في المنزل أفكر في النهاية التي انتهت إليها بعد عمل مخلص دائب لمدة خمس سنوات في جريدة الجمهورية، توليت فيها أمر القسم الداخلي فترة، والشئون العربية فترة، والمحرم المقيم بدمشق فترة، ورحت أفكر في الأسباب التي أدت إلى فصلي بلا مقدمات وبلا سبب، وخطر على نفسي ألف سبب وسبب إلا السبب الحقيقي، وهو الخطاب الذي حملته معي من دمشق للرئيس جمال عبد الناصر، ولم أكتشف هذه المسألة إلا بعد ذلك بزمان طويل، ولو أنهم سألوني أو استفسروا مني لأراحوا أنفسهم وأراحوني من مشاكل كثيرة ومصائب ليس لها مثيل.

وبعد شهر من فصلي اتصل بي الأستاذ كامل الشناوي وطلب مني الذهاب إلى الأستاذ إحسان عبد القدوس في روز اليوسف لأنه ينتظرنى هناك لأمر هام، فذهبت وقابلت الأستاذ إحسان وعرض علي العمل كسكرتير تحرير لروز اليوسف، ووافقت على الفور، ولم أناقش معه أى تفاصيل أخرى، اعتبرت العمل في روز اليوسف كسكرتير تحرير لها هو رد اعتبار للعبد لله بعد الإهانة التي ألحقها بي جريدة الجمهورية، وتصورت أن الحياة صفت للعبد لله. ولم أكن أدرك أن المصائب الحقيقية لم تبدأ بعد، وهي مصائب ونوائب وكوارث كسرت ظهري ولونت حياتي بعد ذلك بلون الهباب!

الفصل الثاني

كان العمل ممتعا في روز اليوسف، فقد كان يعمل
بالمجلة شلة من الفنانين الكبار، كل منهم مدرسة في
حد ذاته، حسن فؤاد وجمال كامل ورجائي ونيس
وصلاح جاهين وبهجت بتاع الفراخ وإيهاب وجورج
البهجوري.

سجن الممالك

وكان يشرف على توضيب المجلة عبد الغني أبو العينين. وكان يعمل بها اثنان من الشعراء البارزين.. صلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطي حجازي، وكان أحمد بهاء الدين يرأس تحرير صباح الخير وفتحي غانم يشرف على تحرير روز اليوسف، وكان إحسان عبد القدوس يتولى الإشراف على المجلتين، وتوجيه المسئولين عن التحرير، وأشهد أنه كان أستاذًا بحق، واستفاد العبد لله من خبرة إحسان عبد القدوس، وكان يعمل بالمجلة عدد من الشباب بدءوا منذ فترة قصيرة خطواتهم الأولى على بلاط صاحبة الجلالة، كان هناك نبيل أباطة، ومحمد تبارك، وكان هناك ممدوح الليثي أحد المسئولين عن التليفزيون المصري في الوقت الحاضر، وكانت مهمتي هي مراجعة موضوعات المحررين وحذف ما ينبغي حذفه، وإضافة ما ينبغي إضافته، والسماح بنشر ما يليق، وحجب ما دون المستوى، كان عبد الستار الطويلة يكتب تحقيقات صحفية جيدة، ولكنه في كل تحقيق كان يشطح شطحة نضالية خنفسارية عن الشواشي العليا للبرجوازية، والكومبرادورية المتعاونة مع الاستعمار الذي هو أرقى

مراحل الرأسالية، وكنت أسمح بنشر موضوعات عبد الستار على الفور بعد حذف هذه الشطحات التي ليس لها محل من الإعراب على رأي عمنا ابن منظور المصري عليه رحمة الله.

و ذات صباح والحملة على أشدها بين عبد الناصر وعبد الكريم قاسم، وإذاعة مصر تشن حملة لا نظير لها على قاسم العراق، ومظاهرات الشيوعيين في بغداد تشعل النار في تماثيل صغيرة لعبد الناصر وتطلق عليه ناصر الرجعية والاستعمار، في هذا الجو المجنون دخل مكتبي عبد الستار الطويلة وكانت أول مرة أراه شخصيا، وبعد أن مد يده وصافحني، قدم نفسه قائلا: عبد الستار الطويلة.. شيوعي! واندعشت جدا أن يعلن أحدهم بدون مناسبة أنه شيوعي في هذا الجو المشحون بالكراهية والعداء، فصافحت عبد الستار وقلت له: محمود السعدني مخبرات أمريكية. وبهدوء شديد يصل إلى حد البرود قال عبد الستار الطويلة: إحنا معلوماتنا أنك مخبرات إنجليزية. فقلت له: الإنجليزية افتقروا علشان كده غيرت.

ثم جلس عبد الستار الطويلة وراح يمتدح سلوكي في سكرتارية التحرير لأنني لا أعطل نشر مقالات أحد بسبب خلافات سياسية أو مذهبية، وقال إن هذا السلوك من جانبك يجعلك عدوا سياسيا شريفا. كان يبدو من لهجته وهيئته أنه ريفي وأنه ساذج على نحو ما. وأن تجربته كلها تنحصر في العمل السري في التنظيمات الشيوعية التي اشترك فيها منذ كان صبيا في الخامسة عشرة، وسألته عن الأحوال فقال ببساطة: الجو كما ترى ليس على ما يرام، والحملة ضد الشيوعيين على أشدها، وبعد أيام سأكون نزيل المعتقل، وكل ما أرجوه منك أن

تعمل بشدة من أجل أن تستمر الجريدة في صرف مرتباتنا، وأن تقف مع قضية الديمقراطية بكل قوة. وقلت للطويلة: ما عليك اذهب إلى السجن ومن الأفضل أن تقيم هناك أطول مدة ممكنة، وسأقاتل من أجلك بأشد ما تشتهي وضحك عبد الستار وغادر مكتبي.

وفي ليلة رأس السنة لعام ١٩٥٩، شنت قوات الأمن حملة اعتقالات واسعة ضد الشيوعيين المصريين، واعتقلت عشرات من المثقفين اللامعين، وبعض القيادات العمالية، ولكن عبد الستار الطويلة ظل حراً طليقاً يأكل ويمشي بين الناس في الأسواق، ولذلك أصبح عبد الستار موضع سخرية المحررين في روز اليوسف، ولكنه كان يعدهم خيراً بأنه سيحل ضيفاً على المعتقل في القريب العاجل، ولم تحل نهاية شهر مارس حتى كانت الحملة قد بلغت أوجها بين حكومة مصر وحكومة العراق، واشترك في الحملة طبعاً خالد بكداش إلى جانب الحزب الشيوعي العراقي.

ولما كان الشيوعيون العراقيون محدثي سلطة، فقد تدنوا في الخلاف إلى أحقر مستوى، ولم يتركوا نقيصة إلا وألصقوها بعبد الناصر. ولم تقصر أجهزة الإعلام المصرية أيضاً فنسبت إلى الشيوعيين ما ليس فيهم. واهتمتهم بالانحلال واحتقار القيم وعدم الشرف والعمل لحساب من يدفع أكثر.

كان يوم ٢٧ مارس عام ١٩٥٩ هو اليوم العاشر على ما أعتقد في شهر رمضان المبارك.. في هذا اليوم دخل مكتبي عبد الستار الطويلة، وأبلغني بأن مسألة اعتقاله هي مسألة ساعات، وأنه على الأغلب سيكون الليلة مع الرفاق الذين سبقوه إلى المعتقل، وأوصاني مرة

أخرى بأهل بيته وبحقوقه لدى الجريدة، ومرة أخرى وعدته خيرا بشرط أن يذهب إلى المعتقل هذه المرة ولا يخلف وعده كما حدث منه في المرة السابقة. وبعد انتهاء العمل في المساء غادرت مكنتي في شارع محمد سعيد خلف مجلس الوزراء وذهبت إلى منزلي، ولم يكن عندي من الأطفال إلا «هالة» وكان عمرها عاما وبضعة شهور، وزوجتي حامل في شهرها الثاني.

وبعد السهرة قمنا لتناول طعام السحور، ولكن جرس الباب دق عدة مرات متواصلة فقامت أفتح الباب، وفوجئت بأن الطارق أفندي في الثلاثينيات من عمره ومعه شخصان، وقال الرجل بأدب شديد: لدينا إذن بتفتيش الشقة وسألته عن السبب.. فأجاب: للبحث عن منشورات، ولما لم يكن لدي أي منشورات من أي نوع فقد رحبت بهم ودعوتهم لدخول الشقة، ويبدو أنهم أصيبوا بخيبة أمل لعدم العثور على منشورات فاستولوا على بعض الكتب من بينها كتب أدبية وكتب ثقافية وكتب سياسية ووقفوا طويلا أمام أحدها كان يحمل غلافه شعار الشيوعية العالمية «المطرقة والسندان» وهو كتاب «آثرت الحرية» - لكرافيشينكو، وهو - فيما يبدو من اسمه - مواطن سوفيتي كان يعمل عميلا للمخابرات المركزية الأمريكية، وتصورت أن الأمر انتهى عند هذا الحد، ولكن الضابط طوسون طلب مني - فيما يشبه الرجاء - أن أصحبهم إلى مباحث الجيزة مؤكدا للعبد لله أن الأمر لن يستغرق إلا دقائق. وارتديت ملابسني على عجل واكتشفت أن الضابط تنتظره أسفل البيت سيارة شرطة وسيارة نقل فيها عدد كبير من الجنود والمخبرين. وأصابني الدهشة لهذا العدد الوفير من رجال الحكومة، واستبعدت أن يكون الهدف هو القبض

على العبد لله؛ لأن فردا واحداً يكفي لهذه المهمة. وركبت السيارة البوكس إلى جانب الضابط وانطلق الموكب بنا إلى بيت في الدقي. وصعد الضابط بصحبة اثنين من المخبرين وغابوا فترة وعندما نزلوا كانوا قد أصبحوا أربعة. وأركبوا الزائر الجديد في العربة اللوري ولم أتبين شخصيته إلا بعد أن وصلنا إلى إدارة المباحث بالجيزة التي كان يتولى رئاستها المرحوم حسن طلعت الذي صار مديراً عاماً للمباحث في مصر فيما بعد

اكتشفت أن زميل الرحلة هو الكاتب الكبير المرحوم أحمد رشدي صالح أحد العلامات الثقافية المضيئة في تاريخ مصر، واكتشفت أيضاً أن معه شنطة بها ملابس و«عدة» حلاقة وفوطة وشبشب وكأنه قرر أن يمكث في المباحث عدة أيام، وسألته عن سبب اصطحابه للشنطة ونحن لن نمكث في المباحث أكثر من خمس دقائق. فرد علي رشدي صالح بسخرية شديدة أنت صدقتهم؟ وهتفت صارخاً: يا خبر أسود آمال هانعقد كثير؟ وأجاب رشدي صالح: ربك وحده هو الذي يعلم. وحبسونا في الحجرة مع غيرنا من المعتقلين لم أتعرف على أحد منهم إلا رشدي صالح. كان مع بعضهم منشورات ومع بعضهم أجهزة آلات كاتبة، وكان بعضهم يرتدي ملابسه وبعضهم بالفانلة واللباس، وبعضهم هيئته طبيعية والبعض الآخر مضروب ضرب غرائب الإبل.

وفي التاسعة صباحاً سمحوا لصالح السعدني شقيقي بدخول الغرفة التي يوجد بها جميع المعتقلين. كان في السنة الأولى بمدرسة السعيدية الثانوية، وبكى عندما رأني فنهرته بشدة وأفهمته أننا في

رحلة لمدة أسبوع نعود بعدها إلى المنزل. وهذا صلاح وجلس بعض الوقت يتحدث مع أحمد رشدي صالح وخرج مطمئنا عندما اكتشف أن شقيقه ليس وحده في هذه الرحلة ولكن هناك عشرات آخرين.

وعند الظهر تماما حملونا في سيارات نقل ضخمة والحديد في أيدينا، ولحسن الحظ جاءت قرعتي في حديدة واحدة مع أحمد رشدي صالح. وتوقفت بنا السيارة أمام سجن القلعة، وهو سجن قديم بناه المماليك ليسجنوا داخله العصاة من المماليك، الذين يخرجون عن طاعة السلطان والذين يدخلون ضده معركة فإذا نجحوا في خلعه جلسوا مكانه، وإذا فشلوا أقاموا في سجن القلعة!

نزلنا من السيارات وطلبوا منا أن نجلس القرفصاء على الأرض، وقلت لرشدي صالح: الآن أدركت سر تمثال الكاتب الجالس القرفصاء عند قدماء المصريين، يبدو أنه كان هو الآخر من نزلاء سجن القلعة. وضحك أحمد رشدي صالح بفتور وقال للعبد لله: هوه دا وقته!

لم تكن مباحث الجيزة فقط التي تقوم بترحيل المعتقلين إلى سجن القلعة، ولكن كانت كل مباحث جمهورية مصر تقوم بنفس العمل وفي نفس الوقت. كنت أنا ورشدي صالح في منتصف الطابور وكان الطابور يمتد أمامنا أكثر من خمسين مترا، ويمتد خلفنا أكثر من خمسين مترا، وكان كل صف يتكون من أربعة معتقلين. وبدأ الطابور يزحف ببطء إلى داخل السجن، فقد كانوا يأخذونهم فردا بعد آخر، وعندما تصاعد أذان العصر من فوق مئذنة جامع محمد علي، كان الصف الذي ننتظر فيه قد اقترب من باب القلعة. وبدأت أتبين عددا من

الأشخاص الذين كانوا في الصفوف الأمامية لحظة دخولهم من باب السجن.

كان هناك الدكتور لويس عوض، والأستاذ لطفي الخولي والصحفي فتحي خليل والفنان زهدي، ولكن الذي جعل قلبي ينبض بشدة هو وقوع بصري على شخص لم أتوقع وجوده في هذا المكان على الإطلاق ولمحت الفنان جمال كامل وهو يدخل من الباب إلى السجن وهو في حالة أقرب إلى الذهول، وكان من حقه أن يصاب بالذهول؛ لأنه كان فنانا فحسب، ربما كانت له أفكار تقدمية شأنه شأن كل شباب الجيل، ولكن جمال كامل لم يكن من النوع الذي ينتمي لتنظيم أو يمارس نشاطا سريا. وعلق أحمد رشدي صالح على وجود جمال كامل بين المعتقلين قائلا: يبدو أنهم لن يتركوا أحدا في الخارج!

ولمنا في الصفوف الخلفية الكاتب المسرحي ألفريد فرج، والمناضل العجوز عمر رشدي الذي كان شيوعيا في عام ١٩٤٥، وكان قد كف بالتأكد عن أي نشاط سياسي واكتفى بالجلوس على قهوة إيزايفتش بميدان التحرير يتكلم في السياسة ولكنه لا يمارسها، ورحت أفتش بين الصفوف عن عبد الستار الطويلة ولكني لم أعثر له على أثر. وظننت أنه وصل مبكرا ودخل السجن مبكرا وهو الآن مع الرفاق الذين كان يتشوق لرؤيتهم.

كان يجلس في الصف الذي أمامنا مباشرة أربعة أشخاص يرتدون الجلابيب، أحدهم كان مضروبا بشدة ودمه مجفف على وجهه ورأسه، وكان زميله في الحديد رجلا عجوزا عرفنا فيما بعد أنه رئيس نقابة في

كفر الدوار، أما الاثنان الآخران فقد كانا في سن الشباب، كان أحدهما طويلا بشكل ملحوظ وكان الآخر أقصر منه بقليل، وكان الطويل يبكي باستمرار وبصوت عال، وشعر أحمد رشدي صالح بالضيق من بكاء الرجل الطويل ونهره بحزم وطلب منه أن يكف عن البكاء قائلا له: يا بني عيب عليك تبقى طويل كده وتقعّد تعيط. ولوى الشاب عنقه نحونا وقال لرشدي صالح: واللّه يا سعادة البيه أنا ما عملت أي حاجة وردّ عليه رشدي صالح قائلا: أنت بتقوللي أنا، ابقى قول لهم لما يسألوك ودلوقتي بطل عياط وبلاش توجع دماغنا إحنا مش ناقصين، وكف الشاب عن البكاء ومسح دموعه بطرف جلبابه، ثم التفت إلى رشدي صالح وقال له: إحنا هانخرج إمتى يا سعادة البيه؟ ورد عليه رشدي صالح بغضب: ماحنا بره أهه، انتظر لما نخش جوه وبعدين اسألهم هانخرج إمتى.

وأضحكت نكتة رشدي صالح المعتقلين الذين كانوا بالقرب منا، والتفت أحد الضباط لمصدر الضحك ووضع سبابته على فمه وقال: هس.. وبعد دقائق كنا أمام قائد معتقل القلعة الذي جردنا من الساعات والأوراق والأقلام والنقود وأحزمة البنطلونات ووضعها في أظرف على سبيل الأمانة، ثم وزعنا على زنانات وكان حظي سعيدا، لأنني دخلت زنزانة كانت تضم أربعة أشخاص بالإضافة إلى العبد لله، أما الأربعة فهم المناضل العجوز عمر رشدي والكاتب المسرحي ألفريد فرج والصحفي فتحي خليل والأستاذ الكبير أحمد رشدي صالح. ولما كان بالزنزانة ثلاثة أسرة فقط فقد افترش ألفريد فرج الأرض ثم انضم إليه فتحي خليل وانضم إليهما ثالث وفد علينا في اليوم الثاني هو الأستاذ يوسف عيسى موسى وهو مدرس

لغة إنجليزية جاء من الإسكندرية. ولولاه لمتنا في الزنزانة من شدة الكسل والقذارة. فقد تولى مسئولية النظافة ومسئولية إعداد الطعام، وكان نعم الرفيق والصديق.

ولمدة ثلاثة أيام لم يفتح فيها الباب لحظة واحدة إلا وقت تسليم الوجبات، أما بقية الوقت فالباب مغلق، والنافذة أضيق من صدر الكافر، وهكذا بدأت الرحلة الميمونة التي استمرت خمسة أعوام بالنسبة للبعض، والتي انتهت إلى «زمش» أشهر وأغرب تنظيم عرفته الحركة الشيوعية في تاريخها الحافل المثير!!

الفصل الثالث

ثلاثة أيام والأبواب مغلقة والمساجين مكдسون
كالسردين في الزنازين.. وأتاحت هذه الأيام الثلاثة
للعبد لله أن يتأمل الزنازين التي بنيت في العصور
الوسطى لينزل بها الأمراء الخارجون عن طاعة
السلطان. كانت الجدران في سجن القلعة مبنية من
حجارة شبيهة بأحجار الأهرامات.

هابيوس كوربوس

وكانت سميكة إلى الحد الذي يكفي لعزل ساكني الزنزانة عن العالم الخارجي، ولم يكن في الزنزانة أى منفذ للهواء إلا ثقب في السقف مركب على فتحة ماسورة أشبه بـ«شكمان» السيارة أما الباب فهو من الحديد الصلب وسمكه أكثر من عشرة سنتيمترات، وله مزلاج خارجي يحدث صريرا عند عملية الفتح والقفل أشبه بصرير ترومواي شبرا عن الدوران.

وفي هذا السجن الكئيب عاش ومات مئات من الأمراء والقادة والوزراء والمماليك. ونزل به عشرات من أبطال ثورة عرابي، واستخدمته كل العهود وكل الحكومات في حبس أعدائها والمناوئين لها والذين تحوم الشكوك حولهم. وبسبب هذا السجن لقي البطل العظيم السلطان المظفر قطز حتفه وهو راجع من معركة عين جالوت بعد نصره التاريخي على التتار، فقد حدث أن قال له الظاهر بيبرس: لقد وعدتني بولاية حلب بعد المعركة، وأنا الآن في انتظار تنفيذ وعدك، ولكن السلطان الظافر قطز ابتسم للظاهر بيبرس وقال له: انس هذا الوعد فأنا أريدك بالقرب مني في القلعة، وقلبت العبارة مخ

الظاهر ببيرس فما الذي يقصده قطز بعبارة «أريدك بالقرب مني في القلعة» إن بالقلعة قصر السلطان والسجن، وليس هناك شيء آخر، لا بد أنه يقصد السجن ولا شيء آخر. فأضمرها الظاهر ببيرس في نفسه، وحانت له الفرصة بالقرب من غزة عندما رمح السلطان وراء غزال يريد اصطیاده، فرمح الظاهر ببيرس خلفه ورماه برمح فاستقر بين ضلوعه وسقط ميتا على الفور!

وعلى جدران الزنزانة نقوش كثيرة وكلمات أكثر. حديث نبوي كتبه أخ مسلم «اتقوا البرد فقد قتل أخاكم أبا الدرداء» والتاريخ نوفمبر ١٩٤٨! على جدار آخر عبارة «تحيا لجنة الطلبة والعمال» والتاريخ ١٩٤٦! في جانب آخر من الجدار «تسقط الملكية الفاسدة» والتاريخ فبراير ١٩٥٢! تحتها مباشرة عبارة «تسقط الفاشية العسكرية» والتاريخ ١٩٥٤ بعدها أيضا بيت من الشعر:

ولست أبالي حين أقتل مسلما على أي جنب كان في الله مصرعي

والتاريخ ١٩٥٤! في جزء آخر من الجدار عبارة «عاش كفاح الطبقة العاملة» والتاريخ ١٩٥٩! ثم عبارة أخرى «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا» والتاريخ ١٩٥٧! في أسفل الجدار عبارة «عاشت ذكرى مؤسس الإخوان الشيخ حسن البنا» والتاريخ ١٩٦٥.

عبارات كثيرة هي في الحقيقة تاريخ الزنزانة بأقلام الذين دخلوها لقد دخلها الجميع منذ عام ١٩٤٦ إخوان وشيوعيون وديمقراطيون وطلبة وعمال وصياع ومتآمرون ومشاغبون، ناس ضد الملكية، وناس ضد الثورة، ناس مع الله، وناس مع ماركس، وكلهم جمعتهم الزنزانة غالبا في عصور متعاقبة وأحيانا في عصر واحد!

بعد أن ضاق صدري بالحبس في الزنزانة ناديت على عم طه الحارس ودار بيني وبينه الحوار التالي:

- افتح يا عم طه.

ويفتح عم طه الباب فيدور الحوار على النحو التالي:

- أنت قافل علينا ليه يا عم طه، إحنا عملنا حاجة.

- لا، إنتو ما عملتوش لكن الواد اللي في الزنزانة اللي جنبك دي شتمني وقل أدبه عليّ.

- طيب إحنا عملنا حاجة.

- لا ما عملتوش، ولكن ما فيش فتح خالص.

ثم يغلق عم طه الباب.

وأعود أزعق مرة أخرى بالصوت الحياني.

- افتح يا عم طه الباب.

ويفتح عم طه الباب ويدور نفس الحوار وب نفس الكلمات. ثم يغلق الباب من جديد.

وتمضي ثلاثة أيام كاملة ونحن في الحبس الرهيب، ونأكل ونشرب ونتحاور وننام نوما متقطعا ونستيقظ على أحلام غريبة وكوابيس مزعجة، وكان المناضل القديم عمر رشدي يحلم بكأس من الويسكي وصحن من الترمس، وكان رشدي صالح شديد الصمت شديد الشرود، ولكن كان أحيانا يفصح عما في صدره.

- تصوروا.. ثلاث مرات أعمل «بيت» والحكومة تهده!

كان أسف رشدي عميقا، فعندما ألقوا القبض عليه كان قد ابتعد تماما عن الحزب الشيوعي وكان يكتب في الجمهورية مذكرات طالب عراقي بدون إمضاء، عن حالة القهر والتعذيب والإرهاب الذي يلقاه المعتقل في سجون عبد الكريم قاسم ولكن الدوسيهات لا ترحم والقوائم لا تغفر، وعندما ألفت الحكومة القبض على الشيوعيين، كان الأمر الصادر إلى رجال الشرطة بالقبض على الشيوعيين والمتعاطفين معهم ومن يوجد معهم لحظة القبض عليهم، ولكن رشدي صالح كان لديه أمل في الإفراج عنه سريعا فقد كتب رسالة إلى المرحوم كامل الشناوي وطلب من السيدة حرمة توصيلها إلى الأستاذ كامل في جريدة الجمهورية، ولكن الأيام مرت بطيئة دون أي بادرة تلوح في الأفق عن إفراج قريب.

وكان المرحوم فتحي خليل ساهما ومتشائما على طول الخط. وكان من رأيه أنها المعركة الأخيرة مع السلطة، وأنها ستنتهي بشنق الشيوعيين على أعواد الشجر.

وكان الكاتب المسرحي ألفريد فرج نائما طول الوقت، وعندما يستيقظ كان يردد عبارة واحدة.. إحنا مش معتقلين، إحنا يا أستاذ مخطوفين في الذرة!

وجاء الفرج بعد ثلاثة أيام، فتحوا الأبواب فخرجنا إلى الحوش وكان العبد لله هو أسبق الجميع للخروج، وهالني ما رأيت.

فقد كانت فكري عن الشيوعيين حتى هذه اللحظة أنهم مجرد

مجموعة من الصحفيين والفنانين الذين أعرفهم ومجموعات أخرى من المثقفين كانوا يجلسون على قهوة إيزافيتش بميدان التحرير. ولكن الذي رأيته في صالة السجن كان يختلف تماما عن الفكرة التي كانت في رأسي. كان هناك مجموعة كبيرة من العمال من بينهم رؤساء نقابات، ورجال أعمال، وفلاحون ومزارعون، وعندما رأيت المرحوم الدكتور لويس عوض هرعت إليه كغريق يتعلق بقشة. كنت أعلم أن لويس عوض ماركسي ولكنه على خلاف حاد مع الشيوعيين. فلماذا ألقوا القبض عليه؟ ولماذا ألقوا القبض على العبد لله أيضا؟ مع أن بيني وبين الشيوعيين مساحة شاسعة!

لقد وقعت الحكومة في نفس الغلطة التي وقع فيها الشيوعيون المصريون. فمن ليس معي فهو ضدي. وأذكر أنني ذهبت مرة إلى جريدة المساء قبل اعتقالنا بعدة أيام. ورأيت في الطريقة الضيقة مجموعة من الصحفيين يتحاورون بحرارة. وكان من بينهم الدكتور عبد العظيم أنيس وعندما رأي قال بصوت عال حتى يسمعه كل الحاضرين.

- أهلا.. الأستاذ محمود السعدني جي يزور الأستاذ محمد عودة. وكانت هذه إشارة للجميع بأن يكفوا عن الكلام واندعشت لموقف الدكتور عبد العظيم أنيس، فمحمد عودة ليس مع الحكومة ولا هو في جهاز المباحث. ولكنه صاحب رأي وكان رأيه يختلف عن رأي الرفاق الشيوعيين.

وكانت هذه الحالة هي إحدى الأخطاء القاتلة التي وقعت فيها الحركة الشيوعية المصرية. فكل من ليس عضوا في التنظيم هو

إمبريالي استعماري وعميل للشواشي العليا للبورجوازية. ولذلك لم يفتح التنظيم الشيوعي في مصر على الجماهير المصرية في أى وقت من الأوقات، ولم يستطع التواجد في الشارع المصري في أي وقت.

أما عضو التنظيم فهو المناضل الثوري الذي يملك في يده مفاتيح الحل لكل المشاكل على وجه الخصوص. أما الآخرون فهم إما برجوازي منحل، وإما عميل للاستعمار. وإما كلب للسلطة، ولذلك.. اكتسب الشيوعيون المصريون أعداء كثيرين كان يمكن كسب ودهم، أو على الأقل تحييدهم!

ولكن.. الحق أقول.. لم يكن كل الشيوعيين من هذا النمط، كان هناك حسن فؤاد الفنان الطيب، الذي يصادق في ود، ويخاصم بدون عدا، وكان هناك بكر سيف النصر الذي لم أصادف في الحياة شخصا مثله. وكان هناك زكي مراد المحامي ذو القلب الكبير والعقل الراجح.

وكان هناك أسعد حليم الهادئ العميق الذي كان يرى أن الحركة الشيوعية هي قمة الفشل لأنها حركة انطوائية. وكان هناك سيد إبراهيم الذي كان كالمرهم يداوي جروح الآخرين ويحمل همومهم، وكان هناك علي الشلقاني الفارس.

وكان هناك محمود المانسترلي الطيب الهادئ المتفائل دائما الفاهم دون ادعاء المثقف دون جعجعة. وكان هناك علي الشوباشي المسالم المندehش دائما الضاحك في كل وقت. والمهم أنني هرعت إلى الدكتور لويس عوض أسأله رأيه في المحنة التي نمر بها، وأستفسر منه عن

الوقت الذي ستنقشع فيه. كان لويس عوض - يرحمه الله - يرتدي روب دي شامبر أحمر اللون وشبشا سويسريا «بالي» ويركن السيجارة في ركن فمه، ورد عليّ الدكتور لويس تحيتي قائلاً:

- هاللو.

سألته عن رأيه في المحنة التي عصفت بنا فقال:

ما تخافشي لازم نخرج بكرة أو بعده. كانت هذه أول بشارة أتلقاها من عمنا لويس عوض. ولكن لكي يطمئن قلبي عاودت السؤال:

- يعني.. أنت متأكد..

وقال الدكتور في ثقة تامة:

- طبعاً.. هابوس كوربوس.

وقلت يا فرج الله.. لا بد أن له قريباً في المباحث العامة اسمه هابوس كوربوس، ولا بد أن الرجل طمأنه وأكد له موعد الإفراج، لا بد أن الحكومة في ذروة الأزمة اضطرت إلى القبض على الكثيرين، ثم بدأت البحث والفحص ولا بد أنها ستفرج عن الذين لم يكونوا أعضاء في الحزب الشيوعي، وبالطبع سيخرج الدكتور لويس عوض، وسيخرج العبد لله أيضاً.. يا سلام.. هل سيكتب للعبد لله التجول في شوارع القاهرة مرة أخرى. وندر على العبد لله أن أطوف بالحواري وأن أجلس على الرصيف وأن أسرح خلف عمنا زكريا الحجاوي في القرى والكفور، وننام على المصاطب أو على الرصيف.. لا فرق!

وعدت أسأل الدكتور لويس عوض لكي يطمئن قلبي:

- لكن هوه اللي قالك بنفسه؟

وارتسمت الدهشة على وجه الدكتور وقال مستنكرا:

- هو مين دا؟

- هاببوس كوربوس، مش هوه لواء في المباحث.

واتخذ الدكتور لويس عوض هيئة الأستاذ وقال باشمئناط:

- أنا ما عرفش مباحث وما عرفش الناس دى.

- مش أنت اللي قلت هاببوس كوربوس قالك لازم نخرج بكرة
أو بعده.

وقال الدكتور لويس عوض:

- هاببوس كوربوس دا - يا جاهل - قانون روماني قديم اسمه
ابرز الجثة.

- قانون روماني!.. طيب مالنا إحنا ومال القانون الروماني ده.

- القانون دا بيقول مايمكنش حد يقبض على مواطن أكثر من
ثلاثة أيام، بعدها لازم يظهر المواطن.. إما أمام المحكمة وإما في
الشارع..

وقلت للدكتور لويس عوض:

- وأنت مصدق الحكاية دي؟

وقال الدكتور في ثقة شديدة:

- طبعاً.

وساد الصمت بيننا برهة قطعه العبد لله قائلاً:

- تصدق بالله، لو هاببوس كوربوس جه هنا، هيجبسوه معانا..
وهياكل ضرب ماكلوش حرامي في مولد، هاببوس كوربوس مين يا
عمنا، إن كان اعتمادك على هاببوس كوربوس دا، يبقى مش هنخرج
من هنا غير يوم القيامة؟

وابتسم الدكتور لويس عوض، وسحب أنفاساً عميقة من
السيجارة ومضى في اتجاه زنزانتة شاردا، وكأنه تأثر برأي العبد لله
في السيد هاببوس كوربوس إياه!

كان الشخص الآخر الذى لفت نظري في فناء السجن، الشاب
الطويل الذي كان دائم البكاء ونحن في انتظار الدخول إلى سجن
القلعة. كان منظره يختلف تماماً عن منظره في ذلك اليوم. كان يرتدي
الشورت وفانلة مخططة مثل فانلات بتوع الكورة. وكان يحمل في يده
براد شاي من الحجم الكبير ويزعق بأعلى صوته.

- مين عاوز يشرب شاي يا زملا.

وتصورت في البادية أنه ابن بلد بحبوح يسقي المعتقلين شايا على
حسابه، ثم اكتشفت أنه يبيع الشاي مقابل سجاير... لم يكن هدفه
التجارة ولكن كان هدفه البحث عن سجاير أكثر بسعر أرخص.
فقد كانت سعادته في الحياة لا تتحقق إلا بوجود الشاي والسجاير،
وسياكل ضرباً خلال السجن الطويل من أجل الشاي والسجاير.

كان اسمه أحمد شوقي عبد الهادي، وهو من سكان منيل شبحا

بالجيزة، ووالده ناظر مدرسة أولية، وهو موظف في مديرية التحرير، وقد ألقوا القبض عليه مع شقيقه الطالب. وهو في الحقيقة ليس شيوعيا ولكنه استقبل بعض أصدقائه من العاملين في مديرية التحرير. وكانت سعادته بهم كبيرة لأنهم كانوا يجلبون معهم الدخان المعسل والحشيش. وتكررت زيارتهم في بيت أحمد شوقي وكانوا أثناء القعدة يتحدثون عن حزبهم وضرورة النضال ضد الفاشية. ولكن شوقي لم يجد في هذه الأحاديث ما يلفت النظر، فالمهم أن الجوزة شغالة، والنار لا تنطفئ، وبرد الشاي شغال عمال على بطل.

وذات ليلة طرق الباب مجهول. ولما سأل شوقي عن شخصية الطارق، جاء الجواب:

- بوليس.

بوليس!! يا ليلة سودة، كان شوقي يحتفظ معه بقطعة من المزاج فأسرع بالتخلص منها، ثم فتح الباب بعد أن اطمأن أن كل شيء على ما يرام!

ولكنهم بالرغم من عدم عثورهم على حشيش، فقد ألقوا القبض عليه مع شقيقه.

ولكن حديثي مع شوقي انقطع فجأة، فقد دوت الصفافير في أنحاء السجن تدعو المعتقلين إلى دخول الزنازين.

الفصل الرابع

ومرت الأيام بطيئة ومملة في أول الأمر، ومرت أسبوع كامل قبل أن يظهر عبد الستار الطويلة في السجن، وجاء متلهفا على رؤية الرفاق والأصدقاء ولكنه كان حزينا لوجوده في سجن القلعة، كان يتحرق شوقا إلى الذهاب لسجن الواحات الخارجة حيث المناضلون الأصلاء الذين سبقونا مع بداية العام الجديد.

ولكن هناك فرق!

وعندما رآني عبد الستار قال على الفور: لقد سمعت نبأ اعتقالك ولم أصدق بادئ الأمر، وعندما تأكدت أدركت أن الحملة هذه المرة شديدة. والهجمة شرسة، والمعركة ستكون فاصلة لأنها ستكون المعركة الأخيرة، ثم قال: وأعتذر لك عما قلته في مكتبك بروز اليوسف، فالحقيقة أنك برجوازي وطني شريف. وحمدت الله وشكرته لهذه الترقية السريعة.

وجاء الفرج بعد أسبوع واحد، انطلق صوت الشاويش طه في الدهليز الضيق الذي يفصل بين الزنازين ينادي بأعلى صوته.. فين أحمد رشدي صالح، وعندما أجابه الأستاذ أحمد رشدي صالح أمره بالاستعداد للرحيل، وأوصاه بأن يجمع كل متعلقاته، وحذره من أن يحمل معه أوراقا أو خطابات من معتقلين آخرين.

وغاب الشاويش طه دقائق، استعد رشدي صالح خلالها فارتدى ملابسه وجمع أمتعته وجلس ينتظر، وجاء الشاويش طه وفتح الباب وسمح لرشدي صالح بالخروج وكان الوقت يشير إلى التاسعة مساء، وأصوات ميكروفونات تتردد من بعيد تحمل بعض الابتهالات

الدينية ودعاء من شيخ يدل صوته على أنه كيف يصرخ بصوت يقطر
أسى.. يا أرحم الراحمين ارحمنا، وتمنيت لو كنت مع الشيخ الضرير في
السرادق، أو مع جموع الناس الطيبين في أزقة سيدنا الحسين، أو معهم
على مقاهي السيدة زينب، أو جالسا على الرصيف مع عمنا زكريا
الحجاوي في قهوة محمد عبد الله، وانتابني حالة من الكآبة ورشدي
صالح يغادر الزنزانة.

كان لدى العبد لله إحساس بأن رشدي صالح خارج إلى
الحرية، وكان لديه إحساس بأنه ذاهب إلى سجن آخر.. ربما إلى
الواحات.. وربما إلى سجن مصر تمهيدا لمحاكمته.. وعندما أغلق
الشاويش طه باب الزنزانة انتاب الجميع حالة من الشرود والصمت
لم يقطعها إلا المناضل العجوز عمر رشدي الذي قال فجأة وبلا
مناسبة.. سيأخذ رشدي صالح حماما ساخنا هذه الليلة، وبإمكانه أن
يخرج إلى الشارع وأن يدخل أي بار، وأن يطلب واحد ويسكي بالثلج
وطبق ترمس ويخلق في الفضاء العالي، ونمنا مبكرا تلك الليلة، وفي
الصباح ساقونا جميعا إلى الحلاق، وعندما وضع «الموسى» على ذقن
العبد لله أدركت أن الحلاقة في سجن القلعة هي جزء أساسي من
التعذيب. فلم يكن «الموسى» الذي يستعمله الحلاق «موسى» من
النوع الذي نعرفه، ولكنه كان قطعة من الصفيح الصديء، ويستعمل
فوطه سبق استعمالها في تنظيف مراحيض باب اللوق، وكان فرضا
على كل معتقل أن يخلق ذقنه، لأن إدارة السجن كانت حريصة على
أن يبدو جميع المعتقلين بهيئة مناسبة تتفق مع حقوق الإنسان وحقه في
الحياة بكرامة حتى وهو خلف الأسوار!!

ولم يكن الحلاق وحده هو سبب تعاسة العبد لله، كان متعهد الأكل سببا آخر، كان الإفطار مكونا من عشر فولات ورغيف يشبه أرغفة هذه الأيام. وأحيانا كان يضيف إلى الوجبة قطعة من الجبن هي في الواقع جزء من إصبع طباشير من النوع الذي تستعمله الكتاتيب في الريف المصري. أما الشاي فيحتاج إلى شاعر عبقرى من نوع بيرم التونسي لكى يتمكن من وصفه. أما «السجاير» فكان مسموحا بها خصما من أمانات المعتقل وعلى حسابه. وبالرغم من ذلك استطاع العبد لله أن يآلف جو السجن، وكانت رفقة الزنزانة هي خير معين على تجاوز محنة الإحساس بالقهر. ثم جاء الفرج أخيرا وبدءوا في استدعاء بعض المعتقلين للمثول أمام النيابة، وأفتى بعض العارفين ببواطن الأمور، أن الحكومة تقوم بتصفية المعتقل، وأنها ستكتفي بسجن الذين يثبت ضدّهم اتهامات محددة، أما الناس الذين ليسوا أعضاء في الحزب الشيوعي المصري، ولم يضبط لديهم ممنوعات فسيغادرون السجن بعد عدة أسابيع على الأكثر.

واطمأن العبد لله لهذه الشائعات واعتبرتها حقيقة لا تقبل الجدل. وراح بعض الذين توهموا أنهم في الطريق إلى أعوام طويلة من السجن يوصون العبد لله بمهام كثيرة أوّديها لهم عندما أصبح خارج الأسوار. ولكن - وآه من لكن هذه - جاء مدير المعتقل ذات صباح ونادى على أسماء المعتقلين الذين سيذهبون للتحقيق أمام النيابة، وكان اسم العبد لله على رأسهم. وبقدر الحزن الذي انتابني لأنني سأقف أمام النيابة بقدر الفرح الذي شعرت به، لأنني سأخرج من بوابة السجن وسأشاهد الشارع وأتفرج على الناس وعلى الترموايات

وعلى الأتوبيسات، وأستمع إلى نداءات الباعة و.. يللي الهوى هزك
يامشمش، ولاتين ولا عنب زيك يا خيار يا لوبيا.. وجلست في
سيارة السجن وعيناي تلتهمان - من خلال الفتحة الضيقة - كل
منظر، حتى أسفلت الشارع صار له معنى جديد. حتى برك المياه التي
تغرق الشارع كانت أجمل في نظري ألف مرة من بحيرات جنيف،
وغبطت كل المارين في الشارع حتى المتسول العجوز الذي كان يقف
أمام المتحف الصحي بعابدين، تمنيت من الله أن أحل محله.

يا سلام لو كان الإنسان حرا ومتسولا: ما أجمل أن يكون الإنسان
حرا وعاطلا، أو حرا وضائعا، وحسوني في حجرة مع معتقل آخر
كان يجلس على الأرض وبجانبه مطبعة وعشرة صناديق منشورات،
وكان يرتدى جلبابا وشبشا، وسألني عن المضبوطات التي معي
فنفيت له ضبط أي أوراق سوى عدة كتب تباع كلها في الأسواق فقال
على الفور.. براءة! سألته عما معه فأشار إلى أحد الصناديق الضخمة
وقال: «ده مطبعة» وأشار إلى الصناديق الأخرى وقال: ده منشورات
وسألته: هل أنت معترف بما لديك من مضبوطات قال طبعا ولي
الشرف، وعندما سألته عن الحكم الذي ينتظره قال: عشر سنوات
لأنني أتشرف بأنني عضو قيادي في الحزب الشيوعي المصري!

وعندما جاء الدور على العبد لله أدخلوني حجرة بها مكتب
كبير يجلس عليه رئيس نيابة أمن الدولة وأعتقد أنه كان الأستاذ
سمير ناجي على ما أتذكر وكان بدينا بعض الشيء، وصاحب وجه
مستدير ومريح، وكان هادئا ومهذبا، ودعاني للجلوس، ثم ألقى
نظرة على أوراق بجانبه، وسألني هل أنت عضو بالحزب الشيوعي

المصري؟ فأجبتة بالنفي، وسألني عن رأيي في المعركة الناشبة بين جمال عبد الناصر وعبد الكريم قاسم. وأجبتة.. عبد الكريم قاسم مخطئ، وأعتقد أنه ينفذ مخططا بريطانيا انتقاما من عبد الناصر لتأميمه قناة السويس ولموقفه من حرب الجزائر، وسألني عن أصدقائي من الشيوعيين فأجبتة بأنني صديق للكثير من الناس خصوصا في مجال الفن والصحافة، ولكني لا أعرف إن كانوا شيوعيين أو رأسماليين ولا يهمني ذلك.. ثم وضع الرجل القلم الذي في يده على المكتب وسألني وهو يبتسم.. آمال همة جايينك ليه؟

قلت له: والله ما أنا عارف.. في هذه اللحظة نهض رجل كان يجلس في الحجرة على مقربة من مكتب رئيس النيابة واقترب منه ومال على أذنه وهمس بعدة كلمات لم أسمع منها إلا كلمة الحزب الشيوعي المصري. ولم أهتم بالرجل أو بما قاله وتصورت أنه أحد مساعدي النيابة ولكني عرفت بعد عودتي إلى الزنزانة أن هذا الرجل يدعى عشوب وكان مفتشا للمباحث العامة في مدينة القاهرة.

المهم أن رئيس النيابة قال للعبد لله وبلهجة تنم عن صدقه.. لو كان الأمر بيدي لأمرت بالإفراج عنك من سرايا النيابة. وسألته بسذاجة: آمال الأمر بيد مين؟.. فأجاب: أنت معتقل بقرار جمهوري. ولا يفك أسرك إلا قرار جمهوري آخر، ثم قال على كل حال مجيئك إلى النيابة أتاح لك فسحة ليست على البال، وزيادة في التكرم سأبقىك هنا بعض الوقت وسأطلب لك «فنجانا» من القهوة لكي تعدل دماغك، وأنست للرجل واطمأنت نفسي في حضرته فسألته بود شديد: وتفتكر السجن ده لحد إمتى؟ فأجاب: علم ذلك عند

ربي، فهتفت دون وعي: يا خبر أسود، قال رئيس النيابة ميهمكش
السجن للجدعان!

عندما عدت إلى السجن أمطرنى زملاء الزنزانة بأسئلة كثيرة
عن جو التحقيق وعن سلوك رئيس النيابة، وحكيت لهم ما حدث
بالتفصيل فأفتى عمر رشدي بأن هذه الحبسة ستكون أطول حبسة في
تاريخ الحركة الشيوعية المصرية، وأن الشيوعيين لن يغادروا السجن
إلا إذا غادر عبد الناصر الحياة، وقال فتحي خليل ستنتهي المعركة
بتعليق زعماء الحزب الشيوعي على المشانق وتصفية القواعد وقطع
دابر الشيوعية من أرض مصر ثم هز رأسه وقال: ولكن ستنتصر
الشيوعية في نهاية الأمر.. ولم يكن يشغل بال العبد لله انتصار
الشيوعية أو هزيمتها. كل ما كان يشغل بالي هو الخروج من سجن
القلعة إلى الشارع بأي ثمن وبأي وسيلة حتى لو أدى الأمر إلى هروبي
من المعتقل، أو وقوع انقلاب في مصر يخرجنا بقوة السلاح، أو بهبوط
طائرة هليكوبتر في فناء السجن تحملني معها إلى أي مكان ولو إلى
جهنم الحمراء: فقد كنت بطبعي أكره البقاء في مكان واحد وقتا
طويلا. وكنت دائم التنقل من مكان لآخر كالنحلة، وكنت أسافر
من القاهرة في الصباح إلى بورسعيد ثم أنتقل منها إلى دمياط ثم أعود
إلى القاهرة في مساء نفس اليوم. ولكنك في السجن مفروض عليك
أن تبقى مكانك والزنزانة ضيقة والباب مغلق على الدوام، حتى
المناقشات بيننا انتهت. حتى الكلام أصبح معادا ولا جديد حتى
السرхан خارج الأسوار أصبح محدودا كأنها خيالنا مسجون هو
الآخر مع أجسامنا في زنزانة سجن القلعة.

ولم تكن لدي أي أخبار عن الأسرة، لم يكن عندي من الأولاد إلا هالة وكانت في شهرها الخامس عشر وكانت زوجتي «حاملا» في أكرم منذ شهر ونصف، ليلة اعتقال، ولم يكن لهم مورد سوى مرتبي وسيارتي تركتها في الجراج لا أدري عنها شيئا. وشقيقي صلاح كان في السنوات الأولى بالمدرسة السعيدية لا حول له ولا قوة، والوالد كان على المعاش ولا يعلم أحد ماذا يخبئه الغد لأسرتي الصغيرة!

و ذات مساء همس السجن كله بأن مدير عام المباحث وصل إلى السجن بنفسه ليشرّف على إعداد زنزانة لاستقبال شخصية مهمة في طريقها إلى السجن. وضرب الشيوعيون أخماسا في أسداس، وراحت التحليلات والتنبؤات إلى كل اتجاه، بعض العارفين ببواطن الأمور أكدوا أن خلافا حادا وقع بين عبد الناصر وعبد الحكيم عامر بشأن اعتقال الشيوعيين، وأن عبد الحكيم عامر يرفض بشدة اعتقال أي شيوعي باعتبارهم من القوى الوطنية الذين حاربوا المستعمر ١٩٥٦! وأن عبد الناصر أمر باعتقال عبد الحكيم عامر وهو في الطريق الآن إلى معتقل القلعة، وقال البعض الآخر إنه المهندس عبد المنعم شتلة أحد زعماء الحزب الشيوعي المصري الذي يقود النضال من مخبئه قد وقع في أسر الحكومة.

وجاء المعتقل الـ vip في منتصف الليل وحاول البعض أن يسأل حراس الليل عن اسمه أو عن شكله ولكن أحدا منهم لم يحصل على شيء يفيد. وفي الصباح كانت المفاجأة، فالسجين الجديد ضابط في الجيش المصري برتبة عقيد وكان ملحقا عسكريا لمصر في ليبيا، ثم سحبوه من ليبيا لسبب أو لآخر وأبقوه في القاهرة بلا عمل، فلا هو

عاد إلى ليبيا ولا هو عاد إلى صفوف الجيش، فتحمس الرجل وكان من الضباط الأحرار وكتب برقية إلى زكريا محيي الدين وزير الداخلية نصها: إن السجن الصغير أحب إلي من السجن الكبير، فكتب زكريا محيي الدين على البرقية: يجاب إلى طلبه، فألقوا القبض عليه وحسوه في سجن القلعة، لقد صار الملحق العسكري مسجوناً مثلنا.. ولكن هناك فرق! كانت الزنزانة مفتوحة الأبواب على الدوام، والملحق العسكري يشخط وينظر في جميع الحراس من أول مدير المعتقل إلى الشاويش طه.. وكان الجميع يلزمون الصمت أمامه ويؤدون له التحية العسكرية، وعندما رفض أكل المتعهد جلبوا له طعاماً من مطعم شهير في القاهرة، وسمحوا له بوابور سبرتو وبراد شاي وكنكة قهوة لكي يصنع لنفسه ما يشاء من مشروبات، وكان من حقه أن يكلف الجندي بشراء أي شيء يلزمه من الأسواق. وكانت زنزانته عامرة بكل أنواع المعلبات، كما جاءوا له بملاءات بيضاء نظيفة وبطاطين خاصة من منزله، كما سمحوا له بجهاز راديو ليستمع إلى الأخبار، ودخل الشيوعيون معه في حوار ولكنه كان أشبه بحوار الطرشان، فهو لا يعرف الفرق بين الشيوعية والانكشارية، وهو رجل ضبط وربط. وخلافه مع الحكومة كان خلافاً حول حقه كضابط من الضباط الأحرار في اتخاذ القرار المناسب وعدم التقيد بالأوامر المركزية التي تأتيه من فوق.. ولم يمكث طويلاً في السجن، جاءه مدير المعتقل في العاشرة مساءً كما فعلوا مع رشدي صالح وأمره أن يستعد للخروج، ولكنه صرخ في الضابط صرخة عنترية ونهره بشدة، واتهم الحكومة أنها تدبر مؤامرة لقتله وأقسم أنه لن يغادر سجنه إلا في الصباح وفي سيارته ومع أشقائه وأهل بيته. وقلت يا سبحان الله.. لو طلبوا من

العبد لله مغادرة السجن في منتصف الليل لوضعت ذيلي في أسناني
وانطلقت بأقصى سرعة حافي القدمين وإلى غير مكان إلا إلى الشارع..
وبالفعل لم يخرج من سجنه إلا في الصباح وحاول الرجل توزيع ما
لديه من علب محفوظة وكميات شاي وبن على المعتقلين ولكن مدير
السجن رفض، فغادر سجنه بعد أن مر على جميع الزنازين وصافح
جميع المعتقلين وكانت لفظة طيبة من الضابط الذي رفض السجن
الكبير وآثر السجن الصغير فأجيب إلى طلبه!

الفصل الخامس

عمت الفرحة جميع المعتقلين في سجن القلعة عندما
سرت شائعة بأننا سننقل جميعا إلى معتقل الفيوم وسر
الفرحة أن سجن القلعة سجن كئيب وهو من مخلفات
العصور الوسطى، وليس فيه حوش للفسحة، ولكن
مجرد ممر للانتقال بين الزنازين لا تُشاهد فيه إلا حيطان
وزفت وأبواب خشبية مطعمة بالحديد.

معتقل الأحلام!

ويبدو أن هذا الواقع المؤلم المرير دفع البعض إلى التحليق بعيدا، فتصوروا أن معتقلا في الفيوم لا بد أن يكتسب شيئا من صفات الفيوم وشطح البعض بعيدا فزعم أن معتقل الفيوم على شاطئ بحيرة يسبح فيها البط وعامرة بكل أنواع الأسماك، ومسموح للمعتقلين بالصيد وبالسباحة أيضا. وصدق العبد لله الأكذوبة الكبيرة، فرحت أعد العدة لتكوين فريق كرة قدم أخوض به مباريات الهول ضد الفرق الأخرى، ولكي أجعل من الكورة سكيما لقتل الوقت. ولكن فرحتي لم تدم طويلا، فسرعان ما تبددت في المساء عندما ناقشنا الأمر داخل الزنزانة، ورحت أستعرض أمام زملاء الزنزانة اللجنة الموعودة في معتقل الفيوم، حيث يقوم المتعهد بتوريد المواد الأولية من لحم وخضار وفاكهة ونقوم نحن بطهو الطعام بأنفسنا، ودق لحم متبل وطواجن محوجة وفتة بالكوارع وملوخية بالأرانب وفول مدمس مهروس في زيت الزيتون. وسرح ألفريد فرج في اللجنة الموعودة ثم قال:

- لو كده.. الواحد يقعد ويكتب مسرحية، وعلق فتحي خليل

قائلا:

- ما اعتقدش فيه معتقل بالشكل ده. وقضى عمر رشدي على كل أمل في وجود معتقل من هذا النوع، وكانت شهادته فوق كل شهادة؛ لأنه زبون قديم لجميع السجون والمعتقلات. قال العجوز عمر رشدي:

- السجن اللي انتوا فيه ده، هو أحسن سجن هاتشوفوه في الحبسة كلها، وأي انتقال من سجن إلى آخر معناه انحدار في المستوى وفي المعاملة، وإذا ذهبت إلى معتقل الفيوم، فستبكي دما على الأيام التي قضيتها هنا..

ولزمت الصمت بعد تعليق عمر رشدي، وقضيت ليلة مضطربة، فقد انتابني حالة من القلق والإحباط. ولكن رأي عمر رشدي لم يقض تماما على الشائعة؛ لأنني استمعت إليها من أكثر من واحد في أنحاء السجن في صباح اليوم التالي، وأضاف البعض أن في معتقل الفيوم صالة للألعاب الرياضية وملعبا لكرة القدم ومستشفى صغيرا لعلاج المعتقلين..

وتمزقت أحلام العبد لله بين عمر رشدي وأحلام المعتقلين. وفجأة وبعد الظهر بقليل دخل السجن الرائد فوزي مدير المعتقل وبصحبه ضابط آخر بالملابس المدنية، وأمر المعتقلين جميعا بالاصطفاف في طابور، وألقى الضابط الزائر كلمة قصيرة، قال فيها: إن الدولة قررت أن تمنح كلا منكم فرصة لتوضيح موقفه السياسي تمهيدا لتصفية المعتقل، ولذلك سنسمح لكل منكم أو لمن يطلب ذلك بمقابلة أي مسئول في الدولة يكون على صلة به في الماضي. ومر الضابط بين الصفوف حاملا ورقة وقلما وراح يسأل كل معتقل عن

المسئول الذي يريد مقابله، البعض قال إنه يريد مقابلة عبد الناصر، والبعض ذكر اسم حسين الشافعي وأنور السادات وزكريا محيي الدين، وعندما جاء دور العبد لله طلبت مقابلة النائب الأول لرئيس الجمهورية العربية المتحدة.. أكرم الحوراني.. أما سر اختيار أكرم الحوراني بالذات فلأنني تعرفت به عندما أقمت في سوريا فترة من الزمان مندوبا لجريدة الجمهورية، وكنت لدواعي العمل قد أصبحت على صلة بكل زعماء سوريا، خصوصا أكرم الحوراني وصلاح البيطار وعبد الغني قنوت ومصطفى حمدون وأحمد حنيدي وعبد الحميد السراج وعفيف البرزي، والوحيد الذي لم أستطع هضمه أو الاقتراب منه هو المرحوم ميشيل عفلق، فقد كان أغلب الوقت نائما على روجه. إذا تكلم فكأنه يتكلم من تحت الماء. ولكن إعجابي بأكرم الحوراني كان بلا حدود، شدتني إليه واقعيته الشديدة وعناده واستعداداه للنضال في سبيل ما يؤمن به حتى آخر لحظة في العمر، ومن فرط إعجابي به أطلقت اسمه على اسم ابني الوحيد أكرم. وظلت الصلة بيني وبين أكرم الحوراني مستمرة حتى بعد أن جاء للقاهرة وأصبح النائب الأول لرئيس الجمهورية. وأذكر في أول لقاء بيني وبينه في شقته الصغيرة المطلة على نادي الجزيرة قال للعبد لله وهو يرعش حاجبيه من شدة الدهشة:

- ايش هذا الحال يا أخ محمود؟ الجماعة أصحابك ها دول ما فيهم غير جمال عبد الناصر، الباكون لا بيعرفوا سياسة ولا يفهموا في السياسة ولا يشتغلوا في السياسية، ها دول عسكر وبس..

وكان أكرم الحوراني يقصد أعضاء مجلس قيادة الثورة في مصر.

وفي آخر مقابلة تمت بيني وبينه قبل اعتقالي بأيام، كان يبدو شديد القلق وشديد الحزن أيضا. وأغلب الظن أنه كان يشعر بقرب انهيار التحالف بين البعث وعبد الناصر.

المهم أنني طلبت مقابلة أكرم الحوراني، وعندما جاء الدور على عمر رشدي طلب مقابلة العقيد حسن المصيلحي رئيس مكتب مكافحة الشيوعية بإدارة المباحث العامة. واستهزأ العبد لله بعمر رشدي والطلب الذي طلبه، فمن يكون حسن المصيلحي؟ وماذا يستطيع أن يفعله بالمقارنة بالكبار الذين طلب بقية المعتقلين لقاءهم؟ ولم تنقض أكثر من ٤٨ ساعة حتى جاء قائد المعتقل وطلب من عمر رشدي أن يستعد لمقابلة المسئول الذي طلب مقابلته، وارتدى عمر رشدي ملابسه وجلس ينتظر حتى جاءت سيارة في الساعة السابعة مساء، وذهبت به إلى إدارة المباحث العامة، ولم يعد من هناك إلا في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. وعندما دخل علينا الزنزانة استقبلناه بشوق كبير ورحنا نمطره بالأسئلة، ولكن عمر رشدي لم يشف غليلنا، قال إنه ذهب إلى إدارة المباحث والتقى بالعقيد حسن المصيلحي، وأكد له أنه ترك الحركة الشيوعية منذ فترة طويلة وأنه قطع صلته نهائيا بالشيوعيين، وأنه لا يعرف جدوى اعتقاله وهو لم يشارك في أي عمل سياسي منظم ضد الدولة. وقال أيضا: إن حسن المصيلحي وعده خيرا، ولم يضيف حرفا واحدا بعد ذلك.

وانتظرنا أن تستدعينا الشرطة لمقابلة المسئولين الكبار الذين طلبنا لقاءهم، ولكن الأيام راحت تمضي تباعا.. ولا حس ولا خبر، ثم جاء من استدعى عمر رشدي فحمل أمتعته وغادر الزنزانة والمعتقل

ومضى. ولم نعرف إلى أين مضى إلا بعد أسبوع من ذهابه، عرفنا أنهم أفرجوا عنه على الفور، وأنه يجلس كل مساء على قهوة إيزافيتش بميدان التحرير كما اعتاد من قبل. وبدأ الملل يتسلل إلى جميع المعتقلين، فالأيام خلف الأسوار متشابهة ومتكررة، وبدأت سلسلة من الخناقات الصغيرة بين المعتقلين على أشياء تافهة، ثم بدأ التناحر بين التنظيمات الشيوعية على تجنيد المعتقلين الذي ليس لهم في الطور ولا في الطحين. وكانت عملية مضحكة للغاية، لأن بعض الأعضاء الجدد كانوا يدخلون الحزب الشيوعي في المساء لينفصلوا عنه في الصباح، ولينضموا بعد الظهر لتنظيم «حدثو» أو تنظيم «ط/ش»، أو تنظيم «و/ش»، وللأسف الشديد كانت حركة الانتقالات تتم أحيانا طبقا لكمية السجائر التي يصرفها كل تنظيم لأعضائه المنتمين!

ولجأ بعض المتهمين الشيوعيين إلى أساليب تعلموها من المجرمين الذين تعرفوا بهم في مختلف سجون مصر، وكان أحدهم قد تم نقله إلى مستشفى قصر العيني بعد أن ارتفعت حرارته إلى ٤٢ درجة، ثم أعادوه في اليوم التالي إلى السجن بعد أن اكتشفوا أن الحرارة المرتفعة كانت نتيجة وجبة من الحلاوة الطحينية المخلوطة بالشطة!

وكان قد مضى علينا شهر بأكمله خلف أسوار سجن القلعة، وكان شهر رمضان قد ولى ومضى العيد أيضا، وازدادت ليالينا في السجن مللا وظلاما، وكنا خلال شهر رمضان نستمع إلى الحفلات الفنية والدينية التي تذيعها ميكروفونات تبث من حي القلعة، وذات أمسية من أمسيات رمضان المبارك، استمعت إلى صوت الشيخ مصطفى إسماعيل يلعلع عبر الميكروفونات، وبكيت في تلك الليلة

لأن الجدران الصماء والقضبان التي علاها الصداً تحول بيني وبين صوت الشيخ مصطفى إسماعيل الذي أعشقه. وكم من ليلة تعقبته فيها وسافرت خلفه من القاهرة إلى طنطا، وأحيانا إلى دسوق، كما تعقبته في داخل القاهرة من بولاق إلى سيدنا الحسين إلى السيدة نفيسة إلى جامع الأزهر حيث كان يقرأ السورة في صلاة الجمعة. ولم أكن وحدي الذي أتعبه، ولكنها كانت شلة كبيرة من بينها الفنان الكبير صلاح منصور، والقارئ المصري السوداني الشيخ مهدي الذي كان يوما ما من سماعة الشيخ علي محمود، ثم أصبح مجنوننا بصوت الشيخ مصطفى إسماعيل، ولم يترك حفلا للشيخ مصطفى إسماعيل لم يحضره.

و ذات مساء أكلنا علكة في حفل ديني كانت تقيمه إحدى الطرق الصوفية في مسجد ببولاق، أعتقد أنه مسجد الخادم، أو شيء من هذا القبيل. وكنا قد ذهبنا مبكرين لكي نضمن مكانا بجوار الدكة التي سيجلس عليها الشيخ مصطفى، ولكن بمرور الوقت صار المسجد يزدحم حتى ضاق بالناس عن آخره، ومضت ساعتان ولم يحضر الشيخ حتى خيل إلينا أنه اعتذر عن عدم إحياء الحفل السنوي الكبير، وفجأة هب رجل واقفا وسط المسجد وصرخ صرخة مدوية.. الله حي.. الله حي، وإذا بجميع من في المسجد يهب واقفا.. الله حي.. الله حي، وهم يتمايلون ذات اليمين وذات اليسار في سعادة تامة ونشوة بالغة..

لم يبق في المسجد من يفرش الأرض إلا شلتنا، وكان منظرنا غريبا ومريبا أيضا، فها نحن أولاء في قلب القعدة الصوفية ومع ذلك لزمنا

أما كننا فلم ننهض ولم نتمايل، وأدركنا أننا أكلنا مقلبا فضحكنا. واعتبر البعض ضحكنا مؤامرة ضد الليلة المباركة، فانهالوا علينا بالضرب. وحاولنا الفرار، فاصطدمنا بالحلقات المضروبة بعضها فوق بعض وعندما تمكنا من اختراق الحصار والخروج من المسجد، كنا قد أكلنا علكة ولا حرامي في مولد، وأصبحنا حفاة بلا أحذية بعد أن تركناها على باب المسجد ولم نجروا على التوقف لارتدائها من شدة الضرب وقسوته، ووقفنا على ناصية الشارع الذي يقع فيه المسجد وأعتقد أن اسمه شارع سليمان الخادم، وأخيرا جاء الشيخ مصطفى إسماعيل، واصطحبنا معه إلى المسجد، وأصبحنا محل حفاوة وتكريم الجميع. يالها من أيام جميلة مرت كالحلم، فلم ندرك قيمتها إلا بعد أن أصبحنا أسرى وراء الأسوار.

على العموم.. أصبحت الأيام ثقيلة في السجن وبطيئة وقاتلة، إفطار وغداء وعشاء، ومناقشات مكررة ومعادة، واجترار حكايات واستعادة صور. وتمنيت ذات ليلة وأنا سارح في ملكوت الله لو كنت فلاحا في بلدنا أسرح في الغيطان على كفي، وأخوض في مياه الترع على مزاجي، وأنام في الوقت الذي أريده، وأجالس من أختاره، وأعيش حياتي عيشة الوحوش الكاسرة والطيور المهاجرة. ملعون أبو المدينة وملعون أبو السياسة، وملعون أي نظام يأخذ الناس بالشبهات ويسجنهم بدون حكم من القاضي..

حظنا المهبب أننا ولدنا في العالم الثالث بعد المائة. لا يوجد في أوربا مثلا مواطن مسجون لأنه ضد سياسة تاتشر، أو لأن وجهة نظره تختلف مع وجهة نظر ميتران، لأن هناك كل مواطن له رأي، وكل

صاحب رأي محترم حتى لو كان رأيه يخالف رأي الحكومة. ولكن ما العمل والميلاد نفسه قسمة ونصيب؟

وإذا كانت فرنسا ليست مسقط الرأس.. فالحمد لله على كل حال لأننا ولدنا في القاهرة، ولا أحد يدري ماذا كان يمكن أن يحدث لو كانت زائير هي مسقط الرأس أو شيلي أو بيرو أو كمبوديا؟ على أية حال جاء الفرج ونفخ في النفير وأمرونا بالاستعداد للسفر إلى المعتقل الجديد، في الفيوم والغريب أننا انتهينا من الاستعداد في الساعة مساءً، ولكننا لم نبدأ التحرك إلى السجن الجديد إلا في الثانية صباحاً.. وكانت رحلة بائسة وليلة مظلمة.. مازلت أذكرها كأنها حدثت بالأمس!

الفصل السادس

كانت ليلة سوداء ولا قلب الكافر حشروا المعتقلين في عربات نقل أحكموا إخفاء من بداخلها بقماش من النوع المستعمل في صنع الخيام. وبجوار كل سائق كان يجلس ضابط برتبة رائد، وفي مؤخرة كل سيارة كان يجلس خمسة من الجنود المسلحين بمدافع رشاشة. كانت القافلة مكونة من خمس سيارات نقل، كل سيارة محشور فيها أكثر من خمسين معتقلا، بعضهم يقف على أطراف الأصابع.

عساكر الهجانة!

وكان يتقدم القافلة ثلاث سيارات نصف نقل محملة بجنود مسلحين بالمدافع الرشاشة تتقدمهم سيارة نجدة، يتقدمها اثنان من راكبي الموتوسيكلات، وفي مؤخرة القافلة كانت هناك سيارة نجدة وعدة سيارات نصف نقل تحمل جنودا مسلحين وموتوسيكل واحد. وكان العبد لله في حديدة واحدة مع الدكتور عبد الرازق حسن، وهو مستشار اقتصادي برئاسة الوزارة، كما أنه أحد العقول الاقتصادية المشهود لها على المستوى العربي والدولي أيضا.

وعندما مرت القافلة بميدان الجيزة، واستطعت أن أخطف نصف نظرة على الميدان وعلى قهوة عبد الله، انتاب العبد لله حزن شديد. في هذا الميدان مارس العبد لله شقاوته مع شلة الطفولة والصباء، وشهد الميدان خطواتي الأولى في عالم القراءة والكتابة، كتلميذ صغير في ندوة قهوة عبد الله، الذي كان من بين نجومها الدكتور عبد القادر القط والأستاذ أنور المعداوي والشيخ عبد الحميد قطامش والأستاذ زكريا الحجاوي والشاعر محمود حسن إسماعيل، ثم صرت عضوا بالندوة مع الجيل الثاني.. الكاتب المسرحي نعمان عاشور والإذاعي

الكبير يوسف الخطاب وفنان الكاريكاتير أحمد طوغان.. وفجأة قطع
حبل ذكرياتي صوت المعتقلين في السيارة يرتفع بنشيد:

الحزب الشيوعي المصري

نبنيه من عزيمتنا

ونحط الأساس خرسانة

من وحدة إرادتنا

كان النشيد ساذجا وكلماته ركيكة، مع أنه يوجد بين الشيوعيين
شعراء أفذاذ وكتاب على أعلى مستوى، ولكن الخيبة الكبرى التي
هي بحجم المسافة من هنا إلى شبرا، أن النشيد الذي فرض نفسه على
الحزب الشيوعي كان من وضع مهندس إنشاءات ومبان، وكان هذا
واضحاً في عبارة (خرسانة) وأعتقد أن النشيد كان يحتوي على كلمات
أخرى نفس الصنف.. رمل ودبش ومونة وخشب لطزانة.. إلى آخر
المواد التي تصلح لبناء البيوت وليس لبناء الأحزاب.

أما لماذا نشيد المهندس بالذات وليس نشيد شاعر مثل كمال
عبد الحلیم أو كمال عمار أو إبراهيم شعراوي، فلأن المهندس صاحب
النشيد كان يحتل موقعا قياديا في الحركة الشيوعية، وهى من الأسباب
التي أدت إلى ضمور الحركة الشيوعية وعدم تجاوزها الحلقة التي
ضربت حولها، فظلت دوائر (ديدانية) كما وصفها زعيم الحزب
الشيوعي السوري - يوما ما - خالد بكداش..

عندما انطلقت الأصوات بنشيد الخرسانة، انطلقت في الوقت
نفسه كعوب البنادق في رءوس ووجوه المعتقلين، ثم هدأت

الأصوات وتوقفت حركة الكعوب، وعادت القافلة تسير في صمت لا يقطعه إلا أصوات سارينات سيارات الشرطة لكي تفسح الطريق أمام الموكب الحزين..

عندما اقتربت القافلة من معتقل الفيوم، كان الليل قد انسحب في هدوء وأشرقت شمس الصباح على استحياء. وعندما أنزلونا من السيارات، تذكرت ما قاله المناضل العجوز عمر رشدي بأننا سنتدحرج إلى أسفل كلما انتقلنا من سجن إلى آخر. لأنهم لم ينزلونا من السيارة ولكنهم دفعوا بنا إلى الأرض، بينما أصوات الجند كانت تصرخ في حركة هستيرية وكأنها جحافل المغول قد هجمت على البلاد. وأجلسونا على الأرض بنفس الطريقة التي أجلسونا بها من قبل أمام معتقل القلعة..

كان معنا في القافلة عشرات من الأصدقاء.. لطفى الخولي وجمال كامل وفتحي خليل والفنان زهدي والفنان حسن فؤاد والدكتور لويس عوض وآخرون.

وألقيت نظرة على معتقل الفيوم، كان في الأصل معسكرا للجيش البريطاني أثناء الحرب العالمية الأخيرة، ويضم ثمانية عنابر مصنوعة من الخشب، في كل عنبر باب واحد في المنتصف تماما، وعلى كل جانب نافذتان، كل نافذة بعرض مترين وارتفاع متر، تسدها ٦ أسياخ متينة من الحديد تحول بين المعتقلين والهروب وتسمح لأفراد الحراسة بمتابعة كل ما يجري داخل العنبر. ولكن لدواعي الإهمال والتسيب والتقصيف، ضرب السوس في خشب العنابر، وجعلت الوساخة من العنبر شيئا أشبه بجدران حمام بلدي من النوع الذي كان يستخدم

في انضاج الفول المدمس. وكان يقف على الباب ضابط شرطة برتبة صاغ، ولكن منظره يوحى بأنه كان ضابطا في جيش علي بك الكبير وبنفس الرتبة، فقد كانت هيئته تدل على أنه يقترب من سن الستين..

كان هذا الرجل هو مدير المعتقل، وهو ضابط من تحت السلاح واسمه منير بك - هو الذي خلع على نفسه هذا اللقب - وراح يلقي على مسامعنا بعض المواعظ التي تحفظنا من كل شر، وأكد لنا في وضوح أنه من النوع الذي (لا يرحم أمه) وأنهم جاءوا به مديرا للمعتقل لأنه صاحب دوسيه حافل بكل أنواع (الجرائم والمضبوطات) وأعتقد أنه كان يقصد الانضباط.

وبعد استماعنا إلى المواعظ من الباشا المدير، كان من نصيبي الإقامة في عنبر ٤ مع زميلي الدكتور عبد الرزاق حسن. ووجدنا عند باب العنبر هيئة استقبال مكونة من صول تجاوز سن المعاش بكثير وأربعة عساكر شرطة درجة أولى، يمسكون في أيديهم مدافع رشاشة وأصابعهم على الزناد، ومعهم عسكري من الدرجة الثانية برتبة عريف، أعتقد أنه كان جاموسة في الأصل، طويل عريض، ملامح وجهه تثبت أنه معتاد إجرام، وكان اسمه على ما أذكر أحمد غطاس أو سيد غطاس، المهم أنه غطاس والسلام. وعلى رأس هيئة الاستقبال ضابط شاب يبدو عليه أنه ابن ناس، وكان طويلا ونحيفا ووسيعا، وأعتقد أنه يدعى حلمي العيسوي أو نظمي العيسوي.. المهم أنه عيسوي والسلام..

عندما وقفنا - الدكتور عبد الرزاق حسن وأنا - أمام هيئة الاستقبال سأل حضرة الصول الدكتور عبد الرزاق حسن:

- اسمك إيه؟

ونطق الدكتور عبد الرزاق حسن باسمه، ولكن يبدو أن الطريقة التي نطق بها اسمه لم تعجب سيادة العريف غطاس، فقال بطريقة مستفزة:

- انطق اسمك زي الناس يا وله.

- واستشاط الدكتور عبد الرزاق غضبا، وقال للسيد العريف:

- أنا مش وله.. أنا الدكتور عبد الرزاق حسن، وفي الحال لهف العريف غطاس الدكتور عبد الرزاق حسن قلمين من النوع السمين، وقال له وهو يستعد للدخول في معركة ولا معارك العلمين:

- مافيش هنا حاجة اسمها دكتور.. دكتور دي في بيتكم.. هنا أنت وله وبس وستين وله كمان.

وقال عبد الرزاق حسن:

- أنا أحتج

ويبدو أن الدكتور عبد الرزاق حسن ارتكب جريمة الخيانة العظمى في حق سيادة العريف، فانهاى عليه الضابط عيسوي ضربا بالأقلام والشلاليت، وهو الذي كان يبدو عليه أنه وديع وابن ناس طيبين.

وبالطبع ساعد العريف غطاس قائده وحسم المعركة، وبشلول واحد من نوع أرض ظهر، طرح الدكتور عبد الرزاق حسن أرضا. ولأن العبد لله مربوط معه في حديدة واحدة، فقد سقطت معه أنا الآخر ونابني من الحب جانب.. قلمين واحد في القفا وواحدة على

الوجه. ثم دفعوا بنا داخل العنبر. إذن هذا هو معتقل الفيوم، وأول القصيدة كفر، وآخرها لا يعلم به إلا الله.

جلسنا في العنبر تحيط بنا الكراهية من كل جانب، والمأمور شبه أُمي لا يعرف الألف من عمود النور، سأل مرة الفنان زهدي:
- بتشتغل إيه:

وعندما قال الفنان زهدي إنه رسام كاريكاتير، عقب السيد المأمور قائلًا:

- شاعر يعني!!

والضابط العيسوي لا هم له إلا اصطيات أخطاء المعتقلين وتوقيع العقاب عليهم، والعريف غطاس من يدفع له ينج من العقاب، ومن يرفض الدفع أو يعجز عن الدفع، فيانهار أمه أزرق، وياليلة أبوه أسود من أسفلت الطريق.

ذكرني معتقل الفيوم بمعتقلات النازي التي ظهرت في أفلام هوليوود. أنوار كاشفة تمسح المعتقل طوال الليل وكلاب بوليسية تنبح بحثًا عن فريسة، وأصوات كئيبية تنادي على الأسوار.. واحد تمام، وتصل إلى عشرين تمام. والعريف غطاس ينظر كل لحظة من الشباك ليشرّف بنفسه على انضباط المعتقلين، وحملات تفتيشية تفتح الباب فجأة وفي أي وقت من أوقات الليل والنهار، ثم تبدأ بحثها بين الملابس وتحت السراير، وبين الفتحات التي نتجت عن تشققات في خشب الجدار. والمعسكر في حالة استنفار دائم، ومنير بك لا يكف عن التجوال في أنحاء المعسكر.. ومتعهد الأكل حرامي يقدم

طعاما لا يكفي لإشباع قطعة، والمعتقلون في توتر دائم وفي خوف من المجهول..

رأيت من خلال النافذة ذات صباح ألفريد فرج وهو في طريقه إلى دورة المياه فألقيت عليه السلام، وكان جزائي عن هذه الجريمة الرهيبة قلمين مع تهديدي بالجلد إذا عدت إلى ارتكاب مثل هذه الجريمة في قادم الأيام.

واستعانوا بعساكر من الهجانة للمساعدة في إقرار النظام داخل أسوار المعتقل.. وعندما رأينا عساكر الهجانة وهم يدخلون من باب المعتقل أدركنا أن الموت على الأبواب.. ولكن.. يا ميت فل على سلوك الهجانة النبيل وعلى شموخهم وعلى اعتزازهم بأنفسهم وعلى نظافة يدهم وحسن معاملتهم للمعتقلين.

وكانت الذروة عندما طلب قائد المعتقل منير بك من أحد الهجانة أن يضرب معتقلا بالكرباج، ولكن العسكري البسيط رفض تنفيذ الأمر. وعندما أصر البيه المدير على تنفيذ الأمر، ألقى عسكري الهجانة بالكرباج في وجهه قائلا له:

- أنا مش جاي هنا علشان أضرب.. أن كنت عاوز تضرب..
اتفضل خذ الكرباج واضرب، وابتلع منير بيه الإهانة أمام المعتقلين، وقال لعسكري الهجانة وهو يحاول أن يخفى كسوفه.

- أنا هاوريك.. أنا هاعملك محكمة عسكرية.

ونظر إليه العسكري في استخفاف وقال له في احتقار شديد:

- أنت ولا حاجة.

وفي المغرب، غادر العساكر الهجانة المعتقل على ظهور الجمال وفارقونا إلى الأبد، بينما كانوا يلوحون بأيديهم للمعتقلين ويرسلون لهم قبلات في الهواء. وباختفاء الهجانة اختفت نسمة طرية هبت على المعتقل فجأة وتلاشت فجأة، لم يعد في المعتقل إلا نباح العساكر وكف غطاس وصوت العيسوى الكئيب، وتسלט البيه المأمور الذي يتصور نفسه قائدا لجيش هتلر.

* * *

اختلفت المنظمات الشيوعية في العنبر الذي كنت أقيم فيه، وفوجئت بعد ثلاثة أيام من بدء الخلاف بثلاثة من نزلاء العنبر يطلبون من العبد لله أن أقدم لهم خدمة، ولخصوا الموضوع في أن لجنة الحياة العامة والتي تتولى توزيع المأكولات والسجاير، ولأنها تثق في العبد لله، قررت أن يكون العبد لله الذي هو حضرتنا مسئولا عن تخزين السلع وتوزيعها. وقبلت العرض على الفور، وقمت بتخزين السلع تحت سريري وتوليت توزيعها كل صباح على مندوبي الأحزاب الشيوعية..

كان سريري في المعتقل يقع بين سرير الدكتور عبد الرازق حسن وسرير معتقل يدعى ضبع شنودة، وهو أصلا من الإسكندرية ويقيم بها، وكان يقوم بتوزيع الخبز على المنازل في عربة يد صغيرة، ولكنه كان أحيانا يقوم بدس المنشورات الشيوعية في أرغفة الخبز. وانكشف أمره بالطبع، فذهب إلى المعتقل في عهد النقراشي، ثم دخل المعتقل في بداية الثورة، وكانت هذه المرة هي الرابعة في سلسلة غزواته للسجون والمعتقلات. المهم أن ضبع شنودة اقترب منى ذات مساء وهمس

في أذني يطلب سجائر لزوم عدل الدماغ، وعندما أخرجت علبة سجائري ليلتقط منها سيجارة، قال ضبع:

- أنت يظهر مافهمتش قصدي.. أنا عاوز علبتين من الكوميونة وعندما ارتسم على وجهي تعبير عن عدم الفهم أشار بإصبعه تحت سريري وقال:

- أنت مش ماسك الكوميونة دلوقت؟

وقلت لضبع:

- هي دي اسمها كوميونة؟

وعندما هز ضبع رأسه بالإيجاب، قلت له:

- بس أنت عارف أن الحاجات دي مش بتاعتي.. دي بتاعة الزملاء.

- أيوه عارف.. بس انت مسئول الكوميونة، ومن حقت تتصرف، وعلى كل حال أنا هاردلك العلبتين.

وأعطيت العلبتين لضبع شنودة، فراح يشعل السيجارة وراء الأخرى. وأحسست أنه يعاني بشدة، وربما سرح بفكره خارج الأسوار، وإلى شوارع الإسكندرية وحواريها، إلى منزل الأسرة التي لا بد أن ضبع افتقده كثيرا.. فقررت أن أقطع تفكيره وأشغله بشيء آخر، فسألته:

- إيه رأيك يا ضبع، وخصوصا أنك مناضل قديم وخبير بكل أنواع السجون.

وكاننا أنعشت كلمات الشاء نفس ضبع، فخرج من سرحته
وأصغى للعبد لله بكل اهتمام، واعتدل في جلسته عندما ألقيت عليه
السؤال التالي:

- تفكر إيه بقه اللي ها يحصل معانا يا ضبع في الفترة الجاية؟ كنت
أسأله طبعاً عن مصيرنا كمعتقلين، وهل هناك أمل في إفراج قريب أم
أن الحبسة ستطول وستقضي علينا في نهاية الأمر. ولكن ضبع شنودة
الذي اعتدل في جلسته وتأهب للدخول في حوار طويل. راح يتكلم
وكانه يقرأ من كتاب مفتوح:

- شوف لما أقولك.. العيش خاص.. والجينة لازم حلوم
و ١٥٠ جراما، واللحمة يوم طشة في السمنة ويوم مسلوقة.. ولازم
حلو وفاكهة.. ولازم الكفالة ٦ جنيهاً للعامل و ١٠ جنيهاً
للموظف.

تصورت أنه سيحدثني عن الإفراج، فكان حديثه عن طيب الإقامة
في المعتقل، ولكن الذي أرقني في حديثه هو الكفالات، فسألته:

- إحنا كمان هاندفع كفالات للحكومة؟

- لا دي الحكومة اللي ها تدفعلنا.

وراح ضبع شنودة يحكي للعبد لله طول الليل عن حياة المعتقلات
في العهد القديم.

كان بين المعتقلين أثرياء يهود، وكانوا يتولون الإنفاق على جميع
المعتقلين، وكانت السلطة تعاملهم باحترام. وفي المعتقل الذي فتح
أبوابه بعد حرب فلسطين، تذوق ضبع شنودة أصنافاً من الطعام لم

يسمع عنها في حياته ولم يرها في أي مكان. كان الإفطار يصل إلى المعتقل مباشرة من جروبي، وكان الغداء يأتي من الشيمي وأحيانا من الدهان، وكانت السجاير كنت وكرافن وملك مصر. وعندما أفرجوا عن ضبع شنودة بكى وهو في القطار المتجه إلى الإسكندرية كما لم يبك من قبل. لقد خرج ضبع شنودة من جنة المعتقل إلى زحام الناس ومتاعب المهنة ومشاكل الأسرة.

وقطع الحديث بيننا زميل همس في أذني بأن الزملاء في جميع العنابر قرروا الإضراب عن الطعام غدا، وأن الإضراب سيبدأ من العنبر رقم ١.

الفصل السابع

** كان صباحا حارا شديدا الرطوبة عندما بدأ الإضراب عن الطعام في معتقل الفيوم وقد جاء الأخ غطاس وأغلق جميع النوافذ حتى لا نرى ما يدور في الخارج، وكان عنبر واحد هو الذي يقف في وش المدفع ولطفي الخولي بين المعتقلين في العنبر إياه. وكان لطفي قد أصبح شخصية مرموقة في المعتقل والمأمور يعمل له ألف حساب.

العنبر رقم «٤»!

والسبب أنه وسط هذا الجو الرهيب سمحت السلطات بزيارة لطفي الخولي، وجاء بعض أقاربه واجتمعوا به في حجرة المأمور، وبالرغم من جهل المأمور الذي صعد من تحت السلاح، إلا أنه أدرك بذكائه الفطري أن لطفي شخصية ذات وزن، ومن الأفضل اتقاء شره وعدم الاحتكاك به. وجاء المتعهد بالطعام ولكن مندوب عنبر واحد أعلن رفض الاستلام، وأبلغ المأمور بأن العنبر مضرب عن الطعام. وتصور المأمور أنه يتعامل مع مجموعة من مهربي المخدرات فوقف يهدد ويتوعد وقال فيما قال.. إنه مفوض من فوق باتخاذ كل الإجراءات إلى حد ضرب النار في المليون. ثم أمر العنبر بالخروج فخرج جميع المعتقلين على الفور. وكأنهم كانوا يستعدون منذ فترة لهذا الموقف الرهيب. وراح المأمور يكرر أسطوانته المشروخة، وأنا عندي أوامر بالقتل، واللي مش هياكل سأدفنه في المعتقل.. إلى آخر هذا الكلام الهرش مخ. ثم قال بعد أن فقد صوته من شدة الحرق.. اللي مصر على الإضراب يأخذ خطوة قدام. وتقدم اثنا عشر معتقلا خطوة إلى الأمام وفوجئ المأمور بأن لطفي الخولي من بينهم ونظر

المأمور إلى لطفي وقال.. بلاش أنت يا أستاذ لطفي. ورد عليه لطفي الخولي.. وبلاش أنا ليه؟ أنا أولهم! وزفر المأمور زفرة حارة ثم شوح بيده، وقال.. خلاص اتفضلوا خشوا جوه العنبر، ثم راح يحجل في اتجاه مكتبه، واضطر إلى التنازل فوافق على إجراء حوار مع بعض المعتقلين لعرض شكواهم على البية المأمور.

وكان هذا الحادث الصغير سببا في انهيار نظام المعتقل، صار الأمر فوضى.. وتراخت الأيدي التي كانت ممسكة بقوة على زمام الأمور، لم يبق إلا العيسوي في حالة اشمئناط دائمة، وغطاس في حالة البحث عن رشوة من أى مكان.

وبعد عدة أيام كبس المعتقل عدد من رجال المباحث العامة، وراحوا يفتشون في العنابر ويوجهون أسئلة إلى بعض المعتقلين وعندما دخلوا عنبر ٣ حيث كان العبد لله يقيم، راحوا ينظرون هنا وهناك، وعندما اقتربوا من سريري ألقوا نظرة تحته.. ثم سألني الضابط.. إيه كل الحاجات دي؟ وقلت للضابط ببراءة شديدة.. دي الكوميونة.. وقال الضابط في براءة مصطنعة.. إيه الكوميونة دي؟ وراح العبد لله يشرح للضابط مهمة الكوميونة وكيف أننا نوزع السجائر والفاكهة والأطعمة على الغلبة المعتقلين، وبعد أن استمع الضابط وانشكح سألني عن اسمي، وقام بتدوينه على ورق قبل أن ينصرف، ومرت أيام قليلة ثم حضر إلى السجن مفتش المباحث بالفيوم وعدد من مساعديه واتجهوا إلى مكتب المأمور وغابوا فيه قليلا ثم عادوا من حيث أتوا، ولكن المأمور اتجه نحو العنابر وفي يده كشف طويل ثم حدثت حركة وجلبة وضوضاء في أنحاء العنابر

التي دخلها المأمور، ثم جاء عنبر ٣ وراح ينادي على أسماء وكان اسم العبد لله من بينها..

اجتاحني نوبة شديدة من المشاعر والانفعالات هي خليط من الفرح والخوف والقلق، أخيرا بدأت المياه تتحرك في البحيرة الراكدة وهذا الذي يحدث الآن قد يكون خيرا وقد يكون شرا. ولكنه شيء مختلف على كل حال، أخيرا فهمنا أن المقصود من هذه الحركة هو إجراء حركة تنقلات بين المعتقلين لأسباب أمنية.. هكذا قال حضرة المأمور العليم ببواطن الأمور.. ووجدت نفسي أخيرا في عنبر ٤ مع وجوه جديدة ونزلاء آخرين، كان من بينهم الماركسي القديم أسعد حليم والمناضل القديم عزب شطا والزميل عبد الستار الطويلة، ونفس المعتقل السابق ذكره الذي بكى ذات صباح ونحن جلوس في صفوف منتظمة خارج سجن القلعة، والذي رأيته بعد ثلاثة أيام في فناء السجن يرتدى فانلة كورة شبيهة بفانلة فريق الترسانة ومعه براد شاي كبير وعدة أكواب في اليد الأخرى وينادي على بضاعته.. مين يشرب شاي يا زملا؟ المعتقل أحمد شوقي عبد الهادي، الذي سيلازمني كل مراحل فترة الاعتقال، والذي سيكون له شأن كبير في تنظيم زمش عند تأسيسه في سجن الواحات الخارجة.

ورحت أستفسر من معتادي النضال والمترددين على المعتقلات عن سر هذا الإجراء الذي ضمنا جميعا في عنبر واحد. وجاءت الإجابات مختلفة ومتناقضة، البعض قرر أن هذا الإجراء هو تمهيد لبدء عملية الإفراج وتصفية المعتقل.. وأكبر دليل على ذلك هو وجود العبد لله وسط هذا الحشد من المعتقلين، فقد كان العبد لله في رأي

هؤلاء بريئا من تهمة الشيوعية. وأخيرا جاء دور أسعد حليم ليفسر للعبد لله هذه الظاهرة، فقال في هدوء شديد وفي ثقة العالم الخبير: إن جميع هذا العدد من المعتقلين هو نذير سوء بلا شك.. وإننا جميعا في الطريق إلى المحاكمة أو إلى التصفية الجسدية، وعندما سألته عن سر تشاؤمه إلى هذا الحد، أجاب بأن كل الموجودين تم اختيارهم بدقة، فأغلبهم سبق اعتقاله أكثر من ست مرات، وبعضهم قضى نصف حياته في السجون وبعضهم صدر ضده أحكام من المحاكم، وضرب أسعد حليم مثلا بعبد الستار الطويلة الذي تردد على المعتقل أكثر من سبع مرات وعذب شطا الذي يخرج من المعتقل إلى المعتقل، كما أنه شقيق محمد شطا أحد رموز الحركة الماركسية في مصر، ثم راح يعدد ويشرح ويفيض في الشرح، وأخيرا سألته: ولماذا أنا وسط هؤلاء؟

أجاب.. هذا هو الشيء الذي يحتاج إلى تفسير.

صدقت نبوءة أسعد حليم ودخلت المعتقل في صباح اليوم التالي قافلة من السيارات الضخمة، وسرية حراسة مسلحة بالمدافع الرشاشة يرأسها ضابط برتبة عقيد ومعه اثنان برتبة المقدم وثلاثة برتبة رائد ونصف دسته من النقباء والملازمين ثم عدد لا حصر له من الصولات والشاويشية. وفتحوا باب عنبرنا وراحوا يقيدون المعتقلين بنوع من القيود الحديدية يطلقون عليه اسم الحجلة وهذه الحجلة تقيد القدمين واليدين ويتصل القيد الذي في اليد بالقيد الذي في القدم بسلسلة طويلة تحدث صوتا أثناء عملية السير وتقيد الحركة فلا تسمح إلا بخطوة قصيرة وركبنا السيارات وغادرنا معتقل الفيوم في الصباح الباكر، وراحت السيارات تتهاذى بنا عبر

طريق زراعي موحش وغير ممهد في طريقها إلى بني سويف، وأفتى بعض الخبراء بأننا في الطريق إلى سجن بني سويف تمهيدا لتقديمنا إلى المحاكمة وقرر البعض أن سجن بني سويف هو أسوأ سجون مصر على الإطلاق، إن لم يكن أسوأ سجون الدنيا كلها، ولكن القافلة اتجهت إلى محطة بني سويف وتخلصت من حمولتها هناك وأجلسونا على الأرض وأعادوا فرزنا من جديد، ولما اطمأنوا إلى أننا (تمام) ولم ينقص منا أحد تركونا جالسين على الأرض، بينما أحاط بنا العساكر والمدافع مصوبة نحونا، بينما احتل عشرات من الجنود أسطح المحطة، وافترش آخرون الرصيف المقابل وخيل للعبد لله أن الحلفاء ألقوا القبض على هتلر وزعماء النازي وقادة الجيش الألماني وأفراد جهاز الجستابو الشهير..

كانت شمس مايو تتوسط الأفق والحرارة شديدة والعطش يستبد بنا عندما مر من أمامي مساعد حكمدار بني سويف واسمه على ما أذكر صدقي الغنام أو صادق الغنام، وكنت قد عرفت في العام ١٩٥١ إبان معركة السويس حيث كان وقتئذ برتبة نقيب وكانت له مواقف وطنية إلى جانب الفدائيين مع اليوزباشي نجم الدين واليوزباشي محمد عسل واللواء مصطفى المتولي، ونظر الغنام للعبد لله طويلا، وأعتقد أنه وقف أمام سؤال هل الجالس وسط المعتقلين هو العبد لله أم شخص يشبهه؟ وعندما التقت نظراتنا أسرع بعيدا عن المكان ثم اتجه نحو قائد الحراسة وألقى نظرة على كشف المعتقلين الذي يحمله، وعندما تأكد أن الشخص الذي رآه هو العبد لله ولا أحد غيره بقي بعيدا ولم يقترب مرة أخرى من المكان..

وبعد ساعات من الحر والعطش والجوع والإنهاك الشديد وصل
القطار المتجه إلى الصعيد، واكتشفنا أننا سنسافر في عربات خصصت
لنقل البهائم، وبدأت عملية حشرنا داخل العربات بينما كعوب البنادق
كانت تساعدنا على الإسراع في عملية الركوب وتلقى العبد لله شلوتا
في ظهره وأنا أهم بدخول العربة وعندما ألقيت نظرة خلفي اكتشفت
أن صاحب الشلوت هو العقيد الغنام نفسه، ولا أعرف السبب الذي
دفع الغنام إلى ضرب العبد لله بالذات ربما انتابه الخوف من أن أكون
قد فضفضت إلى غيري من المعتقلين بعلاقتي السابقة أيام معركة
القناة، ربما خشي أن يكون أحد من المسؤولين على علم بهذه العلاقة
فأراد أن ينفىها بشدة وأن ينفىها عمليا، فأهداني هذا الشلوت وأنا
على باب عربة البهائم التي ستذهب إلى سجنني الجديد، وراح القطار
يزحف مغادرا بني سويف في طريقه إلى «أبو طشت»، ولكن وقع
حادث رهيب أثناء توقف القطار في محطة صغيرة بعد سوهاج، وكنا
مربوطين كل عشرين معتقلاً في حجلة واحدة. إذ أراد بعض المعتقلين
من فريق حجلتنا أن يستنشق بعض الهواء النقي، فوقف على السلم
أثناء توقف القطار، ولكن القطار اندفع فجأة إلى الأمام فسقط اثنان
من المعتقلين على الأرض ثم سقط اثنان آخران أذكر من بينهم شعبان
الحدق وعبد الستار طويلة واندفع القطار بهمة في طريقه إلى الأمام،
بينما راح المعتقلون يسقطون أسفل القطار واحدا وراء الآخر، وصرخ
عبد الستار الطويلة والقطار يجر جره على الأرض.. مؤامرة.. مؤامرة
يا زملا.. المخابرات المركزية.. المخابرات المركزية يا زملا..

كان الصف الذي أمامي قد سقط على الأرض بينما انحشرت أنا
وزميلي شوقي عبد الهادي عند الباب، نحاول دون جدوى أن نتشبث

بمكاننا عند الباب ولكن الحمل ثقيل والذين سبقونا إلى الأرض يجذبوننا بقسوة، وفي هذا الوقت انطلقت عدة رصاصات في الهواء تبعتها زخات من طلقات المدافع الرشاشة، ويبدو أن السائق انتبه إلى أن هناك شيئاً يجري في القطار فتوقف عن السير، وكانت وقفته المفاجئة سبباً في وقوعنا على الأرض ولكننا لم نصب إلا بخدوش بسيطة، بينما أصيب شعبان الحديق وعبد الستار الطويلة وآخرون برضوض وجروح خطيرة، وتوقف القطار نصف الساعة لإعادة حصرنا من جديد ولما تأكدوا من أن عدد الجثث الحية مضبوط عاود القطار سيره في هذا الليل إلى محطة الوصول..

وصلنا إلى «أبو طشت» في الصباح الباكر وتوقف القطار في محطة جانبية وبدأنا في النزول ثم الجلوس القرفصاء على رصيف المحطة انتظاراً للقطار المتجه إلى الواحات، وجاء القطار في الحادية عشرة صباحاً وبدأنا رحلة جديدة إلى واحة المحاريق وسط الصحراء، وكان قطاراً أشبه بلعبة من لعب الأطفال ومن النوع الذي يظهر في أفلام والت ديزني، ولكنه كان أفضل من قطار الصعيد فيه مقاعد ونوافذ، وامتدت الصحراء أمام أعيننا بلا نهاية، تضاريس أشبه بتضاريس القمر التي رأيناها على الشاشة عند هبوط أول رائد فضاء على سطح القمر، فجوات وتلال وأخاديد ورمال محترقة ورمال ناعمة وكهوف وجحور ومناظر لم تقع عليها أعيننا من قبل، وسرحت بعيداً إلى سجن الواحات، لا بد أنه سجن رهيب أقيم خصيصاً لتأديب عتاة المجرمين ولا بد أننا سنلاقي الشدائد والأهوال خلف أسواره، وإذا كان معتقل الفيوم يشبه معتقلات النازي فماذا يكون شكل معتقل الواحات وهو على بعد مئات الأميال من وادي النيل؟

واستسلمت لنوم عميق ولم أستيقظ إلا والزملاء يهزونني بعنف
لأكتشف أننا في محطة المحاريق، كانت المحطة أشبه بمحطات الريف
مجرد رصيف وكشك ثم لا شيء بعد ذلك، وصحراء بلا نهاية وفرقة
من عساكر بلوكات النظام يحملون البنادق، ونزلنا وسط هذه المظاهرة
الأمنية الشديدة واتخذنا طريقنا على الأقدام إلى سجن الواحات.

كان السجن عبارة عن عنبرين كل عنبر من دور واحد، بناؤه يشبه
بناء المساكن الشعبية ومبنى ثالث أغلب الظن أنه مبنى الإدارة ولم يكن
للسجن سور والعنابر منها للصحراء بلا حواجز، وعدنا للجلوس
على الأرض أمام عنبر رقم ١، ومن خلال قضبان باب العنبر جاءني
صوت ينادى باسمي وكان صاحب الصوت يرتدي بدلة سجن
زرقاء ويضع على عينيه نظارة طبية ودققت النظر فيه، كان صاحب
الصوت يشبه صديقي الكاتب الكبير صلاح حافظ وكان قد غاب
في السجن منذ عام ١٩٥٤، ولم أرد على صاحب الصوت فقد خفت
من تكرار ما حدث في معتقل الفيوم، ولكن الصوت عاد ينادي من
جديد، ثم نادى على أحد عساكر السجن وأمره بالبحث عن محمود
السعدني وأعطاه سيجارة مشتعلة لكي يعطيها لي، وراح العسكري
يفتش عن محمود السعدني وسط هذا القطيع البائس فلما اقترب مني
سألني عن اسمي أجبته فناولني السيجارة ولكنني اعتذرت ولكن
العسكري أصر، وناولني السيجارة فأخذتها وأنا غير مصدق لما يجري
أمامي، وهل المعاملة هنا أفضل من المعاملة في معتقل الفيوم؟! وهل
العساكر هنا أرق وأرحم؟ غريب.. هل هذا هو سجن الواحات؟

ولم تمض دقائق حتى صرنا داخل العنبر وتلقاني صلاح حافظ

بالأحضان، ووجدت نفسي داخل حجرة لا تشبه حجرات السجون ولكنها أشبه بحجرة عادية في بيت..

ووجدت نفسي مع خمسة عشر معتقلا بينهم أديب ديمتري ولطفي الله سليمان صاحب المكتبة الشهيرة في شارع عدلي وأسعد حليم وأحمد شوقي عبد الهادي، ثم جاء الغداء ملوخية لم أذوق مثلها منذ ماتت المرحومة ستي هدية، وعيش لم أر مثله منذ أغلق مخبز الرمالي الشهير ولحم ليس له نظير في محل الشيمي. وانتعش العبد لله وهتفت في أعماقي يا سبحان الله.. أين أنت يا سجن الواحات الخارجية؟

ولماذا تعطل مجيئنا إليك منذ يوم ٢٧ مارس وهو يوم القبض علينا؟

وهكذا قدر للعبد لله أن يكون واحدا من فئة الشواشي العليا للمناضلين الكبار، فليس بعد سجن الواحات مرتبة يرتفع إليها المناضل الكبير، وهكذا أيضا قدر للعبد لله أن يتذوق طعم النوم العميق لأول مرة منذ خطفني الضابط المذهب طوسون من بيتي في الجيزة إلى مكتب المباحث العامة في الدقي مؤكدا للعبد لله أن العملية لن تستغرق أكثر من خمس دقائق.. لا تزيد!

الفصل الثامن

أخيراً.. وصلنا إلى سجن الواحات، وأصبحنا مكافحين من الفئة الممتازة. وهاهم عشرات من أصدقاء الصبا والشباب نلتقي بهم بعد غيبة طويلة في صحراء المحاريق.. علي الشوباشي، الذي اكتشفت من خلال تنظيمه أن الشيوعيين في مصر ليسوا في تنظيم واحد، ولكن هناك تنظيمات شتى.. متصارعة ومختلفة.. من خلال تنظيم (وش)، اكتشفت أن الحركة الشيوعية تضم عددا لا بأس به من اليهود.

فتش عن اليهود!

عرفت من بينهم عادل رفعت، الذي كان في نفس الوقت زوجا للفنانة فاتن الشوباشي، وأحمد صادق سعد، الذي كان نجما من نجوم الحزب الشيوعي، والمحامي شحاتة هارون، وآخر اسمه ريمون دويك وقد اشتغل بعد المعتقل مديرا للعلاقات العامة لاتحاد الكرة، وكان لهؤلاء اليهود نفوذ كبير في التنظيمات الشيوعية ولكن في الخفاء، ولم يكن أحد منهم - رسميا - في قمة التنظيمات الشيوعية. وأقول رسميا، لأنهم بالفعل كان لهم نفوذ واسع ومؤثر في الحركة الشيوعية المصرية، فهم جميعا من الحرس القديم، الذين عاصروا الحركة الشيوعية المصرية في بدايتها أيام الحرب العالمية الثانية، وكانت التعليمات خلال فترة اعتقالهم بالواحات هو عدم الإعلان عن دورهم الحقيقي في الحزب، والتأكيد على أنهم مجرد أعضاء في الحزب الشيوعي المصري. وربما كان هذا الموقف هو نتيجة عقدة من اتهام الآخرين لهم بأنهم يعملون مع اليهود، وينفذون مخططا يهوديا لصالح إسرائيل..

ولقد وقع من جراء هذا الموقف حادث مضحك للغاية. فقد

ذهب ريمون دويك إلى المحكمة ووقف في القفص وعندما سألته رئيس المحكمة.. هل أنت عضو في الحزب الشيوعي المصري؟ أجابه ريمون دويك.. أتشرف بأنني عضو قيادي بالحزب الشيوعي المصري. ونطق القاضي بالحكم.. السجن مع الأشغال الشاقة لمدة ١٠ سنوات، ولو كان ريمون دويك أجاب بأنه عضو في الحزب الشيوعي المصري فقط من غير قيادي، لكان الحكم ٥ سنوات فقط!

المهم أن ريمون دويك عاد إلى السجن وهو يحمل على كتفه حكما بالسجن مع الأشغال الشاقة مدة عشر سنوات. وفي مثل هذه الحالات يستقبل السجن العائد من المحكمة إلى سجنه برفقة، ولكن الذي حدث أن ريمون دويك عندما عاد إلى سجنه لم يجد ترحيبا من أحد، ولكنه وجد محكمة حزبية في انتظاره، وبعد محاكمة عاجلة، صدر الحكم ضده بالفصل من الحزب، ليه؟ لأنه خالف التعليمات الصريحة، وقرر أمام محكمة أمن الدولة أنه عضو قيادي، وهو أمر مخالف للحقيقة ويلقي على التنظيمات الشيوعية ظلا من الشك.

الأمر المهم الذي استرعى انتباه العبد لله أن أغلب اليهود الشيوعيين الذين كانوا معنا في سجن الواحات، أشهروا إسلامهم واكتسبوا أسماء جديدة، وكان أكثرهم غرابة أحمد صادق سعد وهو مهندس، كان يرتدي في المعتقل قميصا مفتوحا وشورتا، ويقضي نهاره كله يدور ويلف حول نفسه، بينما السجارة تتدلى من بين شفتيه، ونادرا ما كان يتبادل الحديث مع أحد، ولكنني لاحظت أنه كانت تبدو عليه السعادة إذا تبادل حديثا باللغة الفرنسية.

وذات صباح خطر للعبد لله أن يمزح معه، فقلت له.. بونجور..

وإذا به يلتفت للعبد لله وهات يارطن بالفرنساوي. وعندما اكتشف أني لا أعرف الفرنسية غضب غضبا شديدا. والسبب أنني أثناء انهماكه في الحديث بالفرنسية كنت أهز رأسي وأردد كلمة وي.. وي، لكنه يبدو أنه ألقى على العبد لله سؤالا، فلما أجبته بالعبرة التي أرددها دائما (وي) أدرك أنني أعرف في فرنساوي كما تعرف خالتي بهانة في اللغة اليابانية وعندما ضحكت، ازداد غضبه، فتدخل إبراهيم العطار وحاول إصلاح ما أفسده الدهر، ولكن ناله من أحمد صادق سعد ما نالني من قبل.

وكان إبراهيم العطار من الشيوعيين القدماء، وكان صاحب تاريخ في المعتقلات السابقة، وفي بداية حياته كأحد صولات الجيش في سلاح الطيران، واتهم مع بعض زملائه باعتناق المبادئ (الهدامة) ولكن التحقيق معهم لم يثبت شيئا ضدهم، فاكثفوا بنقلهم إلى الواحات وكان رجلا خفيف الدم مرحا وعطوفا وطيب القلب، ولذلك توثقت الصلة بيني وبينه من أول لحظة اجتمعنا فيها داخل معتقل الواحات، وتطورت علاقتنا إلى صداقة حقيقية عندما تحالفنا معا ضد صادق سعد، ورحنا نلاحقه في الحوش بالنكت، ولكن صادق سعد لم يكلف نفسه مرة واحدة بالرد علينا، أو حتى مجرد الاهتمام بأمرنا.

لكن بعد أسبوع من بداية حملتنا ضده، تشرفت زنزانتنا بزيارة زميل جاء يقضي الليل معنا، وتصور أنه جاء لقضاء سهرة مع أصدقائه ولكنه أفصح عن سر الزيارة في منتصف الليل، عندما نظر للعبد لله وقال وعلى وجهه تعبير كبار المسؤولين الذين يحملون على

أكتافهم هموم البشر: اسمع يا سعدني.. أنت وإبراهيم العطار بتنكتو على صادق سعد.. وعاوز أقولك إن صادق سعد ده علامة في الحركة الشيوعية، وعاوز أقولك إن الشيوعيين لما دخلوا شانجهاي شنقوا اللي زيك أنت وإبراهيم العطار. وقلت للزميل المتحمس.. على كل حال لما تخشوا القاهرة يبقى يحلها ربنا.

وهذا الزميل المتحمس تعمدت عدم ذكر اسمه لأنه انتقل إلى رحمة الله، ولأنه بعد ستة أشهر من هذا الإنذار الذي وجهه للعبد لله، حمل متاعه القليل وجاء زنزانتي، وصار واحدا من زعماء حزب زمش.. الذي سيأتي ذكره بالتفصيل فيما بعد. وغير علي الشوباشي، كان معنا علي الشلقاني، وهو برنس حقيقي وفارس من عصر الفرسان. كان شديد الاعتداد بنفسه وشديد التواضع في نفس الوقت، وكان يتصرف في السجن وكأنه يعيش على شاطئ بحيرة ليمان في جنيف.

وكان هناك أسعد حلیم.. الهادئ الصامت الواثق من نفسه. وكنت قد سمعت بأسعد حلیم من صديق مشترك هو بكر سيف النصر الذي مات فجأة وهو في شرح الشباب. ثم التقيت به في بيروت وفي ظروف غريبة. ففي أثناء العدوان على مصر في عام ١٩٥٦، أصدرنا نحن مجموعة الصحفيين المصريين الذين تصادف وجودنا في لبنان وقت وقوع العدوان، صحيفة مصرية، وبالفعل صدرت جريدة الجمهورية (لسان حال جمال عبد الناصر) واشترك في تحريرها مجموعة من الصحفيين والكتاب المصريين، منهم محمد عودة وسعد الدين وهبة وعبد الرحمن الشرقاوي وسامي جوهر وعلي جمال الدين طاهر، وباعتبار العبد لله هو المحرر المقيم في مكتب الجريدة،

والمشرف على تحريرها مع سامي جوهر، فقد كنت أتلقي رسالة يومية تحوي مقالا يدل على أن كاتبه من الكتاب المحترفين، وكان كاتب المقال المجهول يحضر كل صباح إلى مكتب الجريدة ويسلم مقاله إلى البواب وينصرف. وكان يوقع مقالاته باسم أحمد صادق، ولم أكن قد سمعت من قبل بكاتب يحمل هذا الاسم.

و ذات صباح تصادف مجيء العبد لله إلى مكتب الجريدة في نفس اللحظة التي كان فيها أحمد صادق يسلم مقاله إلى البواب، فصافحته ودعوته للدخول. وجلسنا فترة نتحدث. وتشعب الحديث بنا إلى مصر، وجاءت سيرة بكر سيف النصر، وكان اسم بكر سيف النصر هو العصا السحرية التي فتحت مغاليق الكاتب المجهول أحمد صادق. واكتشفت أن الذي يجلس أمامي في مكثبي المتواضع في جريدة الجمهورية في بيروت، هو المناضل القديم أسعد حليم. وكان أسعد حليم لسوء حظه في المعتقل عندما قامت الثورة، وأفرجت الثورة عن كل المعتقلين، ولكنها احتفظت في المعتقل بعدد قليل منهم، كان بينهم أسعد حليم. وأدرك أسعد حليم المجرب الخبير أن المعتقل سيكون هذه المرة بلا نهاية. فخطط للهرب من المعتقل ومن مصر كلها، ونجح في تنفيذ الخطة بمساعدة الصديق الشهم بكر سيف النصر. وبعد أن قضى في مصر عدة أسابيع بعيدا عن العيون، استطاع الخروج منها على ظهر مركب، نقلته إلى بيروت. وعندما وقع العدوان على مصر، سارع المناضل القديم إلى حمل القلم والدفاع عن وطنه ضد المعتدين، وبعد العدوان أصدرت حكومة الثورة عفوا عن جميع المتهمين السياسيين، ودعت الذين يعيشون منهم في الخارج للعودة، وصافي يالبن، وفتح صفحة جديدة لبناء المجتمع الجديد.

كان أسعد حلیم من أول الذین لبوا النداء وعادوا إلى أرض الوطن ولكن عندما حانت الفرصة اعتقلت الحكومة أسعد حلیم، مع أنه لم یکن عضواً فی أي تنظیم شیوعي، ولم یکن له نشاط ضد الدولة من أي نوع، ولكنها الدوسیحات القديمة والملفات التي ملأها التراب، أيضاً كان هناك فایق فزید.. المهندس العالم والأستاذ العبقری. كان فایق فزید فی سجن الواحات كالنسمة الطرية فی لیلۃ صیف، وكان حریصاً علی أن یبدو هادئاً وسعیداً علی نحو ما. وأخيراً كان هناك الدكتور حمزة البسیونی.. الضاحك دائماً، المتفائل بالرغم من كل شیء.

وطابت الحیاة فی سجن الواحات للعبد لله، فالحیاة محتملة، والرفقة بعضها طیب، وأغلبها مش ولا بد، ولكنها محتملة علی كل حال. ثم جاء یوم وجرى توزیع المعتقلین داخل السجن علی أساس الانتماء الحزبی. أعضاء الحزب الشیوعي المصری فی غرف خاصة بهم، منظمة حدتو فی غرف خاصة بها، وغرف أخرى مخصصة لتنظیم طش، وغرف أخرى لتنظیم وش.. وكانت المشكلة التي احتار حلها الجميع هی مشكلة المستقلین.

وأصل الحکایة أن السجن كان یضم عشرات من الذین لا یتتمون لأی تنظیمات شیوعية، بعضهم ماركسیون.. مثل لطف الله سلیمان وأسعد حلیم، والبعض منهم علاقته بالشیوعية الماركسية كعلاقة ستي هدیة بعلوم الفضاء.. مثل أحمد شوقي عبد الهادی، وكان هناك نوع آخر، هم الذین كانوا فی تنظیم شیوعي لحظة القبض علیهم، ولكنهم خلعوا من التنظیم بعد وصولهم إلى المعتقل. وعقدنا اجتماع

قمة حضره إبراهيم العطار وأحمد شوقي عبد الهادي وعبد الموجود إبراهيم أبو زيد وهو من عمال السكة الحديد، ومحمد عبد الواحد وهو رئيس نقابة عمالية كبرى. والعبد لله.

كان الهدف من الاجتماع أن يكون لنا تنظيم خاص بعيدا ومختلفا عن التنظيمات الشيوعية، صحيح أننا شيوعيون أمام الدولة، ولكننا في واقع الأمر لا علاقة لنا بالتنظيمات على الإطلاق. ولكن كيف؟ هذا هو السؤال.

كان من رأي إبراهيم العطار أن انضمامنا لأي تنظيم، حتى ولو كان تنظيما فكاھيا، سيجذب انتباه الأجهزة الحكومية، وقد تكون له عواقب وخيمة، ولكن كان لا بد لنا من حل المشكلة ولذلك قررنا أن يفكر كل منا في حل يحقق لنا الهدفين معا.. التنظيم وعدم استفزاز الحكومة. وقضينا أسبوعا في الشتات.

كان العبد لله يعيش في حجرة تضم أديب ديمتري، وهو رجل فاضل من خبراء التعليم، وكان قصير القامة، وحبكت النكتة مع العبد لله فأطلقت عليه اسم أديب ديملي، باعتباره أنسب لقصر قامته، ومع ذلك لم يغضب أديب ديمتري ولم يحتج ولم يوجه للعبد لله إنذارا كما فعل صادق سعد، ولكنه ضحك من أعماقه، واعتبرها نكتة أشاعت في جو السجن الكئيب ضحكة صافية، كان معنا أيضا محمد المستجير، ولو كان كل الشيوعيين مثله، لحكموا العالم كله. ولكن هؤلاء الرفاق لم يمنعوا العبد لله من التفكير، وهو التفكير الذي قادني في النهاية إلى اكتشاف الحل.. ولكن ما هو الحل؟

الفصل التاسع

كان تنظيم زمش هو الحل لمواجهة حالة عدم الانتماء التي أوقعتنا في ورطة داخل سجن الواحات. كان اسم تنظيمنا الذي اهتمت إليه هو على وجه التحديد (زاي ما انت شايف) وأخذت الحروف الأولى من الكلمات الثلاث (ز. م. ش) ولم يكن هذا اختراعا من اختراعات العبد لله، فقد كان في المعتقل تنظيم الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني. ولكنه كان معروفا بين الناس باسم (حدثو) وكان هناك هناك تنظيم وحدة الشيوعيين الذي عرف باسم (وش).

المؤامرة والتفاح!

كما كان هناك تنظيم طليعة الشيوعيين الذي عرف باسم (طش) وبالفعل قامت زمش واشتهرت ودخلت تاريخ الحركة الشيوعية في مصر. وتولى العبد لله منصب سكرتير عام زمش. يعني رأسي برأس خروشوف على طول، وتولى إبراهيم العطار رئاسة المكتب السياسي، وتولى أحمد شوقي عبد الهادي مسؤولية الإمداد والتمويل.

والحق أقول إن مهمتي ومهمة إبراهيم العطار كانت سهلة للغاية فنحن نصدر البيانات، ونضع التحليل المناسب للحالة السياسية، أما مسؤولية أحمد شوقي عبد الهادي فقد كانت صعبة للغاية. فقد كان غذاؤنا يوفره السجن لنا. ولكننا في أول الأمر كنا في حاجة إلى شاي ناشف وسكر وكميات من الوقود لزوم إنضاج الشاي في الزنزانة، وقد نجح مسئول التمويل في تدبير هذه المواد، بعلاقاته ببعض الشاوشية المشرفين على الكانتين وبأحد زملاء الذين يعملون في الورشة.

ومضت الحياة بنا سهلة ومسلية ومحتملة إلى حد كبير. وارتاحت أعصابنا من تدابير معتقل الفيوم الذي كان نسخة طبق الأصل من

معتقلات النازي، ولقد قام تنظيم زمش بضم مجموعة من خيرة أبناء مصر. الماركسي القديم أسعد حليم صاحب الأعصاب الباردة والعقل الهادئ ولطف الله سليمان المثقف العصبي الذي ينطق عشر كلمات فرنسية في جملة من ١١ كلمة، والمحامي على الشلقاني الهادئ البسيط الذي جعل من الزنزانة صالونا سياسيا على أرقى المستويات. وكان هناك أيضا الدكتور فايق فريد. العالم الذي لولا الظروف السيئة التي تعصف بالعالم العربي منذ منتصف القرن، لكان له الآن شأن آخر. وكان معنا الحالم المحلق فوق السحاب عادل ثابت، والتحق بنا فيما بعد الكاتب الصحفي فتحي خليل عليه رحمة الله. إلى جانب مجموعة من أولاد البلد الطيبين، على رأسهم عبد الموجود أبو زيد وعباس الديكي من عمال السكة الحديد.

وعندما تضاعف عدد الأعضاء وازداد عدد العاطفين على تنظيمنا اضطررنا إلى توزيع بعض الأعضاء على غرف مشتركة، وتعمدنا أن تكون هذه الفرق تابعة لتنظيم (حدثو) لأنهم كانوا أكثر فهما للموقف السياسي وأكثر مرونة وتجربتهم أعمق بأحوال الشعب المصري، ثم حدث أول شقاق في تنظيم زمش. وكان أول المنشقين هو الأستاذ أبو الخير المحامي وعندما دخل أبو الخير السجن كان ينتمي إلى تنظيم (حدثو). ثم انسلك عن (حدثو) وانضم إلى تنظيم زمش. وفي أول امتحان أعلن العصيان وخرج على زمش وأعلن نفسه مستقلا عن جميع التنظيمات. أما سبب انفصاله.. فلأن الحزب الشيوعي المصري أجرى اتصالا بالقيادة الزمشية طالبا التعاون معه في الحياة العامة، وكان معنى هذا الطلب هو التنازل عن جزء من دخلنا للحزب الشيوعي المصري.

كان تنظيم زمش هو أغنى التنظيمات الموجودة داخل المعتقل . فهو يضم ٢٥ عضوا يحصل كل منهم على الحد الأقصى المسموح به شهريا لكل معتقل . وهو مبلغ عشرة جنيهات شهريا . وعلى الفور عقدنا اجتماعا على مستوى القمة ثم أصدرنا في النهاية قرارا بالاشتراك مع الحزب الشيوعي في الحياة العامة والتنازل عن ٥٠٪ من دخلنا لهذا الغرض .. وكان من رأي العبد لله ومن رأي أغلبية زمش أن المسائل المعيشية لا علاقة لها بالسياسة وإذا كنا نختلف مع الحزب الشيوعي المصري في أمور الشاي والسكر والسجاير ولكن محمد أبو الخير اعترض بشدة ووصف هذا الموقف من جانبنا بأنه خطير للغاية، وبداية للتورط في مشاكل لا حد لها . وقال إن السلطة ستعتبر هذا التعاون دعما للحزب الشيوعي المصري، وستعامل زمش على أنه تنظيم مؤيد للحزب وموافق على سياسته، وسنلقى أسوأ مصير في المعتقل وأمام المحاكم .

ولكن العبد لله، وباعتباري خروشوف زمش قررت تنفيذ قرار الأغلبية وأبلغت به الزميل سيد عبد الله مندوب الحزب في الحياة العامة . وفي هذه اللحظة قطع الأستاذ أبو الخير علاقته بزمش، وكان حريصا على إعلان موقفه على الملأ ..

وفي اليوم التالي تمّ تأليف اللجنة العامة التي تمثل جميع التنظيمات للإشراف على تنظيم حياة المعتقلين، وحضر الأستاذ أحمد طه عن (حدثو) والأستاذ سيد عبد الله عن الحزب الشيوعي والأستاذ حمدي حمدان عن (طش) والأستاذ علي الشوباشي عن (وش)، والعبد لله عن (زمش) .

وفي أول اجتماع تم انتخاب العبد لله رئيسا للجنة العامة لمعتقل الواحات، وفوضنا الأستاذ سيد عبد الله والأستاذ علي الشوباشي في شراء ما يلزم المعتقلين من لوازم ومواد غذائية وسجاير. وقام الزميلان بمهمتهما على أكمل وجه. وتم تشوين المشتريات في حجرة داخل السجن تسلم العبد لله مفتاحها باعتباري رئيسا للجنة العامة. واجتمعنا في اليوم التالي للشراء للنظر في القواعد الواجب اتباعها في توزيع هذه المواد وحصص كل تنظيم حسب عدد أفرادهم ووضع نظام خاص للمرضى والمسنين .

وتصور العبد لله أن مهمة اللجنة لن تستغرق أكثر من دقائق يتم بعدها توزيع المواد على المعتقلين. ولكن الذي حدث بالفعل كان أغرب من الخيال.

بدأ العبد لله الجلسة بكلمة قصيرة أكدت فيها وجوب الإسراع في توزيع المواد الغذائية، خصوصا أن من بينها كميات من التفاح والكمثرى وقد تتعرض للتلف إذا لم نسرع في توزيعها على الزملاء.. ولكن الزميل سيد عبد الله رفع إصبعه وطلب الكلمة.. وقلت لنفسي إن سيد عبد الله لديه خبرة عريضة في المعتقلات وهو لا بد لديه خطة كاملة لعملية التوزيع. ولكنني فوجئت بالأستاذ سيد عبد الله يقول في حماس شديد وبصوت هادئ: اسمحوا لي أن أبدأ بعرض المواقف التاريخية التي حدثت في معتقلات سابقة، ففي الواقع أن بعض الزملاء في معتقل أوردي أبوزعبل ماتوا بسبب سوء توزيع المواد الغذائية؛ لأن المشرف على التوزيع كان من تنظيم (د. ش) وكان يخص أعضاء تنظيمه بكميات وفيرة من السلامون والجبنة البيضاء

والخضراوات والخيار والطماطم، بينما لم يصل إلى أيدي أعضاء تنظيم (الراية) إلا النزر اليسير من هذه المأكولات عندئذ رفع مندوب تنظيم (طش) إصبعه قائلاً: نقطة نظام. وحاولت إسكاته ولكنني اكتشفت أن عبارة (نقطة نظام) هي العصا السحرية التي تجبر رئيس اللجنة على السكوت وإعطاء الكلمة للزميل صاحب نقطة النظام، وبدأ مندوب (طش) في الكلام: الحقيقة التي يعرفها الزملاء أن المؤامرة ضد ممثلي الجماهير الكادحة لا تأتي من خارجنا فقط ولكنها وصلت إلى صفوفنا، وهدفها الوحيد هو تزييف تاريخ الحركة الشيوعية، وهذا دليل قاطع على أن الإمبريالية والشواشي العليا للبرجوازية والطبقة الطفيلية لا تعمل وحدها ولكنها تعمل للأسف الشديد بالتعاون والتنسيق مع بعض التنظيمات المشبوهة التي دخلت تحت عباءة الماركسية وناضلت باسمها وما قاله الزميل سيد عبد الله هو جزء من هذا المخطط الذي يؤكد أن الحركة النضالية في الممارسة تصطدم بعقبات تلك أخطرها على الإطلاق.

وهنا رفع سيد عبد الله يده ناطقاً نقطة نظام ورغم احتجاج حمدي حمدان مندوب (طش) إلا أنني أعطيت الكلمة لسيد عبد الله وقال سيد عبد الله (في الواقع) ولا أعرف ما الذي حدث بعد ذلك ولا أستطيع أن أرويهِ لحضراتكم، لأن العبد لله نام أثناء المناقشة، وعندما استيقظت كانت الشمس على وشك المغيب، وصفارات كثيرة تدوي في أرجاء السجن فقد حان وقت التهام، والشاويش حسن يقف على باب الزنزانة وفي يده شيء أشبه بالحزام الجلد، وقال لنا «انتوا لسه بتتكلّموا.. انتوا مش هتوزعوا الأكل بقه عشان ينوبنا من الحب جانب؟».

وسألت المجتمعين عن النقطة التي وصلوا إليها، فأجابوا الرئيس الذي هو حضرتنا بأنهم اتفقوا على مواصلة الاجتماع غدا في نفس المكان وفي نفس الوقت للاستماع إلى كلمات مندوب (وش) ومندوب (طش) ونمت ليلتي وأنا شديد القلق على مصير التفاح والكمثرى والطماطم والخيار التي اشتريناها من الكانتين والتي توشك على العطب، ولكنني رغم الخوف والقلق حضرت الاجتماع في اليوم التالي وحدث فيه ما حدث في اجتماع ليلة أمس. تحدث مندوب (وش) وقص علينا ما حدث في المعتقلات السابقة وعدد الأخطاء التي وقعت فيها الحياة العامة وتدخل مندوب الحزب وقال: في الواقع، ثم عاد مندوب (طش) وألقى الضوء على أبعاد المؤامرة الدولية للقضاء على طليعة الشعب المصري، ثم نام العبد لله كما حدث بالأمس، واستيقظت على صوت الصفافير تدوي في أرجاء السجن والشاويش حسن على الباب يطالب بحقه في الكمثرى والتفاح وقمنا على موعد في اليوم التالي في نفس المكان ونفس الزمان.

وأسبوع كامل أيها السادة ونحن نستمع إلى سرد تاريخي على ما جرى للزميل على وزه في معتقل الزيتون، وعلى المصير الأسود الذي انتهى إليه الزميل عبده زقلط في معتقل روض الفرج وهي أحداث مؤسفة كان السبب فيها سوء العمل داخل الحياة العامة في تلك المعتقلات.

وعندما فاض الكيل بالعبد لله قلت لهم بالحرف الواحد: غدا وإذا لم تصلوا إلى اتفاق سينسحب تنظيم (زمش) من الحياة العامة. ولكن للأسف الشديد لم يقدر لهذا الاجتماع أن ينعقد، لا في الغد

ولا في أي وقت بعد ذلك، وما حدث يصلح أساسا لفيلم سينمائي أرشحه لجائزة أوسكار. فبعد أن فتحو أبواب الزنازين في السابعة صباحا وقدموا طعام الإفطار، وأثناء تجول المعتقلين في أنحاء الحوش أطلقوا الصفافير في العاشرة صباحا وأمرونا بالعودة إلى داخل العنابر وأخذوا في حشدنا داخل الزنازين وإغلاقها، ثم تجولوا داخل السجن لعمل التهام، وقال بعض الخبراء من المعتقلين: إن هذا الإجراء يتم في حالة هروب أحد النزلاء وقال الأستاذ إبراهيم العطار: لا بد أن هناك كشفا يضم عددا من أسماء الذين سيفرج عنهم وصل إلى السجن الآن، وأنهم بعد أخذ التهام سينادون على أسماء المفرج عنهم، وأفتى أحد الزملاء واسمه أنور بأن الأوامر وصلت لنقل بعض القيادات إلى القاهرة تمهيدا لمحاكمتهم والحكم عليهم بالإعدام!

ووسط جو التخمينات والتكهنات دخل العنبر أحد المسجونين من الإخوان المسلمين ووقف أمام نافذة الزناينة وقال بصوت يلونه الأسى والأسف: شدوا حيلكو والبسوا حاجات ثقيلة.. وسخرت من نصيحة الأخ المسجون وقلت معلقا: إن الشتاء لا يأتي في شهر سبتمبر وفي الواحات بالذات. ولكن البعض أخذ في ارتداء جميع ملابسه من فانات وكلسونات وجلاليب وجاكتات وبنطلونات حتى صار كل واحد منهم أشبه بالكرنبة. وجلسنا داخل الزنازين ننتظر ما تحبئه لنا الأقدار!

الفصل العاشر

الله يقطع الحنجوري ويقطع سنينه السوداء، حرمانا
من التفاح والكمثرى وأضاع علينا فرصة الاستمتاع
بطبق السلطة من الطماطم والخيار. لقد كان الأخ الذي
نصحننا بارتداء ملابس ثقيلة على حق، فقد فوجئنا
بكتيبة من العساكر كلهم من صنف الأشاوس، طول
بعرض صدور مفتوحة وعضلات منفوخة، ولديهم
رغبة غريزية في طحن عظام جميع مخالفين الله والمساكين
منهم على وجه الخصوص.

ألفية ابن ماركس!

لقد حل ضيف السجن سعادة إسماعيل باشا همت، وهو ضابط جيش تخلصت منه الثورة وألقت به إلى مصلحة السجون وصار وكيلا لها. ولكن فشر أن يقبل الباشا أن يكون واحدا من الوكلاء فأسس لنفسه جيشا داخل المصلحة، وتولى منصب القيادة، وأحاط نفسه بحفنة من المساعدين القدامى الذين سبق لهم الخدمة مع حيدر باشا عندما كان مديرا لمصلحة السجون. وطرق أسماعنا من خلال القضبان وقع أقدام الجند وصدى كعوب بنادقهم وهي تصطدم بالأرض. ثم صاح أحدهم في الجنود:

- ابعد عن الرأس والبطن واضرب.. ثم فتحوا باب العنبر، وأخذوا في إخراج زنزانة وراء زنزانة، وكان يفصل بين خروج الزنزانة والأخرى حوالي ثلاث دقائق. وخلال هذه الدقائق القصيرة كانت تصل إلينا صيحات المعتقلين تتصاعد في الجو، وكانت كل صرخة تختلف عن الأخرى حسب نوعية الضربة ومكانها، أحيانا تخرج الصرخة مكتومة وأحيانا متحشجة وأحيانا ممطوطة.. وكان وقع ضرب المعتقلين أشد وطأة علينا ونحن محشورون داخل الزنزانة

نتظر دورنا. وعندما حان الوقت كانت قلوبنا قد أصبحت في كعوبنا، وعندما أصبحنا خارج العنبر، أبصرت صفا من الجنود، بين كل جندي وآخر مسافة لا تزيد على متر واحد، وفي يد كل جندي ما تيسر له من سلاح، بندقية، قمشة، فرع شجرة، كرباج سوداني، حزام ينتهي بكتلة نحاس صفراء.

وحاول أحد الضباط حماية زنزانتنا ونجح في ذلك خلال عبورنا فناء السجن. ولكن عند خروجنا من البوابة انهار علينا الشوم من كل جانب وصاح أحد الجنود فينا: اجر.

ولم أدر في أي طريق أجري ولا في أي اتجاه، كانت الصحراء مترامية أمامي وفسيحة وبلا نهاية وعندما حاولت أن أجري ناحية اليمين، ردوني إلى اليسار. ولكن العساكر المسلحين بالشوم دفعوني دفعا للجرى إلى الأمام، ولكن أحذية الشاويشية الغليظة أرغمتني على الارتداد للخلف، ثم جرنني أحدهم من شعري إلى موضع خلف السجن، حيث كانت هناك حفلة ولا كل الحفلات، كانت هناك منصة يجلس عليها الباشا إسماعيل همت وقد وضع على رأسه الكاب الأحمر. وعن يمينه وعن يساره تجلس مجموعة من كبار الضباط، بينما كان المعتقلون الذين سبقونا إلى هناك يسجدون على الأرض عرايا كما ولدتهم أمهاتهم ومؤخراتهم نحو الباشا ورءوسهم نحو الشرق!

وأمرونا بأن نخلع ملابسنا ولأن العبد لله استمع لنصيحة الأخ المسلم ولبست كل اللي ع الحبل، فقد استغرقت وقتا طويلا في خلع ملابسي.. بينما كان العساكر ينهالون ضربا على أجسامنا بالأكف

والعصي والشوم، وعندما انتهيت من خلع ملابسي أجبروني على السجود ثم جاء عسكري حلاق وحلق رأسي زيرو، ثم مر مرور الكرام على حواجبي وزيادة في الفضل لزقني بكفه على قفائي فانبطحت على الأرض.

ومر الشاويش «متى» على جموع الساجدين في خشوع ومؤخراتهم في مواجهة الباشا همت، وراح يوزع ضرباته بالشومة على رؤوس وظهور ومؤخرات المعتقلين بوحشية وبضراوة، بينما كان الباشا همت يقهقه عاليا، وزيادة في جلب السرور على قلب الباشا، اختاروا بعض المعتقلين وربطوهم على العروسة وجلدوهم بلا رحمة وكان الجلد يتوقف إذا فقد المعتقل وعيه، عندئذ يفكون وثاقه ويرشونه بعدة جرادل من الماء، وبعد أن نال الباشا كفايته من اللذة والسرور، وزعوا علينا بدل السجن. وهي بدل من باب الدلع، بنطلون وقميص من الدمور المصبوغ بالنيلة، واكتشفنا أنها مستعملة وأنها ممزقة لا تستر عورة ولا تحمى من تقلبات الجو، وعدنا عرايا إلى العنبر نحمل هلاهيلنا بين أيدينا. وعندما ألقيت نظرة على القطيع البائس وهو يقطع فناء السجن، انتابني نوبة ضحك لم أستطع مقاومتها. كان بينهم المحامي والصحفي والمهندس والطبيب والكاتب والأديب والمثقف والمفكر والعامل النقابي الذي يقود الألوف وهزني منظر معتقل طويل كلوح خشب، كان يدب على الأرض في خيلاء وقد قبض على بدلة السجن بأصابعه، وكان يدعى فخري حبيب وكان يعمل مدرسا إلزاميا على ما أعتقد، ولكنه كان يشغل منصبا مهماً داخل سجن الواحات، فقد كان مسئول المنطقة وهو الذى يقود الحزب الشيوعي المصري داخل سجن الواحات وكان داخل السجن عشرات من أساتذة الجامعة

وكبار الكتاب والمفكرين والصحفيين، ولكن كلمة المعلم الإلزامي هي العليا وكلمة الآخرين هي السفلى. وكان شديد البراعة في علم الحنجوري، وكان يحفظ المنافستو كما يحفظ الطالب الأزهرى النشيط ألفية ابن مالك، ولكن خارج هذه الدائرة كان يبدو قليل الحيلة، فلم يسبق له في حياته قراءة كتاب خارج نطاق الكتب الشيوعية وكان لا يقرأ الجرائد؛ لأنها لسان حال البرجوازية والإمبريالية والكمبرادوية ويفضل عليها قراءة المنشورات.. خصوصاً المنشورات المكتوبة على ورق بفرة.

كان منظره وهو يمشي في فناء السجن مشية الأوزة وقد أمسك بملابسه بيده، وبينما هو نفسه يمضي زلط ملط كما ولدته أمه منظرًا يتزع الضحك من صدور الموتى. لقد كان يقوم بدور ستالين الواحات. وكان يحلم بأن يكون ستالين مصر كلها يوماً ما. ولقد تحققت أحلامه كلها بعد ذلك، فأصبح ستالين مصر أخيراً، ولكن بعد أن أفلس الحزب الشيوعي السوفيتي وانهارت الأحزاب الشيوعية الورقية في شرق أوروبا، واضطرت الأحزاب الشيوعية الأوروبية إلى التبرؤ من تهمة الشيوعية. وكانت قمة المأساة عندما حل الحزب الشيوعي البريطاني نفسه وهجر السياسة إلى الأبد واختفى عن الأنظار.

يالها من ليلة بائسة قضيناها داخل الزنزانة في ظلام دامس، فقد بدأت فترة التكدير لتأديب المعتقلين وكان الأمر بالتكدير يشمل عدم إضاءة الأنوار داخل العنابر، عدم تقديم طعام للمساجين خلاف الكربن المسلووق، تشغيل المعتقلين أشغالا شاقة في الصحراء.

وفي الصباح الباكر دوت الصفافير في كل ركن من أركان السجن

ودخل حضرة الصول شاهين في يده شومة طولها متر ونصف المتر،
راح يسوق بها المعتقلين خارج العنبر، كان الوقت شتاء ودرجة
الحرارة تحت الصفر، وكنا حفاة وبلا ملابس تقريبا.

وكانت حبات الرمال المدبية أشبه بالمسامير الصغيرة ووقفنا في
صفوف في مواجهة الصول شاهين، بينما كان الباشا همت وحاشيته
يقفون عند باب الإدارة، وأمرنا الصول بالجلوس، وكنا حوالي ستمائة
معتقل جلسنا على الفور، ثم أمرونا بالوقوف، وقبل أن نعتدل في
وقفتنا، أمرنا بالجلوس ثم أمرنا بالوقوف، أمرنا بالجلوس ثم أمرنا
بالوقوف ثم بالجلوس وبين الوقوف والجلوس كانت عصاه تمرح
على هواها تنزل على الرؤوس والوجوه، ولم تكن عصا واحدة ولكن
كانت هناك أكثر من مائة شومة، وانبطحت رؤوس كثيرة، وانكسرت
عظام أكثر، وانتابت الصول شاهين نوبة جنون فصار كالثور الهائج،
وبعد مائة قيام وجلوس أمرنا الصول شاهين بمعتدل مارش، واتجهنا
إلى البوابة، ولكن عند البوابة بالضبط جاء الصول شاهين بأوراق
معه وطلب من الضابط عبد العال سلومة أن يوقع على دفتر السجن
باعتباره المسئول عن المعتقلين خارج البوابة ولكن الضابط سلومة
اعتذر، نطق بعبارة جعلت الدم يتجمد في عروق المعتقلين، قال
الضابط سلومة وهو يشوح بيده:

أنا مش هامضي على أي ورق، هو أنا موعود بالمصايب، تاخدوهم
بره تقتلوهم وأنا اللي أروح في داهية.

رنت كلمة تقتلوهم في أذن المعتقلين كالطبل وهتف واحد
خلفي:

- مؤامرة يا زملا

وتراجع بعض المعتقلين إلى الصفوف الخلفية وحدث هرج ومرج في الصفوف مما دفع الصول شاهين إلى ممارسة هوايته فراح يشوح بالشومة وقلده العساكر، وتعالى الصرخات ولم يخلصنا من هذا الموقف الرهيب إلا المأمور شنيش الذي قال للضابط سلومة:

أنت خائف تمضي ليه؟!

ورد عليه سلومة قائلا:

- أنا اتاكلت قبل كدة، ومش مستعد اتاكل أونطة تاني.

ووقع على الأوراق المأمور شنيش وبدأت رحلة الطابور البائس إلى المجهول، وعندما أصبحنا خارج الأسوار، تأكدنا من أن هناك مذبحه على وشك الوقوع، كانت عساكر الباشا همت تحيط بنا من كل جانب وفي أيديهم مدافع رشاشة وأصابعهم على الزناد.

وعندما تأكد للعبد لله أن الرصاص سيحصدنا جميعا، وضعت يدا على قلبي، ووضعت اليد الأخرى على رأسي وقلت بيني وبين نفسي.. إذا جاء الرصاص فليدخل في ساقي أو في بطني وسيكون من لطف الله أن تصيبنارصاصة غير قاتلة وينقلونا إلى المستشفى ويخلصونا من هذا الجحيم، وبعد فترة من السير على رمال كالمسامير وأشواك كالإبر، خيل للعبد لله أن الرصاص وحتى الموت أرحم مما نحن فيه، وكان إلى جوارى معتقل انحدرت من عينه دمعة، وقلت له:

- معلهش.. شد حيلك.

ونظر نحوي في ذهول وقال:

- أن مش زعلان على نفسي، أنا زعلان على الزملا. أما العبد لله، فقد كنت زعلان على نفسي أولا ولم يكن لدي وقت للتفكير في مآسي الآخرين. ولكن بعض الناس تدعي في أوقات الشدة خيالات ليس لها صلة بواقع الأمر.

كانت عساكر الباشا همت تحيط بنا إحاطة العقد برقبة الحسناء، وهبت ريح نشيطة محملة بالرمال من جوف الصحراء، حلقت في السماء أسراب نسور جائعة، لعلها شعرت بأن هناك مذبحة وشيكة الوقوع، وأن هناك مأدبة من أفضل اللحوم على الأبواب.

وكان الضابط سلومة لا يزال يمشي على مقربة من الطابور وهو ينفخ من شدة القلق والغيط، لقد مر بمأساة سابقة كلفته تجميده في رتبته عدة سنوات، وحتى المأمور كان من دفعته ولكنه سبقه بعد هذه المأساة.

وأصل الحكاية أنه كان مسئولاً عن عنبر للإخوان المسلمين في سجن طرة، ثم حدث تمرد من جانب الإخوان، فصدر الأمر بإطلاق النار عليهم بعد أن احتجزوا معهم بعض الضباط وهددوا بالانتقام منهم. وقيل إن الذي أصدر الأمر بإطلاق النار هو أركان حرب وزارة الداخلية صلاح الدسوقي الذي كان محافظاً للقاهرة يوماً ما. ولكن السيد أركان الحرب أنكر في التحقيق أنه أصدر أمراً بإطلاق النار. وانحصرت المسئولية في الضابط سلومة. وكانت النتيجة أنه تراجع إلى الخلف مائة خطوة، بينما سبقه بقية الزملاء عدة خطوات إلى الأمام.

بعد أن قطعنا عدة كيلو مترات داخل الصحراء، صدر الأمر

للطابور بالتوقف. ألقى نظرة على المكان وأدركت أنه المسرح الذي أعدوه لارتكاب المأساة. كنا جميعا في سهل منبسط تحيط به عدة تلال احتلها عساكر الباشا همت وانبطحوا على وجوههم وصوبوا مدافعهم نحو أفراد الطابور. ونصح عسكري اسمه الصيفي زملاءه بالإسراع خارج الكردون إذا بدأ إطلاق النار، وبينما الكل يترقب لحظة إطلاق النار، جاء ضابط اسمه صلاح طه كان مسئولا عن الشؤون العامة بمصلحة السجون وكان من رواد قهوة ريش وكثيرا ما جلس بيننا ودخل معنا في نقاش طويل، وكان يبدو مهذبا على القهوة - ومثقفا على نحو ما - جاء صلاح طه ووقف في مواجهة المعتقلين وقال:

- إذا كنتم بتحبوا مصر صحيح لازم تثبتوا الحب ده عمليا، واحنا النهاردة هنعمر الوادي الجديد، وأنتم هتشاركوا معنا في عملية التعمير ثم أشار لبعض العساكر فجاءوا يحملون مئات الفئوس ومئات الغلقان، ثم قال:

- قسموا أنفسكم فرقتين. فرقة حمالة وفرقة جمالة.

أما الحمالة، فهم يملئون الرمل إلى مكان آخر بعيد. وحددت مكاني على الفور وأصبحت مع الجمالة، وقدرت أن الجمالة أفضل، لأنها تسمح بالابتعاد عن أعين الرقباء وفيها شيء من الصياغة، بينما الحمالة سيكونون تحت عين الرقيب طول الوقت.

وكان لكلمات صلاح طه وقع موسيقى عبد الوهاب على آذان المعتقلين لقد توقعوا ضرب النار فإذا بهم مدعوون للاشتراك في تعمير الوادي الجديد. صحيح أن العمل شاق، ولكنها حالة أفضل من الموت.

وبدأ العمل بهمة ونشاط، وبدأنا في نقل الرمال، ولكنني اكتشفت أن تقديري لم يكن صائبا. فطابور الجمالة وراءه طابور آخر من العساكر، والضرب على ودنه من أول اللزق على القفا إلى الضرب بكعب البندقية على الضلوع. ولكن ما باليد حيلة، والحياة قسمة ونصيب. كما أنها حظوظ ومزاجات. وعندما انتصف النهار مر موكب الباشا همت من بعيد، وقهقهه عاليا وهو يلقي نظرة على الجمالة وهم يملئون الغلقان وعلى الجمالة وهم يذهبون بها إلى مكان بعيد.

وثلاثة أيام وعينك ما تشوف إلا النور، والصول شاهين نازل ضرب في المعتقلين عمال على بطل، والشاويش الممرض وقف على أهبة الاستعداد لتضميد الجروح وتجبير العظام، وقلت لنفسي: إنها النهاية لا محالة وسنموت كلنا حتما وسندفن في رمال الواحات. ولكن لأن الحياة لا يثبت فيها شيء على حال فقد حدث بعد ثلاثة أيام ما هو أعجب من العجب وأغرب من الخيال.

الفصل الحادي عشر

ما حدث في ذلك الصباح كان بالفعل أغرب من الخيال. دخل حضرة الصول شاهين إلى العنبر كالثور الشرس. وعصاه الطويلة تشق له الطريق في زحام المعتقلين الذين انحشروا في سرداب السجن. ولم تشفع الصرخات والاستغاثات التي انطلقت من هنا وهناك في إقناع الصول شاهين بالإقلاع عن هوايته في كسر عظام المعتقلين.

حكايات الصول شاهين!

وتحت ضغط عصا الصول شاهين خرج المعتقلون إلى فناء السجن وجلسوا على الأرض كما اعتادوا.. الرءوس منكسة والعيون زائغة تترقب الضربات التي تأتيها من كل اتجاه وخرج الصول شاهين كالاعتاد وعصاه في يده والشتائم تنهال من فمه لاعنا «أبو الشيوعيين» الكفرة القتلة الذين يستحقون القتل والدفن في رمال الصحراء، وراح يطوح بعصاه ذات اليمين وذات اليسار باطحا رءوسا ومحطما ضلوعا بينما صبياناه من العساكر يفعلون نفس الشيء وبحماس أكبر من حماس شاهين.

كان المسرح على هيئته المعتادة كل صباح، عساكر مسلحون بالمدافع يحيطون بالفناء وعساكر مسلحون بالشوم نازلين عجب بالمعتقلين والصول شاهين يقود الفرقة الموسيقية بعصاه وبلسانه وبحدائه، شخص واحد فقط كان غائبا عن المسرح.. هو البيه المأمور.

كان من عادة البيه المأمور الوقوف عند باب الإدارة محاطا بعدد من الجنود يشاهد المنظر ويلقي أحيانا ببعض التعليمات. كان طويلا وعريضا وله هيئة ملاكم وصوته يرشحه ممثلا في المسلسلات الدينية

إياها التي يذيعها التليفزيون كل رمضان. وكان شديد الحزم شديد الحسم. ولكنه والحق أقول لم يتجاوز كثيرا كما فعل غيره من ضباط السجون في الفيوم وفي أبي زعل ويذكر له أنه لم يقتل أحدا من المعتقلين في سجن الواحات، بينما سقط أكثر من عشرة معتقلين قتلى في سجن أبي زعل.

المهم أن المأمور كان غائبا عن المسرح في هذا اليوم، لم يكن في مكانه الذي اعتاد الوقوف فيه ومن أجل هذا السبب ضاعف الصول شاهين ورجاله من نشاطهم في انتظار تشريف المأمور الذي لا بد أنه سيثني عليهم ويحمد لهم عملهم ، وقد يأمر بصرف مكافأة الشهر المقررة للمجيدين منهم، وهي جنيه مصري واحد لا غير ولكن هذا الجنيه الواحد كان كفيلا بإدخال السرور والحبور على السجانين. ومر الوقت دون أن يظهر للمأمور أثر.

وفجأة.. لمح الصول شاهين أحد العسكر قادم من بعيد يمشي مشية غير عسكرية وغير منضبطة وكأنه يعيش في عالم وحده لا علاقة له بسجن المحاريق. وانتصب الصول شاهين ونفخ صدره بالهواء الطلق. وصرخ صرخة عسكرية ناشفة وصاح بكل ما فيه من قوة.. أنت يا عسكري يا بايظ.. سريعا مارش. ولكن العسكري ظل على مشيته غير مبال بصرخة الصول شاهين الذي أعاد صرخته وكررها عدة مرات. وعندما اقترب العسكري من طابور المساجين البائس الجالس على الأرض تبينت أن العسكري القادم هو محمود الصيفي وهو عسكري خبير في ضرب عتاة المجرمين. وإلى الدرجة التي يجعلهم فيها أشبه بالمقعددين.

كان مأمور السجن يرسل دائما في طلب محمود الصيفي إذا أراد تأديب أحد كبار المشاغبين من المساجين. وكان محمود الصيفي ينقي العصي والشوم بعد تدقيق طويل: وكان يقرب العصي من أنفه ويشمها ويختبرها بأصابعه ويقبض عليها بيده ويهزها في الهواء ثم يعيدها إلى مكانها ويختبر أخرى حتى يعثر على العصي المنشودة.

رأته مرة يضرب مجرما من أبناء الإسكندرية كان دائم الاعتداد بقوته وكان في شجار دائم مع المساجين ومع الحرس. وكان الجميع يخشونه ويعملون حسابا له، وذات صباح ضرب أحد الصولات العواجيز بقبضة يده ونطحه برأسه في وجهه. وانتهت المعركة الخاطفة بنقل الصول العجوز إلى مستشفى الواحات. وهناك تقرر نقله إلى مستشفى أسيوط لإجراء عملية تربنة، ولم يقدر لهذا الصول العودة مرة أخرى لسجن الواحات وأعتقد أن النطحة أجبرته على الاعتزال.

المهم أنني شاهدت محمود الصيفي يضرب المسجون الإسكندراني بالشومة على كعوب قدميه، وبعد خمس ضربات فقد النطق وبعد انتهاء الضرب فقد الرشد وسحلوه من رجله إلى زنزانة التأديب. وقضى الفتوة الإسكندراني شهرا بعد العلكة يزحف على ركبتيه. وعندما رأته واقفا على قدميه لم يكن هو نفس الشخص الذي كنت أعرفه من قبل!

على العموم هذه قصة جانبية لكي تتعرفوا على محمود الصيفي الذي جاء يتبختر في مشيته على الرغم من صرخات الصول شاهين. وبالرغم من اقتراب الصيفي من موقع الصول شاهين إلا أنه ظل على مشيته المترنحة وكأنه سكران أو مسطول، وعاد الصول شاهين

يصرخ من جديد وقد برزت عروقه وانتفخت أوداجه وتناثر رذاذه.
ولكن محمود الصيفي رد على الصول شاهين بلهجة ساخرة.. يا
راجل بطل حزنك ليطلق لك عرق. وارتبك الصول شاهين في البداية
ثم استعاد هيئته كقائد عظيم. وشخط في الصيفي شخطة عنترية..
أنت كنت فين يا عسكري؟ ورد الصيفي بنفس اللهجة وهو يمشي
نفس المشية.. كنت في المحطة. وقال شاهين وكنت في المحطة بتعمل
إيه؟ ورد الصيفي كنت باوصل سعادة الباشا، يقصد اللواء إسما عيل
همت الذي جاء لحضور حفلة التعذيب، وقال شاهين وقد غير من
لهجته قليلا.. هو الباشا سافر؟ ورد الصيفي قائلاً: أهو غار في داهية.
وقال شاهين.. أنت متأكد؟ ورد الصيفي.. أنا اللي معاه من الساعة ٦
الصبح ومركبه القطر وفضلت واقف في المحطة لحد القطر ما أخذه
وغار في داهية.

كان الصيفي قد أصبح على بعد خطوة واحدة من شاهين عندما
سأله شاهين للمرة الأخيرة.. أنت متأكد أن الباشا مشى؟ وقال
الصيفي وهو يشوح بيده في وجه شاهين.. إحنا اللي ح نقوله نعيده.
وارتكز شاهين بعصاه على الأرض، ثم قام بترقيص وسطه في حركة
بارعة أشبه بحركة تحية كاريوكا في صباها وهتف بأعلى صوته..
اعوجها.. ثم ضرب الأرض بعصاه وقال: قوموا يا شيوعية يا أولاد
الكلب خلاص الرواية خلصت ملعون أبو الباشا لا بو اللي جابه دي
كانت أيام غم.

لم نصدق في بادئ الأمر أن هذا هو نفسه الصول شاهين الذي
أذاقنا العذاب لمدة أسبوع كامل، حتى تصورنا أننا في معسكر نازي

وأنا سنسقط صرعى تحت ضربات عصي الصول شاهين وفريقه من السجانة الميامين.

ها هو ذا شاهين يسفر عن وجهه الحقيقي في لحظة درامية نادرة فإذا به مصري أصيل. موقف شاهين هذا يثبت أننا لسنا آريين ولكننا مصريون وعرب ولسنا هواة تعذيب ولكنها الأوامر ورغبة المسؤولين، فإذا ما سافر المسئول وغادر مسرح الأحداث، عاد الإنسان المصري إلى طبيعته وسقطت الحواجز والفروق بين السجانة والمسجونين.

نسيت أن أقول لكم إن الصول شاهين لم يكن سجانا عاديا. فقد كان طويلا وعريضا ووجهه أحمر كأنه إنجليزي أو تركي من بلاد الأناضول وكان شديد الشبه بالملك فؤاد. وكان دائم الحديث عن عائلة شاهين التي ينحدر منها والتي أنجبت اللواء على شاهين حكمدار البوليس، واللواء سيد شاهين قائد حملة فلسطين، ولم يكن في فلسطين قائد بهذا الاسم.. وأحمد شاهين العمدة، كان يكتفي بذكر كلمة العمدة ولكنه لا يذكر القرية التي كان عمدة عليها، وكان يحكي عن أيامه الأولى في الأزهر وعن والده الذي يصر على أن يكون ولده شاهين من رجال الدين. ولم يكن باستطاعته أن يحقق رغبة أبيه، لذلك اضطر شاهين إلى الهروب من البيت ومن الأزهر والتحق بالجيش، ثم خرج من الجيش والتحق بخدمة السجون. وهو صول منذ عشر سنوات، وفاته الدور ليحمل رتبة الضابط، وبالرغم من أن الرتبة من حقه إلا أن اللوائيات يرفضون، لأن منظره أفضل من منظر أي لواء في المصلحة لذلك يحقدون عليه ويكيدون له ويمنعون عنه رتبة الضابط التي يستحقها منذ سنتين. ولكن شاهين لن يرضخ

ولن يتنازل وسيظل يطالب بحقه في رتبة الضابط حتى يحصل عليها أو يموت.

وخرجنا ذلك الصباح مع عم شاهين إلى الجبل ولكن على نحو مختلف عن أي يوم سابق قطعنا الطريق إلى الجبل في جماعات ونحن ندردش ونضحك حتى وصلنا إلى موقع العمل.. وقال شاهين للمعتقلين: انتشروا في الجبل واشتغلوا على مهلكم بس ساعة الضابط ما يبجي اشتغلوا بحق وحقيقي وأنا ح أنام شوية هنا واختار المعتقلون مجموعة من بينهم لمراقبة الطريق وحتى لا يفاجئنا المأمور بالزيارة ووقع الاختيار على العبد لله لتسلية عم شاهين برواية القصص والحكايات التي تساعد على النوم العميق وتوطدت صلة العبد لله بالصول شاهين.

كان من قرية تجاوز قرينتنا وكان كلما ذكر لي اسم أحد أقاربه من الأعيان أكدت له معرفتي به ورحت أمدح في خصاله وأعدد أياديه البيضاء.. وكان يبدو سعيدا كلما أسهبت في مدح عائلته التي ليس لها وجود. وكنت أحكي له عن سفرياتي خارج مصر. عن مغامراتي في لندن وباريس والدار البيضاء ومدريد، عن شطحاتي في روما وأثينا وبירות، عن جولاتي في تونس ودمشق والخرطوم. عن سهراتي في فينا وجنيف وبرلين. وعندما انتهى كشف البلدان التي زرتها. رحلت أحكي له عن مغامراتي في «ريودي جانيرو» ولا باز وفي غابات الفلبين، وكان الصول شاهين يستمع إلي في شغف ويطالبني بالمزيد.

والحق أقول إنني لم أتردد في تأدية المهمة ولم أقصر في أداء عملي الذي كلفوني به. فرحت أطوف مع الصول شاهين في كل أرجاء

الأرض الواسعة حكيت له عن جزيرة بالي وجزر هاواي وجزيرة
ماكاو وعندما انتهت الأسماء الموجودة على خريطة العالم، رحت
أخترع أسماء من عندي، وعندما خيل إلي أنني أحكمت السيطرة على
عقل الصول شاهين.. وجدت نفسي واقعا في مطب لم أستطع الخروج
منه إلا بصعوبة شديدة. فبعد شهرين من الحديث عن البلاد التي
زرتها والبلاد التي لم أزرها.. سألني شاهين فجأة مارحتش يأجوج
ومأجوج؟ وقلت له دون وعي.. إيه يأجوج ومأجوج؟ واستفزه
سؤالي فسألني في حدة ما تعرفش يأجوج ومأجوج؟ ثم قال وكأنه
يحدث نفسه.. طبعا ما انت شيوعي وابن كلب.. يأجوج ومأجوج
مذكورة في القرآن.. ولم أجد ما أقوله لشاهين فتوقفت عن الكلام
واكتفيت بالتحديق في وجهه.. وراح شاهين يتكلم وكأنه يخطب..
تقدر تقوللي ماروحتش يأجوج ومأجوج ليه؟ أهو انت لفيت الدنيا
كلها. تقدر تنكر أنك شيوعي وتستهال الحرق أنا مش فاهم الناس
إلي ربنا أداها عقول زيكم واتعلموا تبقوا شيوخين إزاي؟ تصدق
بالله أنا كان قلبي انفتح لك لكن أنت ملعون وتستحق الحرق.
وقلت للصول شاهين وكأنني أعتذر عن سوء الفهم.. يا حضرة
الصول شاهين أنا عاوزك تعذرني وتفهم موقفني.. أنا فعلا مازرتش
يأجوج ومأجوج بس ده حصل غصب عني.. أنا كنت عاوز أروح
بس هم مارضيوش..

وحدق شاهين في عيني ثم قال.. أنت ح تاكل بعقلي حلاوة فاكرني
فلاح مختوم على قفايا واللا فلاح مابافهمش.. يعني إيه مارضيوش..
أنت مش سافرت كل البلاد دي.. اشمعني دول رضيوا؟ وقلت
للصول شاهين.. يا حضرة الصول شاهين أنت راجل صول وتفهم

في الحاجات دي.. مش كل واحد عاوز يسافر بلد بيطلب فيزا منها.. ورد الصول شاهين.. طبعا ما احنا عارفين الحاجات دي.. قلت له: أهو أنا طلبت فيزا أكثر من مرة مارضيوش.. قال شاهين وهو يضرب فخده بيده.. تعرف تقوللي ليه ما رضيوش؟ وبعد فترة صمت تعمدت أن تكون طويلة بعض الشيء.. قلت للصول شاهين: ما رضيوش علشان كانوا فاهمين أنى أنا شيوعي.. وقال شاهين وهو ينظر نحوي في غيظ.. يعني انت ما انتش شيوعي؟ وأجبتة.. لا أنا كنت شيوعي يا عم شاهين لكن ربنا تاب علي.. وكل واحد بيغلط في شبابه واهي غلطة والحمد لله خلصنا منها.. وبدأ الارتياح على وجه الصول شاهين وفرد ساقه وهو جالس على قمة التل ثم قال.. ثاني مرة إياك تكذب علي.. ثم فتح زرار جيبه الأعلى وأخرج نصف سيجارة وناولها لي وقال للعبد لله.. أنا حايش لك دي في جيبى من إمبراح علشان تعرف أنا باعزك قد إيه ودي سيجارة البيه المأمور نفسه كان بيشرّب فيها إمبراح وطفاهها كبيرة كده.. قلت أخذها للواد محمود.. ولعها واشربها في السر وعمر دماغك علشان تحكي لي على اللي شوفته في الجزيرة اللي ع البحر.. هي اسمها إيه؟ سألته جزيرة ماكاو؟ فقال شاهين لا مش دي.. هونج كونج.. لا مش دي.. بالي.. لا مش دي.. هاواي.. أيوه الهواتي دي.. مش دي اللي فيها النسوان زلط ملط.. أيوه هي دي يا عم شاهين.. طيب احكي لي بقى أول ما ننزل من الطائرة يحصل أيه بقى؟

ورحت أحكي للصول شاهين حكايات ما أنزل الله بها من سلطان وهو يستمع بشغف ويبدو على وجهه الارتياح الشديد ولم يلبث شاهين أن أراح رأسه على الوسادة التي صنعها من معطفه الميرى

السميك وسرعان ما ارتفع شخير في الفضاء وحمدت الله على مرور الأزمة مع شاهين بسلام. فبفضل هذه القصص والروايات التي أروىها له حصل المساجين على قسط كبير من الراحة أثناء العمل في الجبل.. بل سمحت لهم بالجلوس والدخول في مناقشات وحوارات وأصبح العمل في الجبل إجازة مفتوحة للجميع، كما كانت فرصة للعبد لله للحصول على بعض الأعقاب الممتازة التي يدخنها البهيم المأمور شخصيا.. ودعوت الله أن يجنبني الوقوع في مطب آخر شبيه بمطب ياجوج وماجوج، ولكن شاءت الأقدار أن أقع في مطب آخر كان كفيلا بوضع حد لعلاقتي بالصول شاهين.

كنا نجلس كالمعتاد على قمة التل وكنت أحكي وكان يستمع وكان حديثي في ذلك الصباح عن أستراليا التي لم أزرها حتى الآن. وعندما سألني عن أفضل أكلة تناولتها في أستراليا رحت أحكي له عن طاجن لحم الكانجرو ثم أسهبت في الحديث عن الكانجرو وكيف أنه يجري على قدميه الخلفيتين فقط ويضع أبنائه في كيس داخل بطنه وهو حيوان نظيف لأنه لا يأكل إلا الحشائش ولكن الصول شاهين قطع حديثي فجأة وسألني ما عندهم فول؟ وأجبتهم طبعاً.. بس الفول هناك بيأكلوه للبهائم وقال شاهين يعني أنت قصدك تقول إننا بهائم علشان بناكل الفول هنا. وقلت للصول شاهين.. بالعكس.. ده هم اللي بهائم مش عارفين قيمة الفول. وارتاح عم شاهين لجوابي. وانتقلت بالحديث من طاجن الكانجرو إلى لحم التمساح المسلوق. وكنت قد قرأت في إحدى المجلات أن الشعب الأسترالي يأكل لحم التماسيح الصغيرة مسلوقة ويعجب به كثيراً. ولكن شاهين بصق على

وجهي وهتف في غضب شديد.. الله يقر فك خلّيت معدتي لعبت..
حد ياكل التماسيح يا ضلالي؟ فقلت له.. مش أنا اللي باكل التماسيح
يا عم شاهين.. الله يقر فهم.. ده أنا حتى أسمع أن الأسترالي ده زي
البغل اوعى ياوله تكون أكلت التماسيح دي؟ وقلت معقول يا عم
شاهين أنا آكل تماسيح أنا آكل ملوخية آكل مسقعة آكل بامية باللحمة
الضاني.. وصرخ شاهين في غضب ما تفكرناش بقى.. إحنا بقى لنا
٦ شهور هنا بناكل خره.. الله يلعن أبو السجن لأبو اللي اخترعوه،
وسادت فترة من الصمت بيننا أشعلت فيها أحد الأعقاب التي
حصلت عليها.

عندما اقترب من موقعنا المهندس فوزي حبشي في ثياب السجن
المهلهلة وكان من عاداته العمل طول النهار في الجبل بشكل جاد للغاية
كأنه يؤدي واجبا لا بد من تأديته وكان التراب قد علا وجهه وغطى
ملابسه الرثة بينما امتزجت قدماه العاريتان بالطين ونظرت طويلا إلى
المهندس فوزي حبشي وهو يعبر الطريق تحت التل سألني الصول
مشيرا بإصبعه نحو المهندس حبشي.. الواد ده بيشتغل إيه؟ وأجبت
ده مهندس كبير قوي يا عم شاهين وموظف كبير في الحكومة.. وعاد
الصول شاهين ينظر إلى المهندس حبشي ثم سألني.. يعني بياخذ كام
في الشهر؟ وأجبت.. يأخذ ١٥٠ جنيها في الشهر. وقبل أن أكمل
العبرة كانت قدم شاهين التي هي في حجم كنية بلدي إسطنبولي
تندفع نحو صدري وإذا بالعبد لله يتدحرج من فوق التل إلى السفح
وكأنني جلمود صخر عمنا امرئ القيس.. حطه السيل من عل! وقال
لي: الصول شاهين وأنا أحاول صعود التل.. تعرف لو طلعت هنا ح

اقتلك.. أنت واد لئيم وفاهم إن أنا حمار.. بقى ده بياخد ١٥٠ جنيه
في الشهر؟ إذا كان البيه المأمور بتاعنا بياخد ٥٠ جنيهها وإلا أنت فاهم
إن أنا طور..

وعلمتني قدم الصول شاهين التريث فقد سألني عدة مرات بعد
ذلك عن مرتبات البعض من المعتقلين وكنت حريصا على عدم تجاوز
مبلغ الأربعين جنيها باعتبار أن مرتب البيه المأمور خمسون جنيها كما
قرر الصول شاهين ومرت أيامي بعد ذلك سهلة مع الصول شاهين
حتى جاء الضابط عثمان ذات صباح واختار عددا من المعتقلين
وخصصهم لإحضار الماء من نبع يبعد ثلاثة كيلو مترات عن مكان
العمل. وهكذا انتهت مهمتي مع الصول شاهين وأصبحت عضوا
في فرقة جلب المياه لزوم سقاية المعتقلين.. وكان بين أفراد الفرقة
النائب أحمد طه عضو مجلس الأمة عن دائرة روض الفرج وأحمد
شوقي عبد الهادي الشهير بالصاعقة وآخرون.. وفي أول يوم ذهبنا
فيه لإحضار المياه في جرادل قدرة مثقوبة اكتشفنا أن المياه التي ذهبنا
لإحضارها ليست من نبع ولا من بئر ولكنها من بركة آسنة وقدرة
ومئات من العقارب الحديثة الولادة تسبح على وجه البركة وتتلعبط
داخل الجرادل. ومع ذلك كان علينا أن نشرب من هذا الماء أو نموت
عطشا في صحراء الواحات.

الفصل الثاني عشر

كان العمل في فرقة جلب المياه فرصة لالتقاط الأنفاس من جحيم الواحات. فقد كانت البركة الآسنة التي نستقي منها تبعد ثلاثة كيلو مترات عن مكان العمل وكنا نذهب إليها في سيارة السجن إذا تيسرت، ولكن هذا الآن يحدث مرة واحدة كل أسبوع، وكان علينا أن نذهب مشيا على الأقدام. وبالرغم من الحفاء والملابس الرثة والجوع الذي يفري الأمعاء كنت أشعر بأنها نزهة خلوية تجلب الراحة للأعصاب.

معركة السبارس!

و ذات يوم عثرت على قطعة صغيرة أصغر من مشط الكبريت من مرآة محطمة وعندما شاهدت نفسي فيها انتابني نوع حقيقي من الدهول. كان شعر رأسي قد طال فغطى قفائي، وأذني، وكان شعر ذقني طويلا كأنني فرد في جماعات الإرهاب.. وظهرت هنا وهناك شعيرات بيضاء بالرغم من أنني كنت في شرخ الشباب. ونهرني الشاويش عم أحمد طريشة ونزع قطعة المرآة من بين أصابعي بقسوة باعتبارها سلاحا. ولكن منظري في المرآة جعلني أسرح بعيدا عن المكان والزمان تخيلت نفسي مجنون ليلي عندما سرح في بيداء نجد. وتخيلت نفسي أحد الخوارج الذين هاموا على وجوههم بعد كسرتهم. وتقمصت الشخصية الجديدة بعد أن انتابني يقين لا يقبل الشك أنني لست محمود السعدني وأن العصر الذي نعيشه ليس هو القرن العشرين.

وفي اليوم التالي قطعت منطقة العمل وجردل الماء في يساري وعصا طويلة كانت في الأصل فرع شجرة في يميني. ورحت أصبح وسط جموع المعتقلين هنا وهناك.. صوت صارخ في البرية، أعدوا

طريق الرب مهدوا سبله مستقيمة. وكان بعض المعتقلين يصيحون بي.. تفضل يا أيها السيد. ولكنني كنت أكتفي بالتلويح لهم بالعصا من بعيد، وخيل إليّ في بعض اللحظات أنني جنت بالفعل، خصوصا أن الجرب كان قد استبد بجميع المعتقلين، ورحنا نهرش بأظافرنا وبكل الأدوات المتوافرة في أيدينا من طوب وفروع شجر.

و ذات يوم حار شديد الحرارة أحسست بأنني في حاجة إلى سيجارة ولكن كيف الحصول على السيجارة والحصول على كنوز سليمان أسهل منها بكثير. كانت السجائر ممنوعة والشاي رجس من عمل الشيطان وعلى جميع المعتقلين أن يتجنبوه. ولكن اشتياقي للسيجارة كان أقوى من كل شيء وكان لا بد من البحث عن حل، بعدما حرمتني التنقلات الأخيرة من سبارس عم شاهين. وأخيرا جاء الحل عندما أصدرت أمرا لحزب زمش وفي جلسة تاريخية ضمت إبراهيم العطار وشوقي الصاعقة وعبد الموجود أبو زيد وعباس الديكي بجمع أعقاب السجائر وإعادة تصنيعها.

والحق أقول إن حزب زمش أبلى بلاء حسنا في هذه الموقعة وانطلق أعضاء الحزب يجمعون السبارس بكفاءة منقطعة النظير، وكان أخلصهم وأكثرهم نصالا هو شوقي الصاعقة الذي اكتسب اسمه الصاعقة في هذه المعركة التاريخية، حيث كان ينقض على عقب السيجارة كالصاعقة، ولا يصدده عن ذلك صفعات العسكر أو شلايت البيه المأمور، لدرجة أنه كاد يفقد حياته ذات يوم عندما أرسل المأمور أحد الضباط إلى العنبر بعد التهام طالبا من المعتقلين الذين لهم شكاوى أو مطالب لدى الإدارة أن يحضروا فوراً لمقابلة

البيه المأمور، ولم تكن الدعوة صحيحة ولكنها كانت فخا لاصطياد مندوبي الأحزاب الشيوعية وضربهم علقه ساخنة بسبب اختراقهم حاجز الأمن المفروض على السجن، ونجاحهم في الحصول على رسالة هامة أرسلتها قيادة الحزب الشيوعي من القاهرة.

ولما كان الشيوعيون المعتقلون يخضعون للانضباط فقد توقع المأمور أن الذين سيخرجون لعرض الشكاوى هم مندوبو الحياة العامة وهم الذين يريدون المأمور على وجه التحديد. وكان المأمور قد أعد مسرح عمليات خلف مكتبه، وفي مساحة واسعة حشد فيها أكثر من ثلاثين جنديا تسلحوا بالعصي والشوم وجريد النخل. والذي حدث أن مندوبي الحياة العامة خرجوا تلبية لدعوة الضابط وهم سيد عبد الله وفوزي حبش من الحزب الشيوعي المصري ومحمود المانسترلي عن حزب طش وخرج معهم مندوب حدتو عبد العزيز بيومي، وتحت إلحاح شوقي الصاعقة وتوسله للضابط بأن يأخذه للبيه المأمور لأن لديه شكوى مهمة للغاية وافق الضابط فخرج الصاعقة من الزنزانة وانضم إلى وفد المندوبين. ولم يكن لدى الصاعقة شكوى من أي نوع ولكنه رأى أنها فرصة ذهبية لكي يجمع ما يتيسر من الأعقاب من الحوش الذي خلا من المعتقلين.

وعندما خرج الضابط ومن خلفه أعضاء الوفد من الباب الرئيسي للعنبر اتجه الجميع يسارا إلى مكتب المأمور واتجه الصاعقة عكس الاتجاه فذهب يمينا ليتفرغ لجمع الأعقاب. وكان المأمور فريد شنيشن يقف على باب الإدارة بقامته المديدة وجسمه الضخم. وارتاب في الحركة التي قام بها الصاعقة وظن أنه في طريقه إلى الهرب فصرخ فيه صرخة

جعلت قلب الصاعقة يهبط إلى ركبته. وجعلته يعدو مسرعا في اتجاه البية المأمور ولما كان المأمور لا يريده ولا يسعى إلى تأديبه فقد نهره بشدة وأمره بالعودة إلى العنبر قائلا له في حزم: ارجع يا غبي. وحمد الصاعقة ربه على السلامة وعاد إلى العنبر وإلى الزنزانة. وسألناه عما حدث، فأجاب بأنه غير محظوظ لأن الحوش عامر بأعقاب السجائر ولكن المأمور لمحّه فعطله عن أداء المهمة فاضطر إلى العودة إلينا ويده فارغتان كما خرج.

عندما وصل الضابط ووفد المندوبين إلى حيث يقف البية المأمور.. صاح المأمور في وجه مندوب حدثو المحامي عبد العزيز بيومي قائلا: ارجع يا طور! ووقف عبد العزيز بيومي حائرا لعدة ثوان ولكن المأمور أعاد الصرخة فاستدار عبد العزيز وعاد بأقصى سرعة إلى العنبر وسألته من خلال فتحة الباب عما جرى فحكى لي قصته مع المأمور وصرخته في وجهه ارجع يا طور.. فقلت له.. يا خبر اسودده السجن مليون جواسيس، وسألني عبد العزيز ليه؟! وأجبتة.. عرف منين أنك طور؟ مش لازم حد يبيلغ.. ضحك عبد العزيز وانصرف إلى زنزانته أسفا لأنه لم يتمكن من عرض مطالب حزبه على البية المأمور. ولكن ما حدث بعد ذلك للمندوبين الثلاثة يحتاج إلى فرقة خضرة الشريفة لكي تندب حظهم السيئ في ملحمة ولا ملحمة سعد اليتيم.. فما كادوا يفتحون المناقشة مع المأمور حتى كبس عليهم العسكر وهات يا طحن من الساعة السادسة حتى الساعة الثامنة مساء.. والذي أطال وقت المعركة هو إصرار العساكر على إسقاط محمود المانستري على الأرض ولكنه استعصى عليهم كما أنهم فشلوا في ذلك. وعندما

ذهبت في الصباح الباكر لزيارتهم في مستشفى السجن لم أتعرف على محمود المانستري فقد تحول إلى كتلة من اللحم الأزرق والدم!

المهم أن حزب زمش استطاع أن يجمع في أول يوم أكثر من عشرين عقبا أغلبها لسجائر ملفوفة باليد، وهي سجائر نحيلة ونحيفة ومسلولة ولكن الصاعقة استطاع أن يعيد تصنيعها مما أتاح لنا الحصول على أربع سجائر لا بأس بها. واجتمعت اللجنة المركزية لحزب زمش والمكونة من العبد لله وإبراهيم العطار واستمتعنا بتدخين سيجارتين وحدنا ثم شاركنا الشغيلة فيما تبقى من سجائر. وكاد شوقي الصاعقة يثور على القيادة ولكني قمعته بشدة، وبعد خمسة أيام من بدء النظام الجديد جمعنا خمسين عقبا مما أتاح لنا إعادة توزيع الدخل بشكل أرضى الشغيلة وأرضى القيادة معا. ولكني فوجئت في اليوم الثالث ونحن جلوس تحت شجرة خروج نبتت بشكل شيطاني في الصحراء.

أقول فوجئت باثنين من غلاة الحنجوري حضرا من أجل حوار هام وحيوي وخطير مع زمش. وتكلم أحدهما فركز على ضرورة مراعاة الانضباط أثناء الاعتقال والظهور بالتماسك أمام الإدارة أو التظاهر بذلك، حيث إن المعركة في الحقيقة هي صراع إرادات بين الإدارة والمعتقلين. وبعد محاضرة طويلة عريضة قال الزميل الحنجوري: إن المسألة تحتاج إلى مراجعة وإلى إعادة تفكير. وعندما سألته عن المسألة التي يقصدها.. رد قائلا.. مسألة أعقاب السجائر التي يجمعها أفراد زمش من الحوش ومن الصحراء، وقال السيد الحنجوري.. إنك كاتب معروف ومن الواجب أن تكف عن تدخين السجائر إذا

كان تدخينها عن هذا الطريق. وقلت للسيد الحنجوري.. أنا كاتب معروف وأرغب رغبة شديدة في تدخين السجائر وليس هناك سبيل لتدخينها إلا عن هذا الطريق، كما أنك أنت الآن أيها الرفيق تدخن هذه السيجارة التي أعطيتها لك عن هذا الطريق وزميلك أيضا شفط عدة أنفاس عميقة عن هذا الطريق، فهل العيب في رأي الرفاق هو عملية جمعها أم عملية تدخينها؟

وضحك الرفيق وهو يقول.. أنت كل حاجة تقلبها هزار! وقلت للرفيق الحنجوري وأين الهزار في هذا الأمر؟ لقد قمنا بجمع أعقاب وأنت قمت بتدخينها، وهو أمر يؤكد أننا أكثر شيوعية من سيادتك لأننا ندخن ما قمنا بجمعه بأيدينا، أما سيادتك فبرجوازي تدخن ما جمعه العمال أمثالنا.

وتظاهر الرفيق الحنجوري بأنه لم يسمع كلماتي واستاذن منصرفا وهو يرجو أن نعيد التفكير في هذه المسألة. وتكررت زيارات الرفاق في الأيام التالية. جاء في اليوم التالي أربعة من الرفاق وزاد العدد حتى وصل إلى عشرة رفاق.

والحق أقول إنهم كانوا يدخنون بشراهة أثناء الاجتماعات واكتشفت بعد ذلك أن شوقي الصاعقة وهو غير منضبط حزبيا قد عمد إلى دس أعشاب وورق شجر وقليل من التراب في السجائر التي كان يلفها لنا أثناء احتدام الحوار. ولكن الزيارات توقفت بعد ذلك عندما اضطر الحزب إلى إصدار أمر إلى جميع الرفاق بالتصرف حسب ظروف كل منهم والسماح بجمع الأعقاب إذا كان التدخين سيخفف عنهم بعض متاعب السجن الرهيبة.

وهكذا انتصرت زمش في معركة السبارس واتضح للجميع أن خطنا السياسي كان هو الخط الصحيح. ولكن هذه النهاية التي انتهت إليها معركة السبارس كانت وبالا علينا فقد كثر عدد الذين يجمعون الأعقاب مما أدى إلى خفض دخلنا القومي. وبعد أن كنا ندخن كل يوم ما بين سبع وعشر سجائر هبط العدد إلى ثلاث سجائر. وكنت أحيانا أشد نفسا وأنا أدخن السيجارة، ثم أتذكر فجأة أن للعبد لله رفاقا في حزب زمش ولكن هذا كان يحدث دائما في الوقت غير المناسب. وعندما تصبح السيجارة مجرد عقب يلهب الأصابع كنت أقدمها للصاعقة ولكنه كان يتنازل عنها بطيب خاطر باعتباري القائد الضرورة الرئيس المؤسس والزعيم الملهم لحزب زمش، أو هذا هو الذي تصورته من موقف الصاعقة.

ولقد اكتشفت بعد ذلك أنه كان يقوم بحركة خيانة حزبية يستحق عليها الفصل. وأنه كان يسلم الحزب ثلاث سجائر باعتبارها حصيلة اليوم بينما كان يدخن لنفسه سيجارتين على الأقل غير الأعقاب التي كان يدخنها في موقع الأحداث ومن التراب إلى فمه على الفور. وفكرت في فصله من الحزب بالفعل ولكنني ترددت في اتخاذ القرار لأن فصل الصاعقه كان سيؤدي إلى شرخ حزبي لا تحمد عقباه.

وقد حدث ذات مساء حادث غريب للغاية.. كنا قد دخلنا إلى الزنازين بعد يوم عمل شاق عندما أخرج أعضاء الحزب حصيلتهم من الأعقاب وانهمك الصاعقة في إعدادها وإعادة تصنيعها وابتهجنا جميعا عندما اكتشفنا أن حصيلة اليوم خمس سجائر ملفوفة بإتقان، وبعد مداولات حزبية شاقة قررنا أن ندخن سيجارة واحدة قبل

تناول العشاء ثم سيجارة بعد العشاء مباشرة، ثم ندخن بقية السجائر في السهرة.. ولكن حدث قبل أن نشعل السيجارة الأولى أن اقتحم العنبر عدد كبير من العساكر وهم يصرخون صرخات أشبه بصرخات المحاربين الأشاوس وهم يقتحمون موقعا للأعداء في حرب أم المارك. ثم سمعنا صوت أبواب تفتح ووقع ضربات مكتومة أشبه بعملية تنظيف سجادة أو تنجيد مرتبة ثم صرخات شديدة لا نعرف مصدرها. وقام الصاعقة مسرعا يبحث عن مكان لإخفاء السجائر فيه فقد توقع شرا بغريزته المذعورة، ولكنه لم يجد مكانا يخفي فيه السجائر إلا جردل البول فألقاها فيه. ولم يكذ يفعل ذلك حتى اقتحم الزنازة عشرة جنود أشداء ومعهم شوم من النوع الصلب وهات ياطحن في أي مكان وفي كل مكان. وبعد ربع الساعة من الضرب المتواصل تركنا الجنود وانصرفوا ليدخلوا زنازة مجاورة. وبعد أن انتهوا من ضرب جميع المعتقلين، اكتشفت أن ذراعي مكسورة. وسبب كسر ذراعي هو غلطة ارتكبتها بغير قصد.

كان الذي يتولى طحن العبد لله شاوئش من العصر الحجري اسمه متى، كان في الستين من عمره ولكنه كان يتمتع بصحة شاب في العشرين، وعندما بدأ يضربني بقسوة قلت له صارخا.. ليه يا عم متى.. انت بتضرب ليه يا عم متى؟ ولكن متى استبد به جنون مفاجئ وراح يضرب بقسوة وبعنف واعتذر لي في اليوم التالي وقال لي.. انت السبب في اللي جرى لك، تقولي يا عم متى قدام البيه المأمور.. أيه يا عم متى دي؟ إحنا أصحاب بقى.. لازم تلتزم النظام قدام البيه المأمور تقولي يا افندي أو يا حضرة الشاوئش.. هو ده النظام.. مفهوم آمال متعلمين أيه ده انتم ولا اللي جاين من ورا الجاموسة!

المهم أن البية المأمور مر بعد العلقه وجمع المكسورين من جميع الزنازين وجاء بالطبيب لتجبير الكسور. ووقفنا في طابور طويل، بينما جلس المأمور على مقعد مريح ومن خلفه جنديان. وعندما أصبحت في مواجهة المأمور سألني سؤالاً مفاجئاً.. أنت انكسرت؟ فلما أجبته بالإيجاب.. قال.. أحسن علشان تبطل تبقى شيوعي.. وعندما قلت له إنني لم أكن شيوعياً في أي وقت.. قال متهمك.. أيوه كلكم بتقولوا الكلام ده هنا.. ولكن عبد الستار الطويلة الذي كان يقف ورأى مباشرة تدخل في الحديث بدون مناسبة وقال للمأمور.. لا هو مش شيوعي وهو بيقول لك الصدق.. السعدني برجوازي وطني شريف.. وسأله المأمور.. وانت كمان زيه كده؟ ورد عبد الستار الطويلة.. لا أنا عضو في الحزب الشيوعي المصري. وقال له المأمور.. وانكسرت؟ فرد عبد الستار: أيوه أنا عندي كسرين في ذراعي.. وأجابه المأمور.. تستاهل.. الدور الجاي هاكسر رقبتك إن شاء الله.

وانتهت عملية التجبير عند منتصف الليل ودخلنا إلى الزنزانة.. واكتشفت أن الصاعقة مشغول بتجفيف السجائر التي غاصت في جردل البول. كان الدخان مبللاً وتفوح منه رائحة نتنة وكان يحاول تخفيفها بالتهوية عليها بقطعة قماش في يده، وقلت له مستنكراً هاتدخن السجائر اللي فيها بول؟ ورد قائلاً وأيه يعني.. ما احنا شربنا البول. ومرت أيام كثيرة بعد ذلك لم نغادر الزنزانة لقد حبسنا داخلها عدة أيام ومارس العساكر ضدنا هواياتهم في تعذيب الناس فكانوا يأمرونا بالوقوف طول الوقت ووجوهنا للحائط وكانوا يقدمون الطعام لنا قبل أن ينضج وبدون ملح ورفضوا إعطاءنا أي دواء لمكافحة الجرب الذي أكل جلودنا وسلب النوم من أعيننا. ومرض

الصاعقة مرضا خطيرا وكاد يموت ولكنني اكتشفت أن مرضه لم يكن بسبب عدوى أصابته ولكن لأنهم حرموه من تدخين السبارس وكان المرض أهون لديه من حرمانه من الشاي والدخان وبعد أن انقضى أسبوع كامل ونحن في الحبس الإجباري جاء الفرج وسمحوا لنا بالخروج وعدنا إلى الجبل نشترك في تعمير الصحراء ونقطع ثلاثة كيلو مترات على الأقدام لكي نأتي بمياه تسبح على وجهها صغار العقارب ونجمع السبارس لكي نعيد تصنيعها ونحولها إلى سجائر ولنكتشف أن السبب في العلة والتكديرة وفي حرماننا من الشمس والهواء والسبارس هو عضو قيادي في حزب طليعة الشيوعيين اسمه مجدي حمدان وهو من عائلة ثرية وقوية ويبدو أنه دخل الحركة الشيوعية من باب الوجاهة والفشخرة وتقدم في صفوف الحزب حتى وصل إلى اللجنة المركزية، ولكنه انهار في سجن الواحات وقرر أن يفعل أي شيء لكي ينجو بنفسه من هذا الجحيم، وكان الحزب الذي ينتمي إليه الرفيق حمدان قد تلقى خطابا من قيادة الحزب في القاهرة عن طريق موظف في السجن. وكان عدد الذين اطلعوا على الخطاب ثلاثة فقط من اللجنة المركزية، وكان حمدان أحدهم. وبعد عشر دقائق من فتح الرسالة كان خبرها قد وصل إلى البية المأمور وكانت هي السبب في العلة والتكديرة.

المهم أنه عندما انكشف أمره وقع عليه اعتداء من بعض المعتقلين وكان الناقد إبراهيم فتحي أحد الذين اعتدوا عليه وسبوه سبا شديدا وفضحوه. مما اضطر الإدارة في النهاية إلى نقله من عنبر الشيوعيين إلى عنبر الإخوان المسلمين.. وأسكنوه في زنزانة انفرادية.

وبالرغم من الخدمات الكبيرة التي قدمها لهم إلا أنهم لم يفرجوا عنه إلا في الدفعة الأخيرة وبعد خمس سنوات طويلة في المعتقل الرهيب، وأغرب شيء أنه عندما غادر المعتقل قرر أن يعتزل السياسة وأن يتعد عن طريق الرفاق وذهب لقضاء الصيف في مدينته الساحلية وبعد أسبوع قضاءه على الشاطئ كان يحتفل مع بعض الأصدقاء بعيد ميلاده الأربعين وبعد أن أكلوا جميعا كميات كبيرة من الجمبري والسمك وقف الرفيق حمدان أمام شاطئ البحر يحدق في الفضاء. لعله كان يستعرض الأحوال السيئة التي عاشها في سجن الواحات والتي فارقها منذ أسبوع واحد لا غير، ولعله كان يفكر في محنته الشخصية محنة الزعيم الذي يقود الطبقة العاملة نحو جنة ماركس ولينين، فإذا به يتحول داخل السجن إلى مجرد مخبر رخيص للبيه المأمور.

لعله كان سارحا بخياله وب عقله في شيء آخر لا أحد يدري.

المهم أنه بعد دقائق من وقفته على الشاطئ محققا في الفضاء البعيد، سقط مجدى حمدان ميتا، فقد حياته بعد أن فقد نفسه وذهب في الكازوزة غير مأسوف عليه!

الفصل الثالث عشر

وكانت فترة المعتقل التي طالت فرصة لدراسة أحوال الشيوعيين عن قرب، وكانت دهشتي كبيرة عندما اكتشفت أن الحزب الشيوعي المصري الذي يزعم أنه ممثل الجماهير العريضة لم يفتح في أي يوم من الأيام على شعب مصر، ولم يعقد صلة حقيقية بينه وبين الناس، وأن كل ما يدعيه عن تمثيله للجماهير ومعرفته بمشاكلها لم تكن إلا مزاعم لا تقوم على أساس.

مسئول الأمن .. ياللي!

والأغرب من ذلك أنه بسبب العزلة التي فرضها على نفسه والحصار الذي فرضته الأجهزة حوله، ابتعد كثيرا عن الناس وخاصمهم.

لم يعد يرى في الحياة إلا أعضاء الحزب، وهم وحدهم المناضلون والأكفاء والمبدعون وأولى الناس بالقيادة والريادة. ولذلك كان المعلم الإلزامي فهمي حبيب مسئول الواحات يرى أن كل مخلوق خارج تنظيمه الحديدي هو بوليس. وكان بين المعتقلين صحفي هايف اسمه عبد الوهاب صبحي، أشار فهمي حبيب نحوه وقال في غرور وقح:

- إذا قدر للصحافة أن تنمو في مصر، فسيكون هذا النمو على يديه ولم يكن الأخ إياه معتقلا، ولكنه كان محكوما عليه بالسجن لمدة ثلاث سنوات، وكان مسئول المخابئ السرية في الحزب، ويبدو أنه صدق مزاعم الأخ فهمي حبيب فكان يتصرف وكأنه محمد التابعي وكان يتكلم عن مصطفى أمين وهيكل وأحمد بهاء الدين وكأنهم بعض تلاميذه الذين فشلوا في مهمتهم.. بسبب ترددتهم وتطلعاتهم وقلة ثقافتهم وعدم فهمهم للصراع الحقيقي الذي هو الحياة!

وسألت المعلم الإلزامي فهمي حبيب مرة بعد أن أفاض في شرح
الأزمة الاقتصادية في مصر سألته:

- هل لديكم في الحزب الشيوعي كوادر تستطيع حل هذه
المشكلات؟ فأشار نحو رفيق حزبي كان يعمل مندوبا لإحدى
الصحف بالقطعة في دوائر وزارة المالية وتصورت أنه يهزل أو يمزح،
ثم كدت أجن عندما اكتشفت أنه جاد تماما، وأن ترشيحه للرفيق إياه
كان عن اقتناع تام بأنه صانع المعجزات. وكان من بين المعتقلين صبي
منجد توافرت لديه النية الطيبة في تأليف القصص، وكانت قصصه
أشبه بمواضيع الإنشاء التي يكتبها طلبة المدارس المجتهدون، ولكنه
كان أهم كاتب قصة في مصر في دوائر الحزب الشيوعي، ولكن لأنه
شيوعي فقد تأمرت السلطة في مصر لفرض الأدباء البرجوازيين على
الحركة الأدبية في مصر، أمثال نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم ويوسف
إدريس!! وإذا كان الرفيق لينين قال يوما: إن الشيوعي الجيد ينبغي
أن يكون حيث توجد الجماهير، فإن الحزب الشيوعي المصري في
الممارسة كان ضد الجماهير أو في مواجهتها أو بعيدا عنها.

أذكر أنه في شتاء ١٩٦٠ وكان قد مضى على اعتقالنا حوالي العام،
أننا تعرضنا لحملة تجويع منظمة، فالإفطار عبارة عن دود يقدمونه
تحت اسم جبنه، وفي الظهر يقدمون للمعتقلين «كرنب» مسلوقا،
أما في العشاء فيقدمون للمعتقلين كمية ذباب ميت تحت اسم عسل
أسود. وشعرت بهزال شديد وقررت أن أستعين بأصدقائي المساجين
للحصول على بعض الأطعمة التي تعينني على المقاومة وتحفظني
على قيد الحياة، وذهبت إلى عنبر المساجين الشيوعيين في يوم جمعة

للحصول على شيء من الطعام من الأستاذ زكي مراد المحامي، والذي كان قد مضى عليه في السجن أكثر من سبع سنوات، وعندما رأي عبد الوهاب صبحي مسئول الأمان في الحزب، أطلق صيحة تحذير دوت في العنبر (عيسوي) وهي شفرة تعني أن المباحث وصلت إلى العنبر، ولم يكن هذا التحذير بسبب شخصي المتواضع، ولكن السبب الحقيقي كان زكي مراد المحامي، لأنه كان زعيما من زعماء حدثوا، وهو تنظيم شيوعي انشق على الحزب الشيوعي المصري، وأطلقوا عليه في الحزب الانقسام، وبأدهم تنظيم حدثوا المجاملة بالمثل فأطلق على الحزب.. التكتل.

هذا البطل العظيم الذي كان مسئول الأمان في الحزب الشيوعي المصري أفرج عنه من السجن بعد شهر، وقد جرت العادة حينذاك على عودة المسجون المفرج عنه إلى الواحات مرة أخرى، ولكن في ثياب معتقل، ولم يعد يسمح لأحد من الشيوعيين بمغادرة السجن، وعليه أن يبقى خلف الأسوار. ولكن صاحبنا الثوري المناضل إياه خرج ولم يعد، مع الاعتذار للفيلم الذي قام يحيى الفخراني ببطولته وأخرجه محمد خان، ولم يمض أسبوع على خروجه من السجن حتى تعرضت الواحات لكبسة من رجال المباحث، اقتحموا عنبر المساجين، وبواسطة خريطة كانت معهم توصلوا إلى كل المخابئ السرية التي كانت في عهدة البطل المغوار إياه، واستولوا على كل أوراق الحزب الشيوعي المصري في ضربة واحدة وعلمت بعد ذلك من مسئول حزبي كبير أن مندوب الأمان عقد صلحا منفردا مع المباحث، تم بموجبه الإفراج عنه مقابل تسليمهم خريطة تحدد جميع

الأمكان السرية التي توجد بها أوراق الحزب، وقال المسئول الحزبي الكبير: لقد استطاع هذا العميل أن يخدع الحزب ويتسلل إلى صفوفه، ولأنه مدرب تدريباً عالياً في جهاز المخابرات المركزية الأمريكية، فقد استطاع الوصول إلى مستوى القيادة، فصار مسئول الأمان في الحزب الشيوعي المصري! وكانت هذه آفة أخرى من آفات الحزب الشيوعي المصري، فهو يستخدم كلمات كبيرة لوصف أحوال هايفة. وهذا الصحفي الغلبان الذي أصبح بطلاً مغواراً في نظر الحزب الشيوعي المصري لم يكن أكثر من شخص عادي، نفخته عضوية الحزب الشيوعي فتحول إلى بالون كبير، ولكنه انفجر وانكمش وعاد إلى حجمه الحقيقي عند أول امتحان. وقد ضاع في الحياة بعد ذلك. ورأيت آخر مرة في إحدى دول الخليج يلقط رزقه.. في الصحافة أحياناً وبطرق أخرى في أغلب الأحيان.

وهذا الغباء السياسي هو الذي أوقع الشيوعيين في شر أعمالهم وجعلنا نأكل علقة في سجن الواحات.. فشر حرامي في مولد أو حمار في مطلع، فبالنسبة لدعوة القومية العربية التي أطلقها عبد الناصر، كان تفسير الشيوعيين لها أنها حركة سياسية لفتح أسواق جديدة أمام الرأسمالية المصرية عموماً، والعائلات الخمس الكبرى خصوصاً. وعندما سألت عن هذه العائلات الخمس الكبرى، أجابني أحدهم بطريقة محدثي البرامج الإذاعية.. بنك مصر وشركات فرغلي للأقطان وأبورجيله وعبود والشوربجي! وعندما أمم عبد الناصر كل المصالح الرأسمالية الكبرى بما فيها العائلات الخمس، أصدر الحزب الشيوعي منشوراً آخر قالوا فيه: لقد اختارت الديكتاتورية العسكرية رأسمالية

الدولة لإحكام السيطرة على الشعب المصري من جهة ولحماية الرأسماليين الكبار من الخسائر التي يتعرضون لها وتحميل الخزانة المصرية الخسائر بدلا منهم! واكتشفت أن تعبير العائلات الخمس الكبرى ليس من تأليف الشيوعيين المصريين ولكنه منقول حرفيا من دراسة الحزب الشيوعي السوري الذي كان يرأسه خالد بكداش عن وضع الاقتصاد السوري المتدهور.

وجاء تعبير العائلات الخمس في هذه الدراسة، حيث كان الاقتصاد السوري يقع في قبضة خمس عائلات بالضبط، وهو وضع يختلف تمام الاختلاف عن وضع الاقتصاد المصري، ولكن تأثير خالد بكداش على الحزب الشيوعي المصري كان بلا حدود كان بمثابة المعلم والرائد والإمام.. ولذلك كانت خيبة أملهم كبيرة عندما لطمهم خالد بكداش بقسوة في تصريح مشهور له أدلى به في عام ١٩٦٠ وجاء فيه (لا توجد في مصر أحزاب شيوعية ولكنها مجرد دوائر ديدانية) هذا الغباء السياسي هو الذى أدى بهم في النهاية إلى تأييد عبد الناصر تأييدا كاملا ومنحه تفويضا على بياض، وأدى بهم في النهاية إلى حل الحزب الشيوعي والانضمام إلى الاتحاد الاشتراكي والتنظيم الطليعي.

ولكن الشيوعيين المصريين رغم هذا الغباء السياسي كانوا أكثر مرونة وأشد ذكاء من جماعة الإخوان المسلمين. ولقد كان في سجن الواحات عنبران، عنبر للشيوعيين وعنبر للإخوان، ولكن ما أبعد الفارق بين نزلاء عنبر أ ونزلاء عنبر ب.

كان الشيوعيون يسعون دائماً إلى فتح حوار مع الإخوان المسلمين، وكان الإخوان المسلمون يتحاشون هذا الحوار ويرفضونه بشدة، وكان الشيوعيون يؤمنون بأن الإخوان المسلمين سياسيون مجتهدون أخطئوا التحليل، بينما كان الإخوان المسلمون يرون أن الشيوعيين كفرة وملحدون ومصيرهم جهنم وبئس المصير.

أذكر ذات يوم شديد القيظ ونحن نحفر في رمال الصحراء في الوادي الجديد، وكان الشيوعيون يحفرون في جانب والإخوان المسلمون في جانب آخر. أذكر أنني شعرت بعطش شديد فعبرت الحدود ووصلت إلى خطوط الإخوان المسلمين، وكان أحدهم وهو شيخ طاعن في السن يجلس تحت مظلة صنعها بنفسه من فرع شجرة وخيشة وأمامه جردل ماء مبطن بخيشة مبللة ومغطى بقطعة شاش بيضاء، وفوق الشاشة كوز من الألمونيوم، وكانت الخيشة المبللة قد جفت دليلاً على أن المياه في الجردل قد أصبحت مثلجة، وكنت ألث بشدة وأنا أتجه كالطلقة الطائشة نحو الشيخ الجليل والجردل المثج، وعندما ألقيت عليه السلام لم يرد وقلت له وحالي يصعب على الكافر.. ممكن من فضلك؟ ورد في برود وفي حزم.. لا.. وسألته.. ليه؟ وقال وبنفس اللهجة وبنفس الطريقة.. أصل دي ميه طاهرة من غير مؤاخذه. تما لك نفسي وقلت له بهدوء هو أنا كلب هنجس الميه؟ قال وكأنه يقرر حقيقة.. أنت أنجس من الكلب. وقلت للشيخ العجوز.. معقول فيه بني آدم أنجس من الكلب؟ أجاب بشكل تقريرى.. أنت.. مش أنت شيوعى؟ أجبت.. لا.. أنا مش شيوعى. فقال.. يا سلام.. أmaal الحكومة جايباك ليه؟ قلت له.. وهل صدقت

الحكومة؟ قال.. طبعاً.. قلت له.. غريبة.. إن الحكومة عندما جاءت بك إلى هنا قالت عنك إنك مجرم وسفاح وقاتل وابن كلب، ولكني لم أصدقها.

عندئذ ألقى على العبد لله نظرة، وسألني بلهجة مختلفة.. أنت اسمك إيه؟

وتبادلنا الحديث، وتكرم في النهاية فكشف الغطاء عن جردل المية المثلج، وملاً الكوز الألمونيوم من الجردل وقدمه للعبد لله، وجلست بجانبه وشربت، واكتشفت أنه من الإسماعيلية ويدعى الشيخ طرطور، وأن الحكم صدر عليه بالإعدام ثم خفف إلى الأشغال الشاقة المؤبدة، وأنه في السجن منذ ست سنوات.

وتوثقت صلتني بالشيخ طرطور، واكتشفت أنه لا يعرف شيئاً بالمرّة عن الشيوعية أو عن الشيوعيين، وأن لديه بعض الأفكار الساذجة التي كانت تنشرها أجهزة مكافحة الشيوعية في الداخل والخارج، وأن لديه عقيدة ثابتة بأن الشيوعيين يتزوجون بدون عقود ويمارسون زنا المحارم، وأنهم مجرد أفراد فاسدين ولصوص، وكان يتصور أن الشيوعيين جهلة وأنهم لا يحسنون اللغة العربية ويعبدون ماركس ولينين، في نفس الوقت كان الشيوعيون يعرفون كل صغيرة وكبيرة عن جماعة الإخوان المسلمين.. عن برنامجها وأهدافها وأخطائها أيضاً.

وبينما كان الشيوعيون في ذروة المعاناة داخل سجن الواحات، حدث أن عمال الشحن في ميناء نيويورك رفضوا تفريغ الباخرة المصرية

كليوباترا، فردت عليهم نقابة عمال الشحن والتفريغ المصرية بمقاطعة تفريغ وشحن السفن الأمريكية في الموانئ المصرية، وحذت النقابات العربية حذو النقابة المصرية فأعلنت مقاطعتها للبواخر الأمريكية، وفي صباح اليوم التالي خرج المعتقلون الشيوعيون جميعا واتجهوا إلى إدارة السجن وطلبوا تأييد نقابة الشحن والتفريغ المصرية وتأييد موقف الحكومة المصرية من هذه القضية. وسألت الشيخ طرطور في اليوم التالي.. لماذا لم يؤيد الإخوان المسلمون موقف الحكومة المصرية من قرار مقاطعة السفن الأمريكية؟ نظر نحوي نظرة تحمل معاني كثيرة، هي خليط من الدهشة والاحتقار والاستنكار.. وقال: هذه الحكومة كافرة، ونحن لا نخاطب الكفار سلبا أو إيجابا، وليس بيننا وبينها إلا الثأر، إذا استطعنا أن نأخذه في الحياة الدنيا كان بها، وإلا فموعدنا يوم ينفخ في الصور ونقف جميعا بين يدي الله ومن يومها أطلقت عليهم وصف جماعة الإخوان الزعلايين.

كان موقفا سلبيا لا يمت بصلة إلى السياسة، لقد دخل الإخوان المسلمون معركة ضد الثورة، وهم الذين اختاروا مكانها وزمانها، فلما انهزموا في المعركة انكفئوا على أنفسهم يلحقون جراحهم ويمضغون غيظهم وينتظرون يوم الثأر وكأنهم عصابة من عصابات الجبل الغربي وليس تنظيما سياسيا كان ولا يزال يسعى إلى السلطة لإقامة ولاية الفقيه.

وأعود مرة أخرى إلى حركة التجويع التي فرضها السجن على المعتقلين، استطعنا رغم الرقابة المفروضة أن نحصل على بعض الأطعمة من مصادر مختلفة. أحد هذه المصادر كان مهندسا يعمل في

هيئة تعمير الصحراء، وكان آخر منصب تولاه هو مسئول مدينة ٦ أكتوبر. كان المهندس إياه شابا لا يزال، وكان يأتي كل صباح لموقع العمل في سيارة جيب، وبالرغم من أن هواه كان مع الإخوان، إلا أنه كان يعطي الشيوعيين بعض الشاي من الترمس الذي يحمله، وبعض السندويشات أيضا، وكان هناك مسجون مجرم اسمه عاشور، كان يذهب مع المعتقلين إلى الجبل ليقوم بإصلاح الفئوس وترميمها وكان عاشور، قد تعرض للعقوبة لاعتدائه على جندي من حرس السجن، وجاءوا به إلى عنبر الشيوعيين وحبسوه في زنزانة التأديب وتأثر عاشور كثيرا بمعاملة الشيوعيين له أثناء حبسه انفراديا، فرد لهم الجميل أيام المحنة، وكان يمد البعض منهم بأرغفة خبز وبيض مسلوق وبعض السجائر، وكان المساجين الشيوعيون الذين يعاملون معاملة عادية حسب اللائحة يمدون المعتقلين ببعض المواد الغذائية، ولكن كل هذه الإمدادات الضئيلة لم تشفع مع العبد لله، فهاجمتني عدة أمراض مرة واحدة نتيجة سوء التغذية كان أخطرها ما أصاب لسان العبد لله، فقد تحول كله إلى جروح وصدید، وأصبحت عاجزا لا أستطيع البلع ولا أستطيع الكلام، ولما ساءت حالة العبد لله، عرضوني على طبيب الواحات، فقرر أنني أحتاج إلى كميات من الليمون والسكر وبعض الأطعمة وإلا تعرضت للموت، وهنا أصدر المأمور قرارا على مسؤوليته بشراء دجاجة كبيرة على حسابي وسيقها في مطبخ السجن وشراء كيلو سكر خصما من حسابي وخمسين ليمونة، وبعد أول كوب من عصير الليمون الممزوج بالسكر خفت حدة القروح، وبعد التهامي للفرخة اختفى المرض تماما، وقمت أعدو كالغزال في حوش السجن. ولكن الجوع عاد لأمعائنا

بعد ذلك وأصابني الكرب المسلوق بامتداد بالمصران الغليظ، ثم حدثت الكارثة الكبرى، وتعرض جميع المعتقلين للموت، بسبب أكلة اكتشفوها في الصحراء، فهجموا عليها كالمجانين، وأكلوا منها حتى شبعوا، وفي المساء نقلت الغالبية العظمى منهم إلى المستشفى، وجاءت الإسعاف إلى السجن لرعاية الآخرين. ولكن.. كيف حصل المعتقلون على الأكلة إياها وكيف أصيبوا جميعا بالتسمم.. فهذه قصة أخرى.

الفصل الرابع عشر

كان يوما مشمساً ودافئاً رغم أننا كنا في عز الشتاء
وكانت قبضة عم شاهين قد خفت كثيراً، وصار الرجل
نفسه واحداً من المعتقلين فهو لا يغادر السجن ليلاً أو
نهاراً، ولا يتذوق إلا طعام السجن ولا يعرف من الحياة
إلا العنبر والجبل ومكاتب الإدارة.

وليمة الخروج!

كان الصول شاهين قد بدأ يشكو من سوء أحواله إلى المعتقلين، وكيف أن ابنه الذي في الجامعة لم يرحم شيبته ولم يقدر شقاه، فرسب للسنة الثانية في كلية التجارة مع أن الصول شاهين كان ينتظر من ابنه أن ينتهي بسرعة من دراسته الجامعية لكي يعاون أباه على تربية بقية الأبناء.

كان عم شاهين يحكي عن متاعبه وهو يكاد يبكي، وكيف أن ابنته الوسطى خطبها ولد أفندي معتوه ولكنه لم يكمل المشوار فهجرها واختفى عن الأنظار، وفي ذلك اليوم المشمس الدافئ كان عم شاهين يبدو مهموما أكثر من ذي قبل، فقد كان يطمع في الحصول على الجنيه قيمة المكافأة الشهرية لأحسن سجان ولكن المأمور تجاوز عم شاهين رغم إخلاصه وتفانيه في خدمة الحكومة. ولكنها حكومة أوباش لا تفرق بين المحسن والمسيء! ويقسم عم شاهين بأغلظ الأيمان أنه خدم هذه الدولة عشرين عاما منذ كان حيدر باشا هو الحاكم بأمره في مصر وحتى الآن وأنه تولى بنفسه ضرب كل أعداء الحكومة: الشيوعيين والإخوان والوفديين حتى الضباط المناوئين، ومع ذلك لم يأخذ

من الحكومة إلا راتبه وهو ثلاثة عشر جنيها الذي لم يزد مليها، بينما المشاكل تضاعفت بشكل فظيع.

في ذلك اليوم المشمس الدافئ الذي كان فيه عم شاهين مهموما ومكتئبا وغاضبا واثرا على كل شيء، اختار منطقة مزروعة في الصحراء لكي يمارس المعتقلون العمل فيها ونصحهم بعدم إجهاد أنفسهم والنوم تحت الأشجار بشرط أن يكونوا يقظين حتى لا يفاجئهم الضابط فيتسببوا في توقيع الجزاء على عم شاهين، وسرح المعتقلون في الواحة الصغيرة وكانت دهشتهم كبيرة عندما اكتشفوا أن الأشجار مثمرة. كانت الثمرة خضراء وطعمها مش بطل وإن كان الجميع قد فشلوا في معرفة حقيقة هذه الثمرة، ولم يكن المعتقلون في حاجة إلى عزومة من أحد لكي يملئوا بطونهم من هذه الثمرة، فهم يعانون الجوع من عدة أشهر، ونزل المعتقلون على الشجر وهات يا أكل كالمجانين، وأكل الجميع حتى شعروا بالامتلاء والراحة، وشكروا الله الذي يرزق كل حي حتى الدود في الحجر والمعتقلين في سجن الواحات، وزاد من بهجة المعتقلين أن اليوم مر بسلام فلا الضابط حضر ولا التكديرة أصابت المعتقلين ولا لحق الأذى بعم شاهين، وعاد الطابور البائس إلى السجن والكل يشعر بنشوة لم يشعر بها من قبل، وعندما أغلقت أبواب الزنازين أخذ المعتقلون في الغناء، ولماذا لا يغنون وقد عرفت بطونهم الشبع بعد فترة طويلة من الجوع؟ ولكن لم تكد تمضي نصف الساعة على دخولهم الزنازين حتى شعر البعض بمغص خفيف في البداية ثم اشتد بعد ذلك، وانتقل المغص إلى بقية المعتقلين، ثم بدأ القيء ثم أعقبه إسهال، وكان تشخيص

الأطباء للمعتقلين أنه تسمم حاد، فقد كان بعضهم يحمل في جيوبه بعض حبات من الثمر الذي أكلوه.

لقد اكتشف أحد المعتقلين وهو مهندس زراعي لم يخرج إلى الجبل في ذلك اليوم، اكتشف أن الثمرة إياها هي خروج وأن حبة واحدة منها قد تصبح دواء شافيا أما كمية منها فقد تنقلب إلى سم زعاف يقضي على من يتناوله في خلال ساعات. وبدأ المعتقلون يتصايحون داخل الزنازين ويدقون بشدة على الأبواب. وتلكأت الإدارة في البداية ثم فتحوا الأبواب واستدعوا الإسعاف، وتم نقل بعض المعتقلين الذين ساءت حالتهم بشدة إلى مستشفى الواحات ونقل البعض إلى مستشفى السجن وتم إسعاف الباقيين داخل الزنازين.

وقام الدكتور حمزة البسيوني وهو معتقل في الوقت نفسه بدور هام في علاج المصابين وساعده الكاتب الكبير صلاح حافظ الذي كان يمارس الطب داخل السجن، ولم ينم السجن في تلك الليلة، وظلت أبواب الزنازين مفتوحة حتى الصباح، ولم يغادر المأمور العنبر حتى الفجر وأبدى همّة مشكورة وظهر عليه في بعض الأحيان أنه شديد القلق وحزين على نحو ما، ولكن أغرب شيء حدث تلك الليلة أن المعلم الإلزامي فهمي حبيب الذي كان مسئول منطقة الواحات والذي صار فيما بعد سكرتيراً عاماً للحزب الشيوعي، مر على الزنازين يتفقد رعاياه، ثم قرر فجأة أن يمارس نضاله من أجل الرفاق، فوقف أمام المأمور وصرخ في وجهه.. الإدارة مسئولة عن هذه الجريمة ونحملكم المسؤولية إذا مات رفيق أو أكثر، ورد عليه المأمور ساخراً: وإحنا مالنا إحنا وزعنا عليهم خروج علشان ياكلوه؟! وعاد المسئول

الهايف يصرخ في عصبية.. كان لازم الصول الي معاهم يمنعهم، وده معناه أن السجن مفيش فيه ضبط ولا ربط، وما دام الصول مسئولا يبقى سعادتك كمان مسئول!

وفي صباح اليوم التالي فرض الصول شاهين الضبط والربط على المعتقلين وعامل المعتقلين بشيء من القسوة ولما عاتبناه على هذا الموقف، صرخ في وجوهنا بحرقة شديدة.. هو أنا ناقصكوا انتوا كمان.. الجدع الهايف بتاعكوا ده الي بيتكلم باللاوندي قال للمأمور: السجن ما فيش فيه ضبط ولا ربط طب خدوا بقه ضبط وربط من هنا ورايح، ثم مضغ الهواء بين أضراسه وأرعى حاجبه وقال وهو يتمزق غيظا.. طيب أنا هاوري الأفندي الهايف ده.. قال إيه عاوز ضبط وربط طيب يا فلفوس أما ارقعك عشرة أقلام على قفاك.. هتعرف الضبط والربط صحيح، وساءت العلاقة بيننا وبين عم شاهين أسبوعا كاملا بعد هذا الحادث.

كان حادث الخروج سببا في تخفيف القيود المفروضة على المعتقلين كان الضابط نصري وهو في رتبة نقيب قد التحق بكلية الحقوق لكي يتمكن من الصعود إلى أعلى رتبة في سلك الشرطة، والسبب أنه لم يكن خريج كلية الشرطة ولكنه بدأ حياته كومتبلا في إدارة المرور ثم رقي إلى رتبة ملازم ثان، وهو في الثانية والثلاثين وأصبح نقيباً الآن وهو في الثالثة والأربعين وسيخرج على المعاش عندما يصل إلى رتبة المقدم لذلك نصحه البعض بالانتساب إلى كلية الحقوق لكي يحقق حلمه بالترقي إلى رتبة اللواء.. وفعلا التحق الضابط نصري بكلية الحقوق ولكن انشغاله في وظيفته كسجان كان يمنعه من متابعة

دروسه. ولذلك كان في حاجة إلى من يساعده على استيعاب المواد الدراسية وفهمها.. وتطوع المحامي المعتقل على الشلقاني في مساعدة الضابط على فهم دروسه. وسمحت له إدارة السجن بفتح عنبر (أ) ليلاً، وكان يأتي إليه كل مساء، ويفتح زنزانه العبد لله حيث كان يقيم بها على الشلقاني. وكان الضابط التلميذ والمعتقل الأستاذ يجلسان معا داخل الزنزانه في الوقت الذي كان فيه نزلاء الزنزانه يفضلون الانتشار في الطريقة الطويلة التي تفصل بين الزنازين، وفي الأيام التالية كان الضابط - يحرص على أن يحضر معه عدة بواكي من شاي التموين وقرطاس سكر، وكان شوقي الصاعقة يتولى إعداد الشاي مستخدماً ملابسه الميري كوقود لإعداد الشاي، وسمح للأومباشي الذي يقوم بعملية تمريض المعتقلين المرضى بالمرور على زنازين السجن مرة كل أسبوع لحصر الحالات التي تحتاج إلى علاج وتوقفت عمليات الضرب والإهانة، وسمح لبعض المعتقلين بالتردد على عنبر المساجين، وصار العمل في الجبل متعة، وعادت المياه إلى مجاريها بيننا وبين الصول شاهين ولكنه كان إذا رأى الزعيم الشيوعي الهايف إياه فهمي حبيب الذي صار دكتوراً وسكرتيراً عاماً في آخر الزمان. كثر عن أنيابه وانتابته حالة عصبية تجعله يهتز بشدة ويردد في غيظ شديد.. الأفندي بتاع الطبط والربط أهه. ولكن لأن الحياة لا تمضي دائماً على وتيرة واحدة فقد حدث ما عكر صفو المعتقلين في تلك الأيام الهادئة، فقد حدث أن هرش بعض المعتقلين في أجسامهم وأفتى بعض الرفاق أنها مجرد حساسية نتيجة ارتداء ملابس السجن على اللحم، ولكن لم تكد تمضي بضعة أيام حتى انتشر الهرش بين جميع المعتقلين وصار الهرش هو سيد الموقف.

واتضح أن الهرش نتيجة جرب انتشر بين المعتقلين جميعا، وكان من المناظر المألوفة أن يشاهد عشرات من المعتقلين وقد التصقوا بجدار السور وهات ياهرش على ودنه. ولا يكفون عن الهرش إلا عندما تدمى جلودهم من شدة الاحتكاك بالحائط المبني بالصخور، ولكن الرفيق فهمي حبيب وجد أن الجرب فرصة لممارسة نضاله فقرر الدخول في إضراب عن الطعام حتى تصل بعثة طبية من أسبوط تتولى علاج المعتقلين وتخليصهم من الهرش، وحاول بعض العقلاء أن يقنعوه بالعدول عن فكرة الإضراب لأن الإضراب سيؤدي إلى إفساد العلاقة بين المعتقلين والإدارة، وسيقطع شهر العسل الذي بدأ بعد حادث الخروج. ولكن الزعيم المناضل فهمي حبيب رأسه وألف سيف لا بد من الإضراب وأن يكون إضرابا مشهودا يدخل تاريخ المعتقلات من أوسع الأبواب، وانتصر بالطبع رأي فهمي حبيب، واستعد بعض المعتقلين لبدء عملية الإضراب بحلقة رءوسهم زلبطة.

بدأ الإضراب عن الطعام في سجن الواحات وجاء المأمور وحاول التفاهم في البداية ثم أصدر أمره للعساكر بإدخال المعتقلين إلى الزنازين وإغلاق الأبواب. ومضت خمسة أيام وبعض المعتقلين مضربون عن الطعام فقد رفض تنظيم حدثوا الانضمام إلى الإضراب باعتبار أنه بلا سبب، وليس من ورائه أي فوائد، وأعلنت زمش بالطبع انضمامها إلى حدثو ثم عدل بعض المضربين عن إضرابهم، وانتهى الإضراب تقريبا عندما تبين للمعتقلين مدى سخافة فكرة الزعيم الهمشري فهمي حبيب. وبعد أن فشل الإضراب جاء المأمور ذات صباح وأمر المعتقلين بالخروج إلى الحوش، ثم أمر بالاصطفاف

في طابور واحد بجوار الحائط، وأفتى جناح فهمي حبيب بأن هناك حفلة تعذيب في انتظارنا ثم اتضحت الحقيقة عندما أمر المأمور بعض رجاله باحضار (الجماعة) وجاءت الجماعة يلبسون جلابيب مهلهلة عليها «بلاطي» بيضاء أو كانت بيضاء ذات يوم بعيد ولم يكن مع الجماعة أدوات للتعذيب كما أفتى الجناح المناضل، ولكن كان معهم جرادل مملوءة بسائل أبيض، وفي كل جردل فرشاة من النوع الذي يستعمل في طلاء الجدران، ثم طلب المأمور من المعتقلين أن يخلعوا ملابسهم وأن يتعروا كما ولدتهم أمهاتهم وبعد ذلك مر أصحاب الجرادل يغمسون الفرش في السائل ثم يأخذون في طلاء أجسام المعتقلين بالسائل الأبيض الذي تمتلئ به الجرادل، وبعد أن انتهوا من طلاء جميع المعتقلين ارتدى المعتقلون ملابسهم وانسحبوا إلى العنابر. وأفتى جناح المتشددين بأنها حيلة خبيثة من جانب الإدارة لامتصاص غضب المعتقلين وأن هذا الطلاء الأبيض ليس إلا ماء ممزوجا بالجير، وهو في النهاية لا يؤدي إلى شفاء المعتقلين ولكن إلى مضاعفة عذابهم وقد يؤدي في النهاية إلى إصابة الكثير منهم بسرطان الجلد، ولكن الذي حدث بالفعل أن عملية الهرش خفت في المساء، وعندما أعادوا عملية الطلاء في صباح اليوم التالي لم يأت المساء حتى كان كل المعتقلين قد برئوا من داء الجرب وكأنهم لم يكونوا جربانين في أي وقت. وعادت الأمور في السجن عادية وعصا الإدارة ليست مشدودة وليست مرخية.

ثم حدث ما جعل الأمور تختلف كل الاختلاف، في منتصف الليل حضر المأمور ومعه ضابط والصول شاهين وبعض الجنود، وفتحوا العنبر وفتحوا الصالة الضيقة التي تفصل بين الزنازين، بينما

أدى الضجيج الذي تحدثه كعوب أحدىتهم على البلاط البارد إلى فرار النوم من عيون المعتقلين وهرع العشرات منهم إلى الأبواب والنوافذ لاستطلاع الأمر، فقد توجسوا شرا لحضور المأمور إلى العنبر في هذا الوقت من الليل، واتجه المأمور بموكبه الصامت إلى زنزانة الأستاذ صلاح حافظ وأخرجه منها، ثم اتجه بعد ذلك إلى زنزانة الدكتور حمزة البسيوني وأخرجه منها ثم اصطحب المعتقلين معه وخرج من باب العنبر بعد أن أغلقه على المعتقلين وضرب المعتقلون أخماسا في أسداس، فحضور المأمور إلى العنبر بعد منتصف الليل وإخراج معتقلين في هذه الساعة أمر لا شك خطير. وعلى الفور انعقدت الحلقات وبدأ النقاش بين الخبراء في محاولة للوصول إلى تفسير لهذا الإجراء غير المألوف. وأفتى الزعيم فهمي حبيب بأنها مؤامرة لقتل أطباء المعتقلين بدعوى الهروب من السجن. وقال الرفيق إبراهيم العطار أمين التنظيم في منظمة زمش.. إن الحكومة أوفدت مندوبها إلى السجن لمناقشة المعتقلين، وإن المأمور اختار صلاح حافظ وحمزة البسيوني لأنها عاقلان وغير متشددين، وذهب الآخرون في تفسير الأمر مذاهب شتى. ولكن الحقيقة لم تظهر إلا في الصباح، وهي حقيقة ولكنها أغرب من الخيال!

الفصل الخامس عشر

اكتشفنا في صباح اليوم التالي أن كل تحليلات الزعيم
الخنفساري فهمي حبيب باطلة. فقد جاء المأمور إلى
السجن في الليلة الماضية واصطحب معه الدكتور حمزة
البيوني والأستاذ صلاح حافظ لسبب لم يخطر على بال
الزعيم الهمشري إياه.

شاهين وإخوته!

وأصل الحكاية أن المأمور فريد شنيشن كان مدعوا على العشاء في بيت محافظ الصحراء الغربية. وهو ضابط بسلاح الحدود اسمه البوريني. واصطحب المأمور السيدة حرمه تاركا طفليه الصغيرين في المنزل تحت حراسة بعض جنود بلوكات النظام وانتهز أطفال المأمور فرصة وجودهما في المنزل فعبثا بمحتويات المنزل. وامتدت أيديهما إلى الدولاب وإلى المكتبة وإلى الصيدلية. ويبدو أنهما تصورا أن حبوب الأدوية المختلفة هي نوع من الحلوى، فابتلعا كميات كبيرة منها. وعندما عاد المأمور والسيدة حرمه إلى المنزل. كان الطفل الصغير في حالة إغماء. بينما الطفل الأكبر كان في حالة إعياء شديدة. ولم يكن أمام المأمور إلا الاستعانة بالطبيب المعتقل الدكتور حمزة البسيوني. وطلب حمزة البسيوني من المأمور أن يسمح للأستاذ صلاح حافظ بمساعدته، على أساس أن المرحوم صلاح حافظ كان يدرس الطب قبل احترافه الصحافة. ولم يعد حمزة البسيوني وصلاح حافظ إلى السجن إلا في مساء اليوم التالي وبعد أن نجحا في إنقاذ الطفلين من موت مؤكد بعد هذا الحادث ظهر المأمور في ثوب آخر يختلف تمام

الاختلاف عن الثوب الذي اعتاد الظهور به من قبل وظهر معدنه الأصيل كفلاح مصري طيب. ويبرر هو نفسه موقفه القديم بأنه لم يكن قادرا على الظهور بمظهره الحقيقي وإلا كان مصيره السجن. وقال هو نفسه للعبد لله.. عندما قمت بزيارته ذات مرة وهو مأمور لمركز ميت غمر. لم أكن أكثر من ضابط شرطة برتبة رائد. بينما كان بين المعتقلين أساتذة جامعة ومديرو عموم ووكلاء وزارة ونواب وزراء ومستشارون برئاسة الجمهورية.

والحق أقول إن المأمور فريد شنيشن كان ضابط شرطة محترما ومسئولا، ولم يرتكب جرائم قتل كما فعل غيره في معتقل أبوزعبل ولذلك حافظت على زيارته بين الحين والآخر في كل المواقع التي احتلها، منذ أن كان مأمورا لأحد مراكز الشرطة في محافظة أسيوط. ثم بعد نقله مأمورا لميت غمر، ثم مديرا لأمن الدقهلية. ثم رئيسا لمدينة جمصة، وحزنت جدا عندما قرأت نبا نعيه وأنا مقيم خارج مصر في سنوات التشرذ والضياع.

والحق أن شنيشن لم يكن وحده بين ضباط الشرطة الذين ظهر معدنهم الأصيل أثناء المحنة، هناك ضابط في السجن اسمه عثمان وكان برتبة ملازم أول، ولكنه كان رجلا يحمل قلبا كبيرا وحكمة أكثر من تجربته، هذا الضابط الشاب لم تقع عيني عليه بعد خروجنا من السجن ولا أعرف أين انتهى به المصير، وإن كنت أشك في أنه وصل إلى ما وصل إليه غيره، لأنه كان صاحب ضمير حي، وكان يؤدي واجبه بمنتهى الأمانة مع ابتعاده عن ارتكاب الصغائر، وكان يعامل الجميع باحترام حتى عتاة المجرمين.

وكان هناك الضابط عبد العال سلومة وهو برتبة نقيب، وكانت له ظروف خاصة فرضت عليه بذل كل ما يستطيعه لكسب رضا رؤسائه في مصلحة السجون والمباحث العامة وفي وزارة الداخلية.

وأصل الحكاية أن الضابط عبد العال سلومة كان مسئولاً عن عنبر الإخوان المسلمين في سجن طرة عندما تمرد المسجونون من جماعة الإخوان المسلمين على إدارة السجن، وقاموا باختطاف ضابط وأحد الصولات وحبسوهما داخل العنبر. وبعد يوم كامل من القلق والتوتر صدر الأمر باقتحام العنبر. واقتحم عبد العال سلومة العنبر ونتج عن اقتحام العنبر مأساة. سقط عشرون قتيلاً على الأقل وأصيب عشرات بجراح خطيرة. من بينهم بعض الحراس وبدأ التحقيق في الحادث. وقرر عبد العال سلومة في التحقيق أنه اقتحم العنبر تنفيذا للأمر الصادر إليه من وكيل السجن. وقرر وكيل السجن أنه أصدر الأمر بناء على أمر صدر إليه من مأمور السجن. وقال المأمور إنه نفذ أمر البية المدير. وقال المدير إنه نفذ أمر الوزارة ثم غابت الحقيقة بعد ذلك عندما بدأ تحديد معنى الوزارة. هل هو مبنى الوزارة الذي أصدر؟ هل هو واحد في الوزارة؟ ومن هو هذا الواحد؟ هل هو الوزير؟ هل هو الوكيل؟ هذا السؤال البسيط لم يجد جواباً على الإطلاق. وجاءت الطوبة في المعطوبة، ووقعت الوزارة جزاءات على الضباط الذين نفذوا الأمر. والذي تبين بعد التحقيقات الطويلة أنه أمر بلا صاحب. وكان جزاء عبد العال سلومة هو تأخير ترقيته، وعندما كان وكيلاً لمعتقل الواحات كان برتبة نقيب. بينما كان المأمور الذي هو أحدث منه في التخرج برتبة رائد.

ولكي يسترد عبد العال سلومة وضعه الطبيعي بين دفعته بذل مجهودا كبيرا ونجح في النهاية في تجنيد عضو اللجنة المركزية لأحد الأحزاب الشيوعية وهو في الوقت نفسه ابن شقيقة أحد مليونيرات مصر الكبار، الذي لعب أدوارا هامة وخطيرة في الثلاثين عاما الأخيرة من تاريخ مصر، ولكن هذا العمل لم يشفع لعبد العال سلومة. وظل في مكانه محلك سر. وقد أصيب من جراء هذا الإهمال بأمراض خطيرة، ولقي ربه في النهاية في أحد مستشفيات لندن بعد إجراء عملية خطيرة، ومات وهو لا يزال شابا وبرتبة عقيد، وكان هناك الضابط نصري، وهو الذي تعرضنا لسيرته من قبل. وقد بدأ حياته كونستبلا والتحق بكلية الحقوق أثناء خدمته في الواحات وساعده المعتقل الأستاذ علي الشلقاني، وكانت فرصة طيبة لكي يفتحوا علينا الزنزانة ليلا. لنملا صدورنا بهواء الواحات العليل، خصوصا أثناء الليل. وهذه الفرصة جعلتني أكتشف شيئا رهيبا بالنسبة للسجون. فكل مسجون حتى المحكوم عليه بالإعدام من حقه الاستمتاع بطابور شمس أثناء النهار، ولكن ليس من حق المسجون أن يستمتع بالليل أو يعيشه. الليل من حق الذين خارج القضبان. أما الذين وراء القضبان فليس من حقهم أن ينعموا بالليل، ولكن طموح الضابط نصري والتحاقه بكلية الحقوق جامعة القاهرة أتاح لنا هذه الفرصة الذهبية ومع هذه الباقية من الضباط كان يعمل معهم عشرات من الحراس. كل منهم دنيا بأسرها وعالم بأكمله. بعضهم أغبى من وحيد القرن. وبعضهم يتمتع بذكاء المصري العادي، ويحمل بين جنبه روحا فكهة وإحساسا بمتاعب الآخرين، ولكن كلهم.. وحتى الأغبياء منهم كانوا يتمتعون بروح طيبة، والجميع يشتركون في لعن الظروف التي أدت بهم إلى

هذه المهنة السيئة التي تجعلهم يقضون العمر كله وكأنهم يمشون على طريق من الشوك، واكتشفت خلال فترة السجن في معتقل الواحات أن مصلحة السجون لها فلسفة في معاملة هؤلاء الحراس، فهي تضع هؤلاء الحراس على صفيح ساخن طول الوقت، وتجعلهم يمشون على أعصابهم متوقعين في كل لحظة أن تنزل بهم الإدارة أقسى أنواع العقاب. واكتشفت أيضا أن اضطهاد هؤلاء الحراس للمعتقلين هو نوع من أنواع الاحتجاج على الاضطهاد الواقع عليهم. وكانت حياة أي معتقل في سجن الواحات رغم الضرب والتعذيب أفضل من حياة أي حارس حتى ولو كان برتبة مساعد أو زين كم جاكته بأربعة شرائط ونسر.. كانوا يأكلون نفس طعام السجون، ولكنهم لا يحصلون على فترة نوم تساوي فترة نوم المعتقلين.

كان المسجون تنتهي مشاكله تماما عندما يغلقون باب الزنازة عليه، ولكن مشاكل الحارس كانت تبدأ بعد ذلك، كان على كل منهم أن يقدم تقريراً إلى الإدارة عن سير العمل في المعتقل أثناء النهار. عن المخالفات التي ضبطها أثناء العمل. عن الممنوعات التي شاهدها مع المعتقلين، وبعد ذلك يجلس الحارس يفكر في أمر العائلة التي تقطن بعيداً عنه في القاهرة. بينما كان بعض المعتقلين ينعم أثناء الليل برشف كوب شاي. كان الحارس محروماً من الشاي ومحروماً من السجائر ومحروماً من أي شيء إلا النوم على الأرض في خيمة يحيطها أخدود مملوء بالماء ليصد عنه غارات العقارب والأفاعي والعناكب السوداء.

كان أبرز هؤلاء الحراس بعد الصول شاهين الأومباشي حسن،

وهو رجل طويل وعريض. ويصلح لمنصب تشريفاتي في قصر أحد باشاوات أسرة محمد علي. وكان طيبا ومتكلما ومتفلسفا على نحو ما. وكان الأومباشي حسن يختلف عن أغلب زملائه الحراس. فقد سبق له العمل في معتقلات تضم الشيوعيين قبل الثورة وبعدها وكان أكثر ما يغيظه هو وجود عدد من أبناء الباشاوات بين المعتقلين الشيوعيين وكانت معلوماته عن الشيوعية هي أنها نظام يدعو إلى إبادة الأثرياء ورعاية مصالح الفقراء. فهل يعقل أن يدافع الباشاوات عن جماعة تسعى للقضاء عليهم؟

هذا اللغز المحير أدي بالأومباشي حسن إلى الاقتناع بأن هؤلاء الشيوعيين من أبناء الباشاوات هم مجرد مجانين فقدوا عقولهم وينبغي إيداعهم مستشفى الخانكة وليس معتقل الواحات.

وذات مرة ونحن جلوس أمام الكانتين وأحمد شوقي الصاعقة يوزع علينا أكواب الشاي - وكنا لا نزال في بداية فترة الاعتقال - أشار الأومباشي حسن إلى المعتقل علي الشوباشي وقال وهو يتمزق غيظا: حد يصدق إن الراجل ده عايش في عمارة طويلة في وسط البلد وعلى بابها بواب بياخد فلوس في الشهر أكثر من الفلوس اللي بياخذها البيه الوكيل. عاوز حد يفهمني إيه اللي رماه ع المرده؟

وذات يوم قال الأومباشي حسن للعبد لله وأنا أعزم عليه بسجارة كنت، تصدق بالله، ما حد حقه يبقى شيوعي إلا أنا. طب أنا عندي مشاكل مش تخليني أكتب منشورات بس دي تخليني أضرب بالنار..

ولقد شاءت الصدفة أن التقي مرة أخرى بالأومباشي حسن وبعد

اثنى عشرة سنة كاملة في سجن القناطر الخيرية. كان هو مساعدا في قوة السجن وكان العبد لله نزيلا بسجن القناطر ومحكوما عليه بالسجن لمدة سنتين في قضية ما يسمى بمراكز القوي، وعندما وقع بصر المساعد حسن على العبد لله قال: يا خبر أسود. إنت جيت تاني؟ أنتو لا مؤاخذه بقيتو زي الحرامية من سجن لسجن تاني تعرف تقوللي إنت ضد الحكومة ليه؟ دنا روحتك الشغل لقيتك قاعد في مكتب ولا مكتب البيه المأمور وعندك تليفون وساعي واقف ع الباب. وقدامك جرس تدوس عليه الساعي يحيلك. يعني إنت حكومة يبقى عاوز إيه تاني؟ دنا باخد عشرين جنيه في الشهر وبحمد ربنا وما بطلبش حاجة منه غير الستر، تصدق بالله يا أستاذ. ما تأخذنيش في دي الكلمة.. إنتو تستاهلو الحرق!

أما الشاويش نمر فكان يختلف كثيرا عن الأومباشي حسن. الأومباشي حسن كان من أبناء الغربية. بينما كان الشاويش نمر من أبناء أسيوط وكان الأومباشي حسن أومباشي نظام. بينما كان الشاويش نمر شاويش رياضة، وكان حسن يجيد القراءة والكتابة، بينما كان نمر لا يعرف الفرق بين الألف وكوز الدرة. ومع ذلك كان نمر حريصا على استخدام لغة المثقفين في الحديث، وكان يردد بمناسبة وبدون مناسبة عبارة.. أنا أسلوبى. وكان ينطقها بفتح الألف.. وكان لا يقبل من أحد سيجارة أو شيئا من الفاكهة كما يفعل غيره من الحراس، وكان ينفذ الأوامر دون تجاوز وبشيء من الإنسانية، وكان يعامل الجميع باحترام.

وكان الشاويش محمود احترام نموذجا جديرا بالدراسة، كان

غيبا إلى أقصى حد. لم يكن اسمه محمود احترام بالضبط. ولكن العبد لله هو الذي أطلق عليه هذا الاسم، والسبب أنه كان دائم الشجار مع المعتقلين، وكان كلما تشاجر مع معتقل، صرخ في وجهه بكلمة واحدة يكررها عشر مرات. وكانت الكلمة هي احترام، مع تسكين الحاء وفتح الراء. وكان لا يتورع في اتهام من يتشاجر معه بشتى أنواع الاتهامات، أبسطها هو سب دين الحكومة والهتاف بسقوط الرئيس! وكنت أسأل نفسي أحيانا.. هل من الممكن أن يتحول الإنسان إلى حيوان؟ وكان من حسن حظ المعتقلين أن محمود احترام نقل من سجن الواحات إلى سجن طرة قبل أن تبدأ عمليات التعذيب ضد المعتقلين، وإلا لمات بعضهم تحت ضربات هراوته التي كان يزين مؤخرتها بقطع من الحديد.. ولكن كل الحراس كوم، والعسكري متى كان كوما لوحد..

كان العسكري متى عجوزا يقترب من سن الستين. وكان يعول عائلة من زوجة وسبعة أبناء، بعضهم يعمل باليومية وأغلبهم عاطل عن العمل وكان مرتبه ثلاثة عشر جنيها في الشهر يرسله كاملا إلى أسرته ويعيش على طعام السجن، وكان في أحيان كثيرة يطلب كمية من الملح من المعتقلين ليضيفه إلى طعامه، وكان متين البنيان، وقبضة يده في حجم صخرة، وكان طويلا وعريضا، وكانت لطمة واحدة منه على وجه أى مسجون كفيلة بطرحه أرضا، وكان يبدو وكأن بينه وبين المساجين السياسيين ثارا، ويتباهى دائما بأنه ضرب أبو الخير نجيب علقه في سجن طرة وكان شقيا وتعيسا لأن الثورة حررت المساجين من أغلالهم وسمحت لهم بتربية الشعر وتدخين السجاير وكان كل آمانياته في الحياة أن يصل يوما ما إلى رتبة عشاوي، ويتولى بنفسه إعدام

المذنبين وكان يتعجب لأن الحكومة تضع أعداءها في السجن وتقدم لهم الطعام والشراب والدواء أحيانا. مع أنها لو أنصفت لوضعتهم جميعا في ساحة واحدة وأطلقت عليهم النار وانتهت منهم بضربة واحدة وإلى الأبد...

وقد رأيت العسكري متى بعد ذلك بعدة أعوام داخل غرفة الإعدام في سجن الاستئناف، وكان يتدرب على تنفيذ أحكام الإعدام. ولكنه لم يستمر، وعاد مرة أخرى كسجان إلى أحد سجون القاهرة بسبب (اضطراب أعصابه وعدم تركيزه وارتعاش يديه أثناء عملية تنفيذ الإعدام) وفشل متى في تحقيق أمنيته الوحيدة في الحياة ومات بعد ذلك بسنوات غير مأسوف عليه!

الفصل السادس عشر

في بداية الصراع بين بغداد والقاهرة. رفع الشيوعيون المصريون شعار الإطاحة بالحكومة، ولم يكن أكثر من شعار، ولكنه أعطى الفرصة للحكومة للإطاحة بالشيوعيين، وكانت ضربة قاضية، ليس للشيوعيين وحدهم، ولكن للشيوعيين والماركسيين ولكل باب قد تهب منه ريح عاتية.

الرقص على السلالم!

كانت ضربة ساحقة ماحقة - على رأي المعلق عادل شريف - جمعت العاقل على الباطل والشامي على المغربي. أحد المعتقلين كان عاملا ممتازا في شركة من شركات الغزل والنسيج. كان اسمه أحمد وشهرته الياباني، وكان ابن بلد وشهما ومن النوع الذي يضحى من أجل صاحبه وإلى آخر مدى، ولم يكن اسم الياباني في قائمة المعتقلين، ولكن فوجئ بأن رئيس نقابته الذي هو صديقه في نفس الوقت قد ساقوه إلى المعتقل، وعز على الياباني أن يعتقل صديقه، فهو صاحب عيال وصاحب عيا. فذبح فرختين وأخذ شوية بطاطس محمرة وكمية من الطرشي من النوع الذي يحبه صديقه وجاء إلى المباحث وسأل عن صديقه ولكنه لم يعثر عليه هناك والياباني حذق ويفهمها وهي طائفة، ولذلك استطاع معرفة مكان المعتقلين من مخبر في المباحث دردش معه قليلا وعزم عليه بسيجارة، وسيجارة بعد سيجارة رق له قلب المخبر فأبلغه بالسر، وهو السر الذي حرصت المباحث على أن تخفيه.

من المخبر عرف الياباني أن جميع المعتقلين في سجن القلعة. وخرج الياباني من المباحث وقفز في الأتوبيس ونزل في ميدان باب

الخلق. ومن هناك ركب الترام إلى القلعة، وراح يصعد الهضبة على قدميه حتى وصل إلى سجن القلعة، وعندما اقترب من باب السجن شخطوا فيه ونهروه بشدة وأمروه بالابتعاد. ولكن الياباني رأسه وألف سيف لا بد أن يقابل صديقه ويراه أو على الأقل يتحدث إليه من وراء الجدران، ولذلك راح يدور ويلف حول السجن مناديا بأعلى صوته على صديقه، ولفتت الضجة التي أثارها الياباني أسماع ضابط المعتقل فأمر بالقبض عليه وإحضاره وقبضوا عليه بالفعل وأحضره إلى قائد المعتقل. وبعد استجواب قصير قرر الياباني أنه علم باعتقال صديقه رئيس النقابة فذبح الفراخ وقام بتحميم البطاطس واشترى الطرشي وجاء لصديقه بلقمة تسند قلبه في معتقله الرهيب.

وكان الممكن أن يأخذ قائد المعتقل الورقة الملفوفة من الياباني ويتركه إلى حال سبيله، لولا أن الياباني ذكر عبارة استوقفت قائد المعتقل، وقال الياباني إن صديقه لم يرتكب أي جريمة ولم يصنع أي شيء غلط، وهو يعرفه أكثر من غيره لأنها يعملان معا طول الوقت، لأن الياباني عضو منتخب في نفس النقابة التي يرأسها صديقه المعتقل.

في هذه اللحظة ترك قائد المعتقل حجرته واتصل من حجرة أخرى بالمباحث العامة. وبعد عشر دقائق جاءه الأمر باعتقال الياباني وحجزه في سجن القلعة، وتحققت أخيرا أمنية الياباني فرأى صديقه واجتمع به وعاش معه في الزنزانة أكثر من ثلاث سنوات، ولكن الأهم من ذلك أن صديقه أكل من الفراخ البلدي والبطاطس المحمرة والطرشي الذي يحبه! وقضى الياباني فترة السجن في الواحات منشغلا برش الحوش طول النهار. وعندما ساقونا للعمل في أرض الواحات

الخارجة، كان الياباني أكثر الناس انهماكا في العمل، وأغلب الظن أن الياباني ابن البلد الشهم لم يفهم كلمة واحدة من الحنجوري الذي كان ينطق به جهابذة الشيوعية المعقدون.. وعلى رأسهم الجهول المتعاضم فهمي حبيب. الذي صار دكتورا واشتغل بالتأليف في آخر الزمان.

كان هناك أيضا المحامي محمد أبو الفرج ولم يكن شيوعيا في أي يوم من الأيام، ولكنه كان صديقا للشيوعيين ومعجبا بنضالهم وكان إذا جمعت السهرة أو القعدة بأصدقاء أو زملاء أو معارف من غير الشيوعيين، حاول أن يبدو أمامهم في صورة الزعيم الشيوعي ولا ستالين..

وكان يحفظ بعض التعبيرات وبعض الكلمات الحنجورية، وكان يستعملها بإصرار في مثل هذه اللقاءات، وكان هؤلاء المعارف يتصورون أن المحامي أبو الفرج هو زعيم الشيوعية في مصر ولا بد أن هذا الانطباع قد انتقل منهم إلى المباحث، وساعد أبو الفرج على تثبيت هذه الصورة لدى جهات الأمن، إذ كان حريصا في أي مكان، سواء في قهوة المحامين بالمحكمة أو في المقهى الذي يجلس عليه أو حتى في الأتوبيس الذي يركبه. كان حريصا إذا تكلم في أي موضوع أن يبدأ حديثه قائلا: أنا كشيوعي! وانتقلت معه هذه العادة إلى السجن، فكان إذا تحدث مع أي أحد نطق بنفس العبارة.. أنا كشيوعي، مع أن الجميع كانوا يعلمون أنه لا شيوعي ولا يحزنون. ولم يفلت المحامي أبو الفرج من لسان العبد لله فأطلقت عليه لقب رئيس الحزب الكشيوعي المصري، وانكشف الأستاذ أبو الفرج عندما عرضوا عليه الاشتراك في الحياة العامة بخمسين من مائة من

دخله في السجن (عشرة جنيهات شهريا) فرفض بشدة. ورفض أن يتقاسم معهم السجائر التي يدخنها. ورفض أي تعاون مادي مع الشيوعيين وحرص المستقلين على أن يسلكوا نفس السلوك. وانتهى أبو الفرج نهاية رهيبة في سجن الواحات، نبذه الجميع وخاصمه الجميع، وانزوى أبو الفتوح بعيدا وأصيب بالذهول، ولم يعمر طويلا بعد ذلك، فمات بعد الإفراج عنه بقليل.

وكان هناك الدكتور لويس عوض، وهو ماركسي ولكنه ليس شيوعيا وهو أمر طبيعي باعتباره واحداً من ألمع المثقفين العرب، وقد احتمل الدكتور لويس المحنة بشجاعة، وكان سجيناً نموذجياً، وقام بتكسير الأحجار في الجبل بكفاءة ولا كفاءة مجرم من عصابة الخط بتاع الصعيد، ولكنه في الوقت نفسه لم يتخل عن كبريائه وشموخه وإحساسه بالتفوق.

حدث ذات يوم جمعة، وهو يوم إجازة في المعتقل، أن اقتحم العنبر الذي يقيم فيه لويس عوض أحد الحراس العواجيز، وبعد أن ألقى نظرة فاحصة على المعتقلين. قال: أنا عاوز واحد متعلم ونبه ورد لويس عوض على الفور.. أنا! وقال له الشاويش العجوز وهو يخرج من العنبر.. تعال ورايا.. وخرج الاثنان معا، الشاويش في المقدمة ولويس عوض يمشي ورائه.. وتعلق المعتقلون بنوافذ العنبر. توغل الشاويش في حوش السجن ومن خلفه لويس عوض حتى وصلا إلى نهاية الحوش تقريبا، وانحنى الشاويش على الأرض ونزع غطاء البكابورت، وكان طافحا بشكل ظهر واضحا للمعتقلين الذين كانوا يختلسون النظر عبر النوافذ. ونظر الشاويش للدكتور لويس عوض باعتباره ولداً نبها ومتعلما.. وطلب منه تسليك البكابورت الطافح!

وبالفعل شمر لويس عوض عن سواعده وقام بتسليك البكاورت على أكمل وجه، ولكن المسألة التي لفتت نظر العبد لله هو التصدي للمهمة عندما طلب الشاويش واحداً متعلماً ونبياً. هل خطر في ذهن لويس عوض أنهم كانوا يبحثون عن واحد «متعلم ونبى» لتسليك البكاورت؟ أم أنه تصور عندما سمع الشروط المطلوبة (متعلم ونبى) أنهم يريدونه لحل مشكلة عويصة في الجامعة العربية، لدراسة مشروع جديد في وزارة الثقافة؟ إنها إهانة لا تغتفر لمثقف مصري عظيم في حجم لويس عوض.

ولكن المضحك في الموضوع أنها لم تكن مقصودة، فلم تعتمد الحكومة اختيار لويس عوض، لهذه المهمة، ولم يكن اختياره نتيجة تدبير من مأمور السجن أو أحد ضباطه، حتى الشاويش كان بريئاً من مؤامرة التدبير. لقد سأل الشاويش سؤالاً لم يوجهه إلى أحد بالذات، وتطوع لويس عوض بترشيح نفسه للمهمة، باعتباره متعلماً ونبياً، فمن نلوم على موقف مثل هذا قام فيه لويس عوض أحد كبار المثقفين في عصرنا بتسليك البكاورت باعتباره متعلماً ونبياً! إنها مسألة تجعلنا نتساءل عن العلاقة بين البكاورتات والتعليم!

والشيخ محمد عبد الواحد، لم يكن شيوعياً ولم يكن ماركسياً، ولكن مشكلته التي جاءت به إلى السجن أنه كان عاملاً ورئيساً لنقابة عمال وكان نشيطاً ومشاعياً وحريصاً على مصالح أبناء الطائفة من عمال النسيج، ومنذ اليوم الأول الذي جاء فيه إلى المعتقل جلس وحيداً منعزلاً يقرأ القرآن، وعندما طالت مدة الاعتقال راح يقرأ الغيب، وكان يستعين على ذلك بالمصحف الكريم ومسبحة طويلة ومفتاح

عثر عليه بالمصادفة أثناء حفرة في رمال الواحات، والغريب أن الشيخ محمد عبد الواحد تنبأ بموعد الإفراج عن العبد لله وآخرين. وكان منظرا غريبا أن يتصاعد أذان الفجر من عنبر الشيوعيين يرفعه الشيخ محمد عبد الواحد، وفي وقت مبكر بعض الشيء عن موعد رفع الأذان من عنبر الإخوان المسلمين.

ولم يكن الشيخ محمد عبد الواحد هو الوحيد الذي يرفع أذان الفجر من عنبر الشيوعيين، كان هناك الرفيق مشرف وهو موظف بالسكة الحديد وغلباوي بعض الشيء ومن عشاق الكلام، وكان قد اتصل ببعض الشيوعيين بعض الوقت، ونقل عنهم بعض أدبيات الحنجوري، وأصابه عوج في اللسان فصار يتحدث مثلهم، مع أنه في الحقيقة بينه وبينهم مسافة أوسع من المسافة التي بين المريح والزهرة. فقد كان حافظا للقرآن ومجبا لسماعه، وكان يفخر دائما بأنه على علاقة بالشيخ منصور الشامي الدمنهوري. ولكن مصيبتة أنه تصور أن الحنجوري هي لغة المثقفين، ويبدو أنه اكتسب من خلالها موقعا متميزا بين شلة أصدقائه من موظفي السكة الحديد، ويبدو أن مشرف تصور أن الشيوعيين في الطريق إلى السلطة فحاول بكل الطرق أن يبدو وكأنه واحد منهم. ثم جاءت الكارثة ووجد مشرف نفسه حافي القدمين يرتدي ملابس (ميري) مهلهلة، والضرب على ودنه، والإهانات بلا حدود، عندئذ اتجه مشرف إلى أدواته القديمة، اعتكف يقرأ القرآن ويؤم المصلين يوم الجمعة، وكان أول من رفع الأذان في عنبر الشيوعيين بالواحات الخارجة!

كان هناك أيضا فهد شنودة، وهو بائع عيش في مدينة ساحلية،

وكان يغادر منزله كل صباح بعد الفجر يوزع العيش على البيوت، واستغل الحزب الشيوعي سذاجته وطبيعة مهنته، فكلفوه بتوزيع المنشورات مع العيش وتصور فهد شنودة أنه يؤدي مهمة جليلة، ولكنه فوجئ ذات صباح بالبوليس يقبض عليه ويلقى به في المعتقل. كان ذلك في بداية الثورة وفي عام ١٩٥٣ على وجه التحديد. وكان المعتقل السياسي لا يزال يعامل باحترام. وفوجئ شنودة بالمعاملة الكريمة ووجبات الطعام الطيبة، وكاد يفقد عقله عندما علم أنهم خصصوا له ستة جنيهاً شهرياً تسلم لأهله.. بدل اعتقال. يا لها من مهنة ظريفة، يجلس عمنا فهد شنودة مستريحاً في معتقله مع عدد من صفوة المثقفين في مصر، يلتهم كل يوم كميات لا بأس بها من الفراخ واللحوم وصواني البقلاوة، ويدخن ما يوزعه عليه التنظيم من سجائر يومياً، وهي سجائر متنوعة تبدأ بالبلمونت وتنتهي بالكنت، وستة جنيهاً مضمونة تذهب إلى بيته كل شهر، ولكن بلهنية العيش لم تستمر كالعادة، سرعان ما أفرجت عنه الحكومة بعد أن بدأت معركتها مع الإخوان المسلمين.

خرج فهد شنودة واستأنف حياته من جديد يوزع العيش والمنشورات كل صباح. وبحماس أشد، طالبا من الله أن يعيد اعتقاله ولمدة طويلة فيريح جسمه المكدود ويشبع معدته التي أحرقتها الفول والمخلل واستجاب الله لدعائه فجاءوا به إلى معتقل الواحات في عام ١٩٥٩، ولكن ما أبعد الصورة وما أعمق الفرق. الحكومة لم تعد تدفع مرتبات والطعام يقرف الكلب، والملابس هرايب، والأقدام عارية، والضرب على القفا لا تستطيع أن تحدد مصدره، واعتكف فهد شنودة في أحد الأركان يقرأ العهد الجديد ويكتب تظلمات للحكومة

على أساس أنه يباع عيش ولا يفهم في السياسة، وخرج فهد شنودة من المعتقل في عام ١٩٦٣، ولا أعتقد أن أحدا رآه بعد ذلك ويبدو أنه اكتفى بتوزيع العيش بدون منشورات!

أما أغرب هذه الشخصيات فكان يدعى أحمد عبده، وكان من سكان الجيزة، ولكنه ينحدر من أصول ريفية ومن طبقة فقيرة، وبعض أهله كانوا يعملون بنظام التراهيل، وكان قد اطلع على كتب الشيوعيين وقرأها، ولكنه لم ينضم إليهم في أي وقت، وكانت التنظيمات الشيوعية تنظر إليه في ريبة وفي شك، وكانوا يشيرون أنه على علاقة بضباط المباحث، وكان مسلكه يقف إلى جانب هذا الشك، فقد كان من عاداته اقتحام السراقات العامة والهتاف بشعارات شيوعية، وكان يجلس على المقهى ويعلن بصوت عال أنه من الشيوعيين، وكان يهدد التجار ويحذرهم بأن يوم حسابهم قادم عما قريب.

وعندما ألقوا القبض عليه خلال الحملة الشاملة، توجس الشيوعيون شرا من وجوده، وكان كثير الشغب في معتقل الفيوم ومع ذلك ظل في الفيوم لم يغادرها قط، لم يتعرض للموت في أبو زعبل، ولم يذق طعم العذاب في الواحات، وخرج بعد عامين ليواصل مسلكه نفسه في شوارع الجيزة، وعندما قامت ثورة التصحيح انضم لها بكل قوة. وحاول أن يعمل محررا في جريدة حزب مصر، ولكنهم فصلوه بعد أسبوعين فانقلب عليها ثم أصابه مرض غامض، فمات بعد قليل، مات وحيدا في غرفته في بيت متهدم في حارة كئيبة من حواري الجيزة، ولم يعثروا في الحجرة إلا على عدة كتب وبعض المنشورات وخطاب كان ينوي إرساله للمحافظ لمنحه شقة في المساكن الشعبية، باعتباره من أنصار الحكومة ومن أشد المؤيدين لها!!

الفصل السابع عشر

التنظيمات السرية عادة تجتذب إليها المؤمنين بالفكرة إلى حد الجنون، وتجتذب أيضا أصحاب العاهات وضعاف العقول.. والسرية - كما يقولون - جلباب يخفي ما تحته، ولذلك ازدهمت التنظيمات الشيوعية السرية بعبارة ومجانين، وعلماء وحمير، ومثقفين وأشباه مثقفين وجهلة أجهل من البعير، ومن سوء حظ الشيوعية، أو إن شئت الدقة من حسن حظ الشعب المصري، أن عددا من هؤلاء الحمير والبعير والمجانين تسللوا إلى موقع القيادة، وأصبح منهم القومسيار ومسئول التنظيم ومسئول التثقيف.

الرفيق إعدام!

هؤلاء كانوا السبب في تحجيم الحركة الشيوعية وتقزيمها وإقصائها عن حركة الجماهير ونبضها. وبعض هؤلاء «القتلة» قتلوا الحركة الشيوعية بحسن نية، وبعضهم ارتكب جريمته مع الترصد وسبق الإصرار، الذين قتلوها بحسن نية «قادة» مصريون من أمثال فخري حبيب، أما الذين قتلوها عن عمد فأغلبهم كانوا يهودا. ومعظمهم كانوا غير مصريين.

وهذه الحقيقة نتيجة مشاهداتي وتجاربي مع الشيوعيين في الحياة وفي سجن الواحات الخارجة، كما أنها شهادة زعيم من زعمائهم لا يرقى إليه أي شك، وهو في النضال دفع ثمنا باهظا لم يدفعه من الشيوعيين إلا قلائل لا يزيدون على عدد أصابع اليد الواحدة.

الزعيم الشيوعي الذي يقصده العبد لله هو مصطفى طيبة، وهو يعمل بالصحافة الآن وفي مؤسسة أخبار اليوم، وقد أصدر عدة كتب ضمنها تجربته الطويلة الرهيبة في التنظيمات الشيوعية المصرية، والتي أدت به إلى قضاء ١٣ عاما متصلة خلف أسوار السجن يقول مصطفى طيبة: إنه قبل حرب فلسطين بأسابيع وقبل قيام دولة إسرائيل، أصدر

الرفيق يونس وهو الاسم الحركي للمليونير اليهودي هنري كوريل، وكان يقود تنظيماً شيوعياً سرياً يدعى الحركة المصرية، وكان مصطفى طيبة هو أنبغ تلاميذه وأخلص أعوانه وأقربهم إليه، أصدر تقريراً وزعه على كوادر التنظيم، يتضمن الموافقة على حق اليهود القومي في تكوين دولتهم على أرض فلسطين، ووصف التقرير الحرب الدائرة في فلسطين بأنها صراع بين طليعة مثقفة وتقدمية «اليهود» ضد الرجعية العربية المتعفنة! ويقول مصطفى طيبة: إن هذا التقرير أحدث صدمة في دوائر الحزب وكان السبب في اعتزال أغلب الكوادر للعمل السياسي واستقالتهم من عضوية التنظيم. يقول مصطفى طيبة: «وفي خلال فترة زمنية قصيرة لم يبق في صفوف التنظيم من بين ٢٧٠ عاملاً في منطقة شبرا الخيمة إلا ٧٠ عاملاً فقط لا غير».

هذا العمى السياسي الذي كان يلوي ذراع الحقيقة لتخدم أهداف الزعماء اليهود في الحركة الشيوعية المصرية هو الذي أدى إلى انفصال الحركة الشيوعية عن بحر الشعب المصري! ولم تتوقف حلقات الوكسة السياسية التي ارتكبتها الحركة الشيوعية أحياناً بقصد وأحياناً بدون قصد، ولكنها أخذت تتوالى واحدة تلو الأخرى كموج البحر، فبعد حريق القاهرة بساعات، أصدر الحزب الشيوعي المصري منشوراً اتهم فيه الوفد والإخوان والاستعمار بالتآمر ضد الشعب المصري، وخلع على النحاس باشا وصف المضلل، واتهم حزب الوفد بأنه حزب البرجوازية الوطنية التي خانت الثورة وألقت بعلم الوطنية في الوحل، ثم دمع قيادة الوفد بالخيانة، هكذا ببساطة وكأن شيئاً لم يكن وبراءة الأطفال في عين الحزب الشيوعي المصري!

وبعد قيام ثورة ٢٣ يوليو بأيام، أصدر الحزب الشيوعي منشورا وصف فيه حركة الجيش بأنها «انقلاب عسكري فاشي جاء ليجر الشعب إلى الحرب الثالثة التي يستعد لها المستعمرون ضد الاتحاد السوفيتي وطن الاشتراكية وحصن السلام ونصير الشعوب»!

وفي ذروة خلاف عبد الناصر مع حلف بغداد كتبت «راية الشعب» إن الخائن عبد الناصر دعا الحكومات العربية لإقناعها بدخول الحلف حسب الخطة الاستعمارية الإنجليزية!

وعند سفر عبد الناصر إلى باندونج، كتبت «راية الشعب» تقول: إن الفاشستي المفلس جمال عبد الناصر يبحث عن المجد في باندونج! وظلت الأحزاب الشيوعية المصرية على موقفها المعادى لثورة ٢٣ يوليو إلى حد رفع شعار «إسقاط الحكومة.. الشريك الأصغر للاستعمار!» وبعد عام ١٩٦٢ بدأت الحركة الشيوعية تنتقل بسرعة الوعل من خندق معاداة عبد الناصر إلى خندق تأييده، وتدرجت من الإشادة بالنظام الذي يسلك «الطريق اللارأسمالي للبلاد المستقلة حديثا» حتى انتقلت الحركة الشيوعية عدة خطوات إلى الأمام، فوصفت النظام بأنه استفاد من تجاربه وتجارب الشعوب الصديقة، وبدأ في سلوك «طريق التطور الذي يقود في النهاية إلى الاشتراكية» ثم جاءت النهاية الدرامية بالزحف على تنظيم طليعة الاشتراكيين الذي أسسته القيادة السياسية الناصرية بعد أن حل الحزب الشيوعي تنظيمه المستقل!

ويزعم العبد لله أن هذه المسيرة الطويلة من الأخطاء والعثرات لا يمكن أن تكون لوجه الله، كان وراءها تدبير مقصود، وكان

وراءها أيضا حركات جنونية قام بها بعض الجهلاء وأنصاف المتعلمين وبعض المجانين، الذين كانوا يبحثون عن دور للزعامة وللقيادة.

وأبرز هؤلاء كان «فهمي حبيب» الذي تخصص في إحداث الانقسامات داخل الحركة الشيوعية والتشجيع على القيادة الأشد صلابة والأفضل نضالا والأقرب إلى نبض الشعب المصري، وكما حدث مع مصطفى طيبة نفسه، الذي اتهمه الزعيم العنترى إياه بعد ١٣ عاما خلف الأسوار، بأنه اتفق مع المباحث العامة على إطلاق سراحه مع وعد منه بالكف عن النضال والابتعاد نهائيا عن صف الحركة الشيوعية!! ثم عاد إلى الاعتذار، ولكن مصطفى طيبة رفض اعتذاره، فقد علمته تجربته الطويلة أن الحركة الشيوعية تضم في صفوفها عشرات من هذا المدعي المخبول.

والحق أقول إن الزعيم الهمشري إياه كان جهولا للغاية، في الوقت الذي كان يعتقد فيه أنه عبقرى الجيل وأنه مبعوث العناية الإلهية لإنقاذ مصر ووضعها على الطريق الصحيح.

أما جهله النشيط فكان واضحا للجميع فهو لا يعرف أي شيء عن تاريخ مصر أو جغرافيتها، كما كان مقطوع الصلة تماما بالمجتمع العربي، ولا يعرف عن جنس العرب إلا ما يعرفه الخواجات والمستشرقون، كل ما كان يعرفه هو كتاب رأس المال الذي حفظه عن ظهر قلب، وبعض كتب الرفيق لينين التي قرأها ليس للفهم ولكن للحفظ، أما الأدب فلم يكن على علاقة به من قريب أو بعيد، ولم يقرأ أي شيء له صفة الأدب إلا عدة صفحات من رواية الأم التي كتبها مكسيم جوركي، وفيما عدا ذلك فقد كان يخضع كل شيء وأي شيء

لنظرية التي يحفظها والقوالب الجامدة التي أعدها سلفا وكان يعتقد أنه يملك مفاتيح المعرفة وعنده سر الكون.

أما يوسف إدريس فهو مجرد برجوازي صغير، وزكريا الحجاوي مشروع مناضل خان شعبه، ونجيب محفوظ انتهازي يجيد وصف تفاصيل حياة الطبقة الوسطى المتفسخة. وكان غباؤه يصور له أنه قائد تاريخي على نفس المستوى الذي يضم لينين وستالين وتروتسكي.

وكان تحليله المريض يتنبأ بأن الثمرة نضجت وحن قطافها وأنه سيصبح رئيسا للدولة خلال السنوات الخمس القادمة! ولأنه لبس هذا الدور واقتنع به فقد كلف خمسة من أعضاء الحزب بالسعي للحصول على سجائر له، فإذا تعذر وجود السجائر فلا بأس من جمع الأعقاب لزوم مزاج الزعيم الذي سيقود مصر في القريب العاجل! والعجيب أنه كان بين الخمسة المكلفين بجمع أعقاب السجائر للزعيم صحفي ومحام ومحترف ثوري، واثنان من عمال النسيج! ومن نفس قماشة الزعيم المخبول إياه كان هناك عشرات، أبرزهم الرفيق ضياء وكان عضو لجنة منطقة. كان متشائما وكثيبا، ويعتقد اعتقادا جازما بأن الحزب الشيوعي المصري هو هدف كل أجهزة مخابرات العالم الغربي، وكان يؤمن إيمانا راسخا بأن المخابرات المركزية والمباحث الفيدرالية والأسطول السادس الأمريكي وسكوتلانديارد والمكتب الثاني الفرنسي كلهم بلا استثناء لا هم لهم إلا تعقب خطوات الرفيق ضياء ومحاصرته تمهيدا لتصفيته جسديا حتى يخلو لهم الجو من بعده، ولتتولى إخضاع المنطقة العربية من صنهاجة إلى صنعاء!

في البداية تصورت أن الرفيق ضياء يمزح أو يبالغ، ولكني بعد

وقت قصير من وصولي إلى سجن الواحات تأكدت أنه جاد جدا وأنه يؤمن إيماناً لا يتزعزع بأنه هدف كل أجهزة المخابرات الرجعية. وكان من عادة المرحوم إبراهيم العطار نائب رئيس تنظيم زمش الخروج يومياً من بوابة السجن والتحديد في الأفق البعيد ليكون أول من تقع عيناه على قافلة السيارات القادمة لترحيل المعتقلين الذين تقرر الإفراج عنهم. وكنا جميعاً نضحك من تصرف إبراهيم العطار، وفي الوقت نفسه كنا نتمنى من أعماقنا أن تتحقق نبوءته بقرب الإفراج عن المعتقلين في الواحات.

ولكن كل القتلة في الحزب الشيوعي كانوا ينظرون إلى مسلك إبراهيم العطار باحتقار شديد، وكان الرفيق ضياء هو أشدهم احتقاراً لهذا السلوك وأكثرهم جرأة على إعلان رأيه.. ويوماً بعد يوم تكاثر أنصار إبراهيم العطار الذين يذهبون معه كل صباح إلى الباب الخارجي وإلقاء نظرة على الصحراء العريضة لرؤية قافلة الإفراج.

كان من بين هؤلاء أحمد شوقي الصاعقة وعبد الموجود أبو زيد وعباس الديكي ومحمد عبد الواحد ومشرف والعبد لله، وذات يوم ونحن عائدون من رحلتنا اليومية قرب الباب، التقينا بالزعيم ضياء يقوم بجولته المعتادة في الحوش وقد تجهمت أساريره وبان الغضب على وجهه، وراح ينفخ بشدة وهي عادة عند الزعيم إياه وليست حالة طارئة وسألنا ضياء متهمكماً:

- الإفراج وصل؟

ورد عليه إبراهيم العطار:

- الميعاد بكرة إن شاء الله.

- ابقى قابلني إذا بكرة دا جه.

ووجدناها فرصة لمناقشة الزعيم الهمشري إياه، وجلسنا على الأرض وجذبناه بشدة لكي يجلس معنا، ورحنا نسأله عن سر تشاؤمه وضجره وقرفه من الناس والحياة.

وانطلق الزعيم الهمشري يتدفق في حماس شديد قال وكأنه يقرأ من كتاب مفتوح: الفرق بيني وبينكم أنني أرى المصير واضحاً أمام عيني بينما أنتم مصابون بالعمى لا ترون شيئاً، ولا تدركون هول الكارثة التي تنتظر الجميع. أنتم تتصورون أن الإفراج على الأبواب، بينما نحن في الحقيقة نخوض المعركة الأخيرة ضد قوى الرجعية والتخلف، وستنتهي المعركة عما قريب بشنق كل القوى اليسارية والتقدمية والديمقراطية وتخلص القوى العميلة من جميع مشاكلها بضربة واحدة وإلى الأبد.

ورد عليه إبراهيم العطار بأننا سنخرج من السجن وسيفرج عنا جميعاً، ووعد إبراهيم العطار بزيارته في المقهى التي يجلس فيها بعد الإفراج. ونظر ضياء نحونا بإشفاق وقال وهو ينهض من مكانه موجهها كلامه إلى إبراهيم العطار:

ستكون في أول دفعة من المعتقلين تواجه الإعدام وسيتم ذلك في القريب العاجل، وسأرثي لك وأنت معلق على حبل المشنقة!

وابتعد ضياء عنا مسرعاً، ولكننا خرجنا من الحديث بنتيجة لا بأس بها، وأضفنا إلى اسمه لقب إعدام، وأصبح ضياء إعدام. ورد علينا بإضافة كلمة إفراج إلى اسم إبراهيم العطار.. فصار إبراهيم إفراج.

ومضت بنا الحياة في سجن الواحات على هذا النحو، نحن مع الإفراج وهو في صف الإعدام، وكانت أنباء الإفراج التي تصل تزيدها أحيانا وكالة واس تثيره وكان دائم الدخول في معارك مع الزملاء الذين يشيعون جوا من التفاؤل داخل المعتقل، ثم مضت الأيام وخرج الجميع إلى الحياة العريضة. واجتمع العبد لله في اجتماع حزبي مع الأخ ضياء. ووقف في حماس شديد وألقى خطبة عصماء، ووصف الحكومة «الفاشستية العميلة» بأنها حكومة العمال والفلاحين ورائدة الاشتراكية في الوطن العربي واتهم خصومها بالعمالة والخيانة، وطالب بالإعدام للجميع!!

نموذج آخر يدعى نوح، وكان عاملاً سرياً على باب الله يبيع الخضراوات في إحدى مدن محافظة الشرقية، وكان أمياً لا يجيد القراءة والكتابة ولكنه كان لماحا وشديد الذكاء.

وكان يحفظ عن ظهر قلب بعض العبارات الخنفسارية التي تعلمها من التنظيمات الشيوعية كان يصف الشيوعيين المعتدلين بالتيتاوية ويصف غير الشيوعيين بالعملاء. والتنظيمات المعادية لتنظيمه بأن جميع أفرادها جواسيس وعملاء للمباحث، أما «فهمي حبيب» المسئول الأول في تنظيم نوح، فهو المعلم والرائد والمدافع الشرس عن حقوق الكادحين ولم يكن يقبل أي نقاش في هذه البديهيات التي يؤمن بها! فالناس عنده إما تيتوي وإما مباحث وإما خائن وإما عميل. ولم يكن يعلم أي شيء عن مصر أو غير مصر، ولم يكن يعرف أحد من رجال الثورة إلا ثلاثة: عبد الناصر وعبد الحكيم عامر والراجل بتاع الداخلية زكريا محيي الدين. وكان يعتقد اعتقاداً راسخاً لا شبهة

فيه أن الجيش المصري يحكم مصر، بمعنى آخر يتعين على كل مواطن
لكى يحصل على حق من حقوقه، عليه أن يحصل على تأشيرة بالموافقة
من أحد ضباط الجيش.

وعندما حاولنا تصحيح معلوماته الخاطئة نظر إلينا في غضب
وقال: هو انتو عارفين حاجة، تعالوا شوفوا البلا اللي إحنا فيه، ساكن
نواحيننا واحد ضابط أبوه كان غلبان، النهاردة عقبالكم عربية بتوديه
وعربية بتجيبه، وكل يوم وهو مروح يشتري جواقة وعنب وبطيخ!!
وكان إذا ضاق بنا وبالمناقشة أسرع إلى جردل البول وجلس عليه
وراح يقضي حاجته ناشرا روائح كريهة في جو الزنزانة. فإذا حاول
أحدنا أن يلفت نظره إلى قضاء حاجته في دورة المياة قبل موعد التهام
نظر إلى السقف وانهمك في الغناء، وكان غناؤه أسوأ بكثير من رائحة
فضلاته، وكان يغني أغنية واحدة مبتورة، وبصوت أشبه بصوت
البقرة التي على وشك الوضع، كان صوته غالبا يبعد النوم عن عيون
العساكر، فيهبون من النوم ساخطين لاعنين أبو الأيام التي حكمت
عليهم بالمجيء إلى سجن الواحات، حيث لا يوجد شيء في هذا المنفى
البعيد إلا تعب القلب ووجع الدماغ!

الفصل الثامن عشر

في ذلك الصباح جاء العساكر وفتحوا أبواب الزنازين كالعادة، ولكنني لاحظت اختلافا عميقا في الأسلوب. فتحوا الأبواب بلطف غير معهود، ثم ألقوا علينا تحية الصباح بشكل مهذب لم نعهده فيهم خلال الشهور الطويلة الماضية، ولم يدفعونا دفعا إلى دورة المياه. ولم يتعجلوا خروجنا للعمل، وأكثر من ذلك منحونا إجازة من العمل في ذلك اليوم.

مفتى الديار الشيوعية!

وساد السجن موجة من التخمينات، وأفتى الزعيم فهمي حبيب بأن السلطة اضطرت تحت الضغط الشعبي، والزحف الجماهيري إلى تغيير أسلوب تعاملها مع الشيوعيين وستضطر مرغمة في الأيام المقبلة إلى الإفراج عنهم والدخول معهم في جبهة بعد أن وجدت نفسها في طريق مسدود بسبب سياستها الخرقاء والمعادية لمعسكر اليسار والاشتراكية، ولكن عرفنا سبب المعاملة الحسنة والسلوك الطيب من جانب إدارة السجن، وسر منع تشغيلنا في حمل الرمال وشق المصارف في الصحراء، عندما أذاعت وكالة (واس) التي كان يديرها عبد الستار الطويلة أن حادثا مؤسفا وقع في سجن أبو زعبل أودى بحياة الأستاذ شهدي عطية. وكان المرحوم شهدي عطية أحد المثقفين المصريين القلائل المعروفين على المستوى الدولي. وقد بدأ حياته مدرسا للغة الإنجليزية في المدارس الثانوية. وكان أول مفتش عام للغة الإنجليزية بوزارة المعارف بعد تمصير هذه الوظائف. وقد دخل السجن قبل الثورة واعتقل أكثر من مرة وعندما اعتقل في المرة الأخيرة كان أحد قادة تنظيم حدثو، الذي كان يرى أن عبد الناصر

وطنيا يحقق مصلحة الطبقة الوسطى ومصالح الطبقات الدنيا ويعادي
معسكر الاستعمار والأحلاف العسكرية.

وكان تنظيم حدتو يختلف اختلافا جوهريا عن الحزب الشيوعي
المصري، الذي كان يتهم عبد الناصر بالعمالة والرجعية والفاشية
ويرفع شعار الإطاحة به وبحكومته! ولكن إدارة سجن أبو زعبل لم
يكن لديهم الوقت الكافي للتفرقة بين شيوعي وآخر، ولذلك جاءت
ضربتهم في الموضع الخطأ. وانهالت هراواتهم على رأس المرحوم
شهدي عطية ولم تتركه إلا جثة هامدة. وكان الرئيس عبد الناصر
في ذلك الحين في زيارة ليوجوسلافيا، وكان يحضر جلسة للبرلمان
اليوجوسلافي عندما فوجئ بأحد الأعضاء يدعو المجلس إلى الوقوف
دقيقة حدادا على المناضل شهدي عطية الذي سقط شهيدا في أحد
السجون المصرية. وفي المساء.. طلب عبد الناصر تقريرا عاجلا عما
حدث في سجن أبو زعبل، ثم طالب بالتحقيق الفوري مع المسؤولين
عن الحادث، ثم انتهى التحقيق بطرد مصطفى عشوب مدير المباحث
العامة فرع القاهرة، وإحالة المسئول عن معتقل أبو زعبل إلى
الاستيداع، وتوقفت على الفور كل الإجراءات الاستثنائية في
المعتقلات الشيوعية. كما تقرر تصفية معتقل أبو زعبل ونقل جميع
المعتقلين إلى سجن الواحات تحت سيطرة المأمور فريد شنيشن، الذي
فرض النظام على السجن ولم يرتكب جريمة واحدة.. وبدأت الحياة
تصفو داخل المعتقل، وطراً تحسن خفيف على أنواع الطعام التي
يقدمها السجن، خصوصا في الخبز.

عاد الشيوعيون إلى عقد المؤتمرات ومناقشة الأحوال خارج

الأسوار واحتدم الصراع بين المنظمات الشيوعية، وجرت عمليات انتقال للأفراد من تنظيم إلى آخر، وكان الربيع في أوجه ونسائمه تذكرني بروعة الحياة في ريف مصر، وسألت الله أن يخرجنا من هذا القبر الذي انحشرنا فيه، وتمنيت أن تسمح لنا إدارة السجن بمغادرة الزنازين ليلا لكي نعيش ليل الواحات في ذلك الجو الرائع. ولكني سرعان ما نسيت كل شيء واندمجت في جو السجن من جديد، وساعدني على ذلك سلسلة المحاضرات القيمة التي كان يلقيها بعض المعتقلين أصحاب الخبرة والعلم، وقد استفدت كثيرا من محاضرات قيمة للغاية للأستاذ أديب ديمتري والأستاذ فايق فريد والأستاذ أسعد حبيب والأستاذ علي الشلقاني والمرحوم محمود المانستري، الذي كشف في محاضراته القيمة عن دوره في تنظيم الضباط الأحرار وعن سبب خلافه مع قادة الثورة. وكانت هذه المحاضرة سببا في وقوفي على حقائق جديدة كنت أجهلها عن ثورة ٢٣ يوليو، كما كانت سببا أيضا في أنني ظلت أحمل تقديرا كبيرا للمرحوم المانستري، فقد كان يستطيع - لو أراد - أن يصل إلى أعلى المناصب وأن يحظى بصولجان السلطة وينعم بكل أبهةا، ولكنه أثر أن يقول رأيه وتحمل نتيجة هذا الموقف سجننا وتعذيبا وتشريدا وبقاء في الظل حتى مات يرحمه الله.

وكما في أفلام السينما تقع الكوارث عندما يشعر البطل بأنه صار في أمان. ويأتي الفرج عندما يتصور البطل أن كل الأبواب أغلقت وكل المنافذ سدت وكل الأنوار أطفئت. عندما علمت أن المعتقلين في أبو زعبل في طريقهم إلى الواحات، تصورت أننا سنقضي العمر كله هناك، وطبيعي أن تتحسن المعاملة ما دامت الإقامة ستطول. وانتابني

غم شديد، فقد كنت في الواحدة والثلاثين يوم اعتقالي وهأنذا الآن على أبواب الثالثة والثلاثين والنظام في القاهرة يبدو قويا وعفيا، ورجال الثورة جميعا في سن الشباب، وسنموت قبلهم لا محالة.

عندما عشتت في مخي هذه الفكرة البائسة، حدث ما لم يكن في الحسبان. وصل قطار الواحات في الخامسة مساء ونزل منه خمسة عشر جنديا وأربعة ضباط بينهم ضابط عظيم برتبة عقيد، وعندما وصلوا إلى بوابة السجن، انطلقت الصفافير، وانتشر الحراس في الفناء وداخل العنبر يحشرون المعتقلين داخل الزنازين. ولم تلبث الأنباء أن وصلت إلى العنبر بأن الحملة جاءت ومعها كشف من تسعة أسماء سيتم ترحيلهم في الغد، وأفتى الزعيم فهمي حبيب على الفور بأن التسعة المطلوبين من زعماء الحزب الشيوعي المصري، وسرح بخياله بعيدا فحدد أسماء التسعة ووضع اسمه على رءوس قائمة الزعماء المطلوبين. وأفتى الرفيق فهمي حبيب بأن النظام بدأ في تنفيذ الخطوات الفعلية لتصفية المعتقل، وأنه سيبدأ بقتل الزعماء، وهؤلاء التسعة هم طليعة الشهداء. ولم ينجل الزعيم الهمشري فهمي حبيب عندما فتحوا العنبر في التاسعة مساء وبدءوا في تلاوة أسماء المطلوبين.

كان أول اسم في القائمة هو اسم الحاج محمد عبد الواحد زعيم نقابة الغزل والنسيج بكفر الدوار، وكان الاسم الثاني هو اسم أحمد شوقي الصاعقة مسئول الأمن الغذائي في تنظيم زمش وكان آخر اسم في الكشف هو اسم العبد لله، وسرت في أنحاء العنبر نسمة تفاؤل، فهي نقطة بداية لتصفية المعتقل وقد بدأت الرحلة بالإفراج عن العناصر الأقل خطورة، وهو وضع طبيعي يبشر بالخير، والتف

الرفاق حولنا يزفون إلينا التهئة ويتمنون لنا حياة سعيدة خارج الأسوار. ولكن الزعيم فهمي حبيب والرفيق ضياء إعدام وواحد اسمه عبد الله شامل كان مسئول التنظيم في الحزب الشيوعي، كان هؤلاء الثلاثة كأنهم في مأتم، وحزنوا حزن غرائب الإبل؛ لأن جميع تحليلاتهم طلعت على فاشوش. وانتاب العبد لله نوع من الذهول، لأنني كنت بالرغم من تفاؤلي الظاهري، كنت شديد التشاؤم في داخلي، وكان لدي إحساس عميق بأنني لن أري شوارع القاهرة مرة أخرى ولن تكتب لي العودة إلى المنزل في يوم من الأيام.

وكان يؤرقني هاجس سيطر على تفكيري طويلا، أن يتتابني مرض خطير فأتوفي بسببه إلى رحمة الله، أو يلدغني ثعبان طريشة فأنقل إلى الدار الآخرة. والموت حق. وهو لا يخيف العبد لله لأننا جميعا سندوقه، ولكن الذي كان يخيفني حقا هو أن تدفن جثتي في الواحات الخارجية، فلا يزور قبري أحد ولا يمر به إنسان. ولذلك عندما سمعت اسمي يردده الضابط انخلع قلبي وطار عقلي شعاعا ورحت أعدو كالمجنون من جانب إلى جانب آخر. وصرaxي يسبقني بكلام ليس له معنى، ولكنني أذكر أنني رددت في سياق هذه الهلوسة التي انتابتني أسماء فهمي حبيب وضياء إعدام.

كان إبراهيم العطار هو أكثر الناس ابتهاجا بما حدث مع أنه لم يكن ضمن كشف الإفراج. وتوقعنا لأنفسنا سهرة طيبة داخل العنبر حيث سيحتفل بنا الرفاق، خصوصا رفاقنا في زمش وفي حدتو ومن أعضاء الحزب الشيوعي المصري الذين لا يؤمنون بالتحليلات الغبية لأخينا فهمي حبيب، ولكن فرحتنا لم تدم، فقد دخل العنبر فجأة الضابط

عثمان وأبلغنا بأننا لن ننام الليلة في العنبر ولكن في خيمة نصبت لنا خصيصا في فناء السجن، لأننا سوف نستيقظ في الرابعة صباحا لكي نلحق القطار الذي سيغادر الواحات في الخامسة صباحا. وشعرت بالحزن لأننا سنحرم من قضاء الليلة الأخيرة مع بقية الرفاق، ولكننا نفذنا الأمر بالطبع، بعد أن طفت على أعضاء زمش وودعتهم جميعا فردا فردا، ثم أصدرت قرارا بتعيين إبراهيم العطار خلفا للعبد لله لزعامة تنظيم زمش.

قبل أن أغادر العنبر للمرة الأخيرة، لمحت محمود المانستري وسيد عبد الله يسرعان نحوي، وكنت أحترم الاثنين وأشعر نحوهما بود عميق، فتلقيتهما بالأحضان، وهنأني المانستري ثم قال لي بود عميق: لي عندك رجاء أتمنى أن تحققه لي. وقال سيد عبد الله: وأنا أيضا أضم صوتي إلى صوت الرفيق محمود. وأصغيت باهتمام شديد إلى محمود المانستري، فهمس لي وعلى وجهه البشوش ابتسامة طيبة.. أرجوك يا محمود.. لا تشنع علينا في الخارج. قلت للمانستري ضاحكا.. دا طلب صعب قوي يا عم محمود. فأجاب محمود والابتسامة لا تفارق شفتيه.. أنا لست معتوها لكي أطلب منك عدم التشنيع مدى الحياة ولكنني أطلب منك عدم التشنيع علينا أثناء وجودنا خلف الأسوار. قلت له جادا.. هذا الطلب مقبول وسأنفذه لك. ولكن بعد الإفراج عنكم قريبا بإذن الله، سيصبح التشنيع على الكيف يا عم محمود. ورد المانستري وسيد عبد الله في وقت واحد.. اتفقنا..

خرجنا إلى الحوش وكنا في التاسعة مساء على وجه التقريب، والجو رائع والطقس بديع والبدر يتوسط السماء، ووقفت كالمذهول أتأمل

المنظر وكأن بصري لم يقع على الطبيعة من قبل. واستولى علي شعور غريب هو مزيج من الدهشة والفرحة والرغبة في البكاء. السكون الذي يلفنا ليس له مثيل في أي مكان، فلا توجد هنا ضفادع ولا حتى حشرات، ومنظر الصحراء الممتدة إلى آخر الدنيا يجعل الخيال يشطح في كل اتجاه.

ولكن سرعان ما تبدد السكون وأقبل علينا الضابط عثمان وبصحبه أحد الصولات وموظف يحمل عدة دفاتر وجندي عجوز يبدو أنه نهض لتوه من النوم. وفتح الموظف دفاتره ووزع على كل منا قيمة الأمانات التي كانت له ولم تسلم إليه على مدى أربعة عشر شهرا. كان للعبد لله مائة وأربعون جنيها وتسعة جنيهاات وعدة قروش، تسلمت منها مائة وأربعين جنيها فقط، ثم اعتذروا لعدم وجود فكة لديهم. وأعطوني بثمانها مأكولات وعلبا محفوفة من الكانتين. وفعلوا نفس الشيء مع الآخرين.

ولما كنا في طريقنا إلى الحرية، فلم نكن في حاجة إلى هذه المأكولات فاستأذنت الضابط عثمان أن نترك ما معنا من مأكولات للمعتقلين، ولكنه اعتذر لأن الأوامر صريحة، المهم، توصلت للضابط عثمان أن يعفينا من حمل هذه الأثقال ويسمح لنا بمنحها هدية منا للعساكر.. ولكنه رفض! طلبت منه أن نعطيها للمساجين في قضايا جنائية، وفكر قليلا ثم وافق ثم طلبت منه أن يستدعي المسجون عاشور لكي نسلمه هذه المأكولات.

كان عاشور هو أشرف مسجون في سجن الواحات، وكان قد حكم عليه بالسجن المؤبد لقتله جنديا إنجليزيا في منطقة القناة. صحيح أنه

حرامي. ولكنه حرامي معسكرات، وهو اضطر إلى قتل العسكري عندما ألقى القبض عليه وهو داخل المعسكر، ولكن الذي حدث بعد ذلك أن عبد الناصر أصدر قرارا جمهوريا بالإفراج عن المحبوسين في جرائم ضد قوات الاحتلال.. باعتبار أن جريمة الاحتلال تجب كل الجرائم. وخرج من السجون عدة مئات، ولكن عاشور وحده هو الذي تركوه خلف الأسوار. والسبب أن عاشور ارتكب جريمة داخل السجن، عندما قتل أحد الحراس بسبب غبائه ورغبته الشديدة في تعذيب المساجين. وحدث في سجن الواحات أن اعتدى بالضرب على حارس آخر وأصابه بارتجاج في المخ. وقد صدر ضده الحكم بالجلد. ونقلوه من عنبر المساجين إلى عنبر المعتقلين وحسوه في زنزانة انفرادية لا يفتح بابها إلا لتسلمه الطعام والشراب.

حدث في تلك الأثناء وهو محبوس حبسا انفراديا لا يرى فيه الشمس ولا ضوء النهار، أنني أثناء مروري بالزنازنة أجريت معه حديثا من وراء الباب وعرفت أنه من الإسماعيلية وعلى علاقة ببعض الذين أعرفهم هناك ثم بعد أن انتهى الحديث ألقيت له بعلبة سجائر من خلال قضبان الباب. ثم قمت بنفس الشيء عدة مرات خلال الشهر الذي قضاه في زنزانة التأديب. وعندما أعادوه إلى عنبره أصر على مقابلي لي شكرني بحرارة وعندما تدهورت أحوالنا في المعتقل، رد عاشور الواجب بصورة مضاعفة فمدنا بالسجائر والطعام. وكان إعطاؤه ما معنا من مأكولات هو رد لجميله الذي لا أنساه.

جاء عاشور إلى الفناء والدنيا بين الليل والنهار. وعندما رأي أن ارتدى البدلة الملكي لم يتعرف على العبد لله وظن أنني أحد رجال

الشرطة فعظمني بحرارة وناداني بسعادة الباشا. ولما عرفته بنفسي بكى من شدة الفرح وهتف قائلاً: الحمد لله اللي فك سجنك.. وعندما أعطيته ما معنا من مأكولات. بكى مرة أخرى وأصر على أن يذهب معنا إلى المحطة. ولكن الصاغ عثمان رفض طلبه بالطبع وأعادته من حيث جاء.

ركبنا قطار الواحات بشكل لا يبشر بخير. كل معتقل منا مربوط في حديد مع عسكري، والضباط الأربعة أحاطوا موكبنا بشكل يدل على أننا لا يمكن أن نكون في الطريق إلى الإفراج. وبقية العساكر اختبروا أسلحتهم ووقفوا يحرسون أبواب العربات التي نجلس فيها.

عندما وصلنا إلى محطة أبو طشت تأكد للعبد لله أننا في طريقنا إلى الإعدام. كان أكثر من مائة عسكري يحتلون المحطة وكلهم مسلحون بالمدافع الرشاشة والبنادق السريعة الطلقات. وعندما جاء القطار الذي سيحملنا إلى القاهرة منعوا المسافرين من الاقتراب من العربات التي سنركبها ووضعونا في أول عربة خلف القاطرة، وهي من عربات الدرجة الأولى. وعلى طول الطريق كانت الحراسة مشددة في جميع المحطات التي مر بها القطار، حتى المحطات التي لم يتوقف القطار بها. أما المحطات التي توقفنا بها فكانت أشبه بميدان حرب: عساكر مسلحون وضباط يحملون المسدسات في أيديهم والقوة كلها تحت قيادة لواء.

وفي محطة أسيوط حدث فصل مضحك رغم الظروف البائسة.. دخل العربة لواء جيش صرخ عندما وقع بصره علينا فقد كان منظرنا لا يسر عدوا ولا حبيباً.. ملابس مهلهلة كانت مركونة في المخزن لمدة

١٤ شهرا وأحذية معطوبة ومجروحة ووسخة إلى الحد الذي يجعل من يراها يتصور أن صاحبها قضى شهرا على الأقل يخوض في منطقة مستنقعات.

المهم أن اللواء صرخ فينا يأمرنا بالخروج على الفور. لقد تصور الرجل الطيب أننا مجرمون من عصابة في الجبل الغربي. ولكن الضابط المسئول جاء على عجل وهمس في أذن اللواء بعدة كلمات غادر على أثرها العربة وانتقل إلى عربة أخرى.

عندما غادرنا القطار في فجر اليوم التالي بمحطة الجيزة، كانت المحطة والساحة الممتدة أمامها تبدو كأنها ميدان حرب عساكر من بلوكات النظام وعساكر درجة أولى، وعربات نجدة وعربات شرطة ومدافع وبنادق على كل لون. وسارت بنا سيارة شرطة من النوع الذي يستخدم في نقل العساكر، وأمامنا وخلفنا سيارات حراسة من كل الأنواع. واخترقت شوارع الجيزة. وعندما وصلنا إلى ميدان الجيزة، حاولت أن ألقي نظرة عليه ولكنني فشلت. فقد كان الجزء المفتوح من السيارة مسدودا تماما بعساكر الحراسة. وأخيرا توقفت بنا السيارة أمام سجن القلعة. ونزلنا من السيارة ونحن في شوق إلى دخول السجن لكي نشرب شايا ونستريح. ولكن مأمور السجن رفض تسلمنا لأنه ليس لديه أوامر بذلك وجلسنا على دكة أمام باب السجن، وبعد اتصالات أجراها المأمور مع المباحث العامة عدنا إلى السيارة من جديد في طريقنا إلى معتقل الفيوم.

عندما وصلنا إلى معتقل الفيوم وجدنا الضابط العيسوي في استقبالنا كان قد تغير كثيرا، ويبدو أنه تغير لأن الأوامر تغيرت!

استقبلنا بود وعاملنا بلطف شديد. وكان المعتقل قد تغير أيضا. فلا شتائم ولا تعذيب، والأبواب مفتوحة طوال النهار. والمعتقل حر يخرج ويدخل على كيفه، واكتشفنا وجود بعض المعتقلين لم يغادروا الفيوم في أي وقت. منهم المعتقل أبو حليقة والدكتور محمد الخفيف. ولما كان مسموحا بممارسة الرياضة، فقد انضمت على الفور إلى فريق كرة القدم. وبدأ أن الحياة ستبتسم للعبد لله من جديد!

الفصل التاسع عشر

كانت القعدة في معتقل الفيوم بمثابة إجازة سعيدة بعد فترة التعذيب الطويلة التي قضيناها بمعتقل العزب بالواحات الخارجة. كان بالمعتقل الدكتور محمد الخفيف المشرف على طابور الصباح.

والجماهير آه ياني!

وكان يحلو له معاملة المعتقلين الذين يؤدون التمارين الصباحية بنفس الأسلوب الذي كان يعاملهم به الشاويش محمد غطاس في الفترة الأولى من المعتقل. وكنا نداعب الدكتور الخفيف بالإضراب عن طابور الصباح، وأحيانا كنا نهتف بسقوطه وسقوط غطاس.

كان غطاس الذي فقد نفوذه وفقد دخله الوفير الذي كان يحققه عن طريق فرض الجزية على المعتقلين وإلا تعرضوا للهلاك على يديه، قد مارس إضرابا صامتا عن العمل، فكان يقضي النهار كله على مقعد بجوار دورة المياه لاعنا الزمن النكد الذي أوقف عملية التعذيب ضد المعتقلين وكان ينفخ أحيانا من شدة الضيق إذا مر به بعض المعتقلين وهم يلقون النكت ويضحكون. وكان أحيانا لا يستطيع السيطرة على أعصابه فيهتف وكأنه يحدث نفسه.. اتفو على دا زمن..

وبعد طابور الصباح والتجول في فناء المعتقل نقوم بزيارة بعض المعتقلين من الأصدقاء في العنابر البعيدة، ثم نعود إلى عنبر (١) لتناول طعام الغداء.. كنت أتناول طعام الغداء مع شوقي الصاعقة، وكان

يعد الطعام لنا زميل ماركسي دخل المعتقل من أجل طبقة واحدة تسود المجتمع كله وتقود المسيرة إلى اللجنة الموعودة حيث لا سيد ولا طباح! ولم نكن وحدنا الذين أتاحت لنا الظروف طباحا ماركسيا يعد أطايب الطعام بشرط أن يوفر له جميع المواد الخام التي تحتاجها مائدة عامرة بكل ما لذ وطاب.

كان ينضم إلينا على مائدة الغداء المعتقل إبراهيم أبو حليقة.. وكان يحضر معه طعامه الذي طبخه زميل شيوعي اسمه أحمد فازيكا. وكان الدكتور محمد الخفيف يشاركنا الطعام أيضا بعد أن يحضر معه ألوانا شتى من الأطعمة طبخها زميل ماركسي ثالث اسمه سعفان. كنا نحن البهوات المعتقلين نجلس على مائدة واحدة نتناول الطعام، وفي الناحية الأخرى من العنبر يجلس الطباخون المعتقلون يتناولون الطعام ويثرثرون بأحاديث عن رأس المال وفائض القيمة والتناقض بين الثورة والدولة!

أغرب شيء أن التيار الذي يدعو إلى عالم بلا طبقات وسيق أفراداه زرافات إلى المعتقل، لم يستطع أن يخلق هذا العالم خلف الأسوار، لقد انقسمنا في معتقل الفيوم إلى يساريين بهوات ويساريين أجراء. كان معنا نقود ولم يكن معهم شيء فاشتغلوا في خدمتنا لكي يضمنوا الطعام والسجاير والشاي، يا لها من صورة مضحكة ولكنه ضحك كالبكاء، وسمعنا ونحن في الفيوم أن التليفزيون المصري بدأ إرساله وأن نظام الحكم المحلي قد بدأ تطبيقه، وأن هناك حركة تعمير كبرى تجري على قدم وساق في مختلف المحافظات.

وأكد لنا معتقل حديث أن ملامح المجتمع الجديد بدأت تظهر بوضوح وأن هناك حالة من الازدهار والاستقرار آخذة في النمو والانتشار في كل أنحاء البلاد وعلى جميع المستويات. ولكن بعض الزملاء المعتقلين هبطوا على معتقل الفيوم قادمين من الواحات قرروا أن النظام في احتضار وأن الجماهير الشعبية غاضبة وأن الثورة الشعبية على الأبواب!!

إذن لا تزال نظرية عبد الستار الطويلة هي السائدة في الحزب الشيوعي المصري وهي النظرية التي أفصح عنها عبد الستار الطويلة حين سأله عن الطريقة التي ستخرج بها من المعتقل فأجاب بثقة شديدة.. سنخرج بزحف جماهيري يحطم أسوار المعتقل ويأخذنا على الأعناق إلى الحرية وإلى السلطة وإلى حيث يجب أن نكون!

وأذكر أنني يومها ألقيت نظرة على الخارج من خلال نافذة السجن ثم صحت في وجه عبد الستار.. لا أثر هناك لأي زحف جماهيري، والعساكر فقط هم الذين يزحفون!

ومرت الأيام بنا بطيئة في معتقل الفيوم ولكنها مرت في هدوء وهزتنا من الأعماق أغنية جديدة للعندليب عبد الحليم حافظ (ع الشوك مشاني زماني) ولم يكن الزمان في الحقيقة هو الذي مشى بنا على الشوك ولكنه التحليل الخاطيء للحزب الشيوعي المصري والذي أدى بالحزب إلى الانضمام لجانب عبد الكريم قاسم بحماس وبعجنون والوقوف ضد عبد الناصر بنفس الحماس والجنون أيضا.. وعلى أساس أن عبد الكريم قاسم هو ممثل اليسار العربي

ضد عبد الناصر (الفاشستي الصغير وعميل المخابرات الأمريكية) وليس أدل على الطفولة السياسية التي كانت طابع الحزب الشيوعي المصري أنه في الوقت الذي كان الحزب يؤيد فيه عبد الكريم قاسم، كانت السلطة في بغداد تعادي الجميع.. رجعيين ووطنيين وقوميين وشيوعيين.

كانت سجون بغداد والموصل والبصرة تضيق بألوف النزلاء السياسيين من جميع الاتجاهات ولكن.. أخطر سلبيات الحزب الشيوعي المصري أنه لم يكن لديه معلومات إلا المعلومات التي يحصل عليها من الرفاق في الحزب الشيوعي العراقي والحزب الشيوعي السوري أيضا. وأخطر شيء في السياسة أن نشتغل بها بدون معلومات حقيقية ولكن مشكلة المعلومات لم تكن في دائرة اهتمام الحزب الشيوعي المصري، وهذا هو السبب الحقيقي وراء الأحكام الخنفسارية التي أصدرها الحزب الشيوعي وآمن بها فترة من الزمان، فالزعيم عبد الناصر عميل أمريكي.. كده وبس! والنظام المصري فاشستي.. ممنوع الاعتراض! ونظام عبد الكريم قاسم بالعراق هو الذي سيملاً الأرض زهوراً ووروداً وسيفجر الأرض بالعسل والسمن واللبن الحليب.. ومفيش مناقشة! وهو الأسلوب الذي أدى بالحزب إلى اتهام ماركسي مصري هو الأستاذ فيليب جلاب - وهو بالتأكيد من أشرف من عرفتهم في حياتي - اتهمه الحزب بأنه جاسوس للمباحث العامة، والسبب أن عملية القبض عليه تأخرت بعض الوقت.

كان الأستاذ فيليب قد تمكن من الهرب والاختفاء عدة أشهر قبل

أن تصل إليه يد الشرطة وتأتي به إلى المعتقل ! كان أغلب الشيوعيين الذين استقروا في معتقل الفيوم ولم يغادروه إلى أي معتقل آخر.. كانوا من النوع مكسور الجناح وكان بعضهم على علاقة ببعض أصحاب النفوذ فأبقوهم في الفيوم وأنقذوهم من الموت في أبي زعبل ومن العذاب الشديد في الواحات، وكان قلة قليلة منهم على علاقة بأجهزة الأمن قبل المعتقل وبعده.. من بين هؤلاء المدعو أحمد عبده الذي كان يحرص على أن يبدو متطرفا أكثر من لينين نفسه. وكان يعتمد جرجرة الآخرين إلى النقاش حول النظام المصري، وكان واضحا أنه يريد الإيقاع ببعض المعتقلين ولكن محاولاته كانت مكشوفة ولذلك كان أغلب نزلاء العنبر ينامون أو يتناومون عندما يبدأ أحمد عبده المناقشة!

ولكن رغم تشاؤم الحزب الشيوعي وإصراره على الإطاحة بالنظام كانت هناك بعض الإشارات التي تدل على أن الأزمة في طريقها إلى الانفراج، فقد أخذت كلمة التعاونية تتردد على ألسنة بعض المسؤولين من الصف الثاني. كما وصلت إلينا أخبار من سجن الواحات بأن ضابطا كبيرا في جهاز المخابرات اجتمع أخيرا مع بعض قادة التنظيمات الشيوعية بالواحات وأبلغهم بعد مناقشة طويلة أن الإفراج عن المعتقلين الشيوعيين تقرر بصفة مؤكدة، وأن المسألة مسألة وقت.

حدث أيضا أن دخل معتقل الفيوم ضابط مباحث وألقى كلمة قصيرة في المعتقلين، أعلن فيها أن لديه أوامر بنقل المرضى بأمراض خطيرة إلى المستشفيات. ووجدها العبد لله فرصة فادعيت أنني

مريض بالسل ولم أكن مريضا بالسل ولا حتى بالإنفلونزا ولكنني كنت أطمع في الخروج من المعتقل والبقاء في أحد المستشفيات. وبالفعل نقلونا ذات صباح في سيارة لوري بمقاعد مكسوة بالقماش وذهبوا بنا إلى مستشفى الفيوم العام وهو مستشفى لأن على بابه يافطة تشير إلى ذلك، وبعد أن كشفوا طيبا على صدورنا وعلى قلوبنا عادوا بنا في العصر إلى المعتقل. ولكنني ما زلت أتذكر هذا اليوم وأعتبره من أجمل أيام حياتي. فهذا هو الشارع وهذا هو الأسفلت بعد غيبة طويلة وراء الأسوار. وواحد بتاع خيار واقف على الناصية يغني بصوت ولا صوت محمد طه.. يا خيار يا قشطة يا بتاع الجنانين يا لوبيا.. تمنيت في لحظتها أن أكون بائع خيار سريحا أتجول في الشوارع وأتوقف عند النواصي وأطلب واحد شاي وكروسي معسل من أي مقهى يصادفني ولو كان في عشة صفيح..

وها هو ذا الشعب المصري الذي ينتظر الشيوعيون زحفه المقدس ليحملهم على الأعناق إلى الحرية والسلطة، ها هو الشعب المصري.. ولا هو هنا! كل إنسان مشغول بنفسه ومهموم بحاله.. والحوار الذي يشغل وقت الناس هو سعر التليفزيون وحجمه وماركته والراديوهات مفتوحة على الآخر في الدكاكين وفي المنازل والأغاني لعبد الحليم وأم كلثوم وفريد تتصاعد من حولنا في الجو. والدنيا ربيع والجو بديع وقفلي على كل المواضيع!

حدث في مستشفى الفيوم أن سألني أحد الممرضين العجائز عندما دخلت غرفة الأشعة.. أنت قطعت تذكرة؟ فلما أجبته بالنفي، قال بسخرية.. له؟ انت على راسك ريشة.. فلما أبلغته بأنني لا أملك

نقودا، قال في دهشة.. أفندى وما معكش فلوس! أخيرا أخبرته بأنني
نزىل في معتقل العزب بالفيوم.. فنظر نحوي نظرة طويلة وقال..
انتوا لسة قاعدين هناك؟ علشان كدة الحشيش سعره ولع! فقد
تصور الممرض أنني تاجر مخدرات، فقد كان معتقل العزب بالفيوم
ولسنوات طويلة سجنا لتجار المخدرات الذين لم يصدر ضدهم
أحكام لحرصهم الشديد ولعدم وجود أدلة ضدهم.. والفيوم
كلها كانت تعلم عن وجود هذا المعتقل وعن هوية المعتقلين الذين
يوجدون فيه.

لا حول ولا قوة إلا بالله، تعليق الممرض دليل على أن شعب
الفيوم لم يسمع أن وظيفة المعتقل تغيرت وتغيرت أيضا صفة النزلاء
المقيمين فيه، هذا هو السر إذن وراء تأخر الزحف الجماهيري للإفراج
عن الشيوعيين، فالناس لم تعلم بعد أن الشيوعيين في المعتقل ولو
عرفوا البدءوا الزحف المقدس في الساعات المبكرة في الصباح للإفراج
عن الرفاق المناضلين!!

قضيت تلك الليلة ساهرا على فراشي بالمعتقل. انتابني مشاعر
شتى هي مزيج من السعادة لرؤية الشارع واختلاطي بالناس مع
مشاعر الإحباط الشديدة لأنني كنت متصورا أن اعتقالنا يمثل أزمة
ولو صغيرة للحكومة وأن قضيتنا تحتاج لمكان ولو متواضعا في هموم
الشعب، ولكن ها هي ذي رحلة المستشفى تثبت للعبد الله أننا لا في
العر ولا في النفير وأن اعتقالنا لا يشغل أحدا إلا أهالي المعتقلين.

ياله من شعور بالإحباط القاتل عندما تدرك أنك مجرد نملة على

الطريق، أين هي الجماهير الكادحة وقد رأيتها تكدح بالفعل ولكن
على أكل عيشها وتقاتل من أجل لقمة العيال وهى فى النهاية سعيدة
لأنها عثرت على عمل وعلى شقة وعلى تليفزيون مقاس ١٢ بوصة..
ولكنه أحسن من ما فىش.

يا لها من ليلة طويلة لم يغمض للعبد لله فيها جفن إلا مع إشراقة
الصباح!

الفصل العشرون

وجاءنا نبا تأمين الصحافة ونحن في معتقل الفيوم.
ولكن كيف يكون تأمين الصحافة؟ قال واحد من
دراويش الماركسية وزميل معتقل الفيوم في الوقت
نفسه: إن الحكومة لم تؤمم الصحافة ولكنها أمت
الرأي.. وإن العصابة الفاشيستي أسفرت عن حقيقتها
بهذه الخطوة التي ليس لها مثيل في التاريخ..

المأمور والشاعر!

لم يشغل العبد لله هذا التفسير الخنفشاري للزميل إياه، خصوصاً أنني بعد يومين فقط اكتشفت أن هذا التحليل من وضع المحللاتي فهمي حبيب أكبر حمار أنجبته أمة آدم؟

ولكن الذي شغل بال العبد لله هو موقف أمثالنا بعد التأميم. لقد كنت أعمل قبل المعتقل سكرتيراً لتحرير روز اليوسف. وهي قطاع خاص وصاحبة المجلة السيدة روز اليوسف هي التي تدير كل الأمور.. تحريرية ومالية.. فما هو الوضع بعد التأميم؟ هل نعود لأعمالنا في حالة الإفراج عنا؟ وصرفت ذهني عن التفكير في هذا الأمر حتى لا أكون مثل صاحبنا الذي باع جلد الدب قبل صيده. فالمهم أن يفرج عنا أولاً ثم بعد ذلك.. فليكن ما يكون.

والحق أقول.. إن الذي صرف عن ذهني هذه المشكلة وغيرها من المشاكل هو تسرب أنباء للعبد لله عن مرض ابنتي هالة. أخطأ أحدهم وهو يتمنى للعبد لله حياة سعيدة بعد الإفراج وقال في نهاية حديثه.. وإن شاء الله تعالج هالة وتشفى. أول مرة أسمع أن هالة مريضة.. ولذلك سألت بصوت أشبه بالفحيح.. هيه هالة

مريضة؟ وانتبه الرجل إلى أنني أجهل كل شيء عن مرض هالة، فبدأ عليه الاضطراب، ثم قال وهو يتصنع الضحك.. انت ما عرفتش أنها كانت عيانه بالحصبة؟ وهل الحصبة مرض ينتظر الإفراج عني لكي أسعى في شفائه؟ ثم راح يقسم بأغلظ الأيمان أنه سمع من أحد الزملاء المعتقلين أنه كان في زيارة لبيتي وأنه رأى هالة مريضة بالحصبة، وأن هذا كل ما في الأمر.

لم أنم طوال الليل أفكر في هالة وفي مرضها. ما الذي ألم بهذه البنت التي كانت كالوردة.. آخر بهجة وآخر عفرتة؟ لقد تركتها وعمرها عام ونصف العام كانت تحاول الكلام والمشي.. وكانت تقلدني، إذا شتمتها شتمتني. وكانت لهجتها مضحكة، ومشيتها أقرب إلى مشية البهلوان. ما هو المرض الذي يصيب بنتا كالوردة وينتظر خروجي من المعتقل لكي تشفى بإذن الله تعالى. هل عميت هالة؟ كانت عيناها جميلتين وواسعتين رموشها طويلة ومدببة كأسنان مشط، ولكن ما الذي عماها؟ هل أصيبت بالرمد وأهمل علاجه؟ هل احترق وجهها فأصيبت بالعمى؟ وطردت هذه الأفكار السوداء أو حاولت ذلك.. وفي الصباح كلفت أحد عساكر المعتقل وكان في طريقه إلى إجازة لمدة يومين عند أسرته في الجيزة بالمرور على منزلنا والاستفسار عن ابنتي هالة.

ذهب العسكري وغاب يومين ثم عاد ومعه صورة هالة وعليها إهداء.. واضح أن أمها هي التي كتبه، إلى بابا الحبيب.. أنا بخير.. والإمضاء هالة.

كانت في الصورة كما تركتها حلوة وجميلة ووجهها كالقمر في ليلة

تمام. الحمد لله.. لم يحرق وجهها ولم تفقد عينيها. كانت إذن مريضة بالحصبة كما أبلغني الزميل. وربما فلتت منه العبارة التي أرقنتني زيادة منه في المجاملة. ولكنني عدت أفكر من جديد في أمر الإهداء، لماذا لم تذكر لي شيئاً عن أبي؟ هل هو مريض؟ هل لا يزال على قيد الحياة؟ ما الذي جرى له وجرى به بعد الاعتقال؟

عشت أسبوعاً في جحيم حقيقي. فأنا لا أعلم شيئاً عما جرى لأسرتي ولم أتسلم منهم خطاباً واحداً منذ جرى اعتقالى. لأن الخطابات ممنوعة، وممنوع عليهم معرفة المكان. الذي نوجد به، وتمنيت في تلك الأيام الأخيرة من إقامتي في معتقل الفيوم أن تقوم ثورة وتقبض على زكريا محيي الدين وكمال الدين حسين. الأول لأنه كان وزيراً للداخلية، والثاني لأنه كان رئيس وزراء الإقليم الجنوبي.

ويقبض معهما على مدير المباحث العامة وعلى العقيد حسن المصيلحي وعلى كل ضباط معتقل الواحات ومعتقل القلعة ومعتقل الفيوم، وأن يوضع الجميع في معتقل بعيد داخل الصحراء ثم يصدر قرار بتعييني مديراً للمعتقل. وألف خيوب على العبد لله إذا لم يجعل كلا منهم ينسى نفسه.. لا أقتلهم ولا أتركهم أحياء.

فكرت في الذين سأقوم بانتدابهم للعمل معي داخل المعتقل الرهيب.. واخترت أوسخ العساكر الذين صادفتهم في المعتقل لمعاونتي على أداء هذه المهمة. ولكنني طردت هذه الفكرة من رأسي وفكرت في الهروب من مصر عقب خروجي من المعتقل. أذهب إلى بلد بعيد وأقيم بعيداً حيث لا تستطيع يد السلطة أن تمتد نحوي..

أفكار كثيرة مرت بالعبد لله ولكنها كانت أفكاراً كثيرة مؤقتة

نتيجة التعذيب النفسي والضغط العصبي على العبد لله بعد هذه الشهور الطويلة التي مرت بنا في السجن. وليته كان سجناء.. فالمسجون له حقوق، ولكننا أشبه بالمخطوفين، فلا أحد يعرف مكاننا، ولا حقوق لنا، ولا أحد يعرف متى يكون الخروج من هذه الكارثة! وقبل يوم واحد من مغادرتي لمعتقل العزب بالفيوم، وقعت حادثة غريبة كان ضحيتها «عسكري» من بلوكات النظام. وانطلقت رصاصة من مدفع كلاشنكوف في قلب العسكري الذي كان يحمل المدفع فسقط ميتا.

أدخلونا العنابر على الفور وأغلقوا الأبواب لأول مرة. وجاء ضباط كبار من الخارج، وقضوا النهار كله، يحققون في أسباب الحادث، ثم طووا أوراقهم وغادروا المعتقل. ولكن العسكري ظل مطروحا على الأرض مغطى بالجرائد ولم يرفع من مكانه إلا في المساء، عندما حضرت سيارة لوري أشبه بسيارة الزبالة حملت العسكري المسكين إلى المشرحة. ليس أعداء الدولة وحدهم هم الذين تصيبهم الإهانة من الدولة، ولكن الإهانة تصل أيضا إلى رجالها. وها هو ذا العسكري ينقل في عربة زبالة بعد أن تركوه جثة هامة على الأرض طوال النهار!

حدث شيء آخر في المعتقل جعلني أسرح بعيدا عن المعتقل إلى أمور الخلق والخالق. كان في المعتقل مأمور برتبة رائد، كان في الأصل (عسكري) ويبدو أنه خدم أيام الإنجليز وكان مواليا لهم ومؤمنا بهم إلى حد بعيد وأنهم كافئوه إلى رتبة صول. ثم ترقى بعد ذلك لانضباطه وغبائه حتى وصل إلى رتبة رائد. وكان الرائد الجهور يتصور أن

المعتقل فرصة للوصول إلى أعلى الرتب. فحول المعتقل إلى معسكر اعتقال ولا معسكرات النازي. وأذكر في الفترة الأولى التي قضيتها في المعتقل أننا كنا نقف في صفوف في الفناء عندما جاء إلينا حضرة المأمور ليستعرض الطابور البائس.

وكان أثناء مروره بين الصفوف يتفضل ويتوقف عند أحد المعتقلين ويستفسر منه عن اسمه ومهنته. وتوقف أمام الفنان زهدي رسام الكاريكاتير الشهير وسأله عن اسمه ثم سأله عن مهنته، فلما أجابه بأنه رسام كاريكاتير قال مصححا.. آه شاعر يعني! ورد عليه زهدي.. لا أنا رسام كاريكاتير. فشوح المأمور بذراعه وقال في حدة.. شاعر يا جاهل.

حضرة المأمور الذي كان يخطو نحو الستين من عمره راح يمارس كل أنواع الاضطهاد في المعتقلين وينزل بهم كل ألوان العذاب، على أمل أن يتعطف عليه المسئولون بالداخلية، فيرقوه إلى رتبة المقدم ويتركوه في الخدمة حتى يبلغ سن المعاش، ولكن القاعدة التي كان يعامل بها هذا الصنف من الضباط هي ترقيته إلى رتبة المقدم وفي الوقت نفسه يجري إحالته على المعاش.

وذات صباح دخل حضرة المأمور إلى المعتقل واختفى فترة ثم خرج من مكتبه يتقدمه عسكري مراسلة وقد حمل بدلة ميري وقميصا وجلبأبا وبعض الأوراق.

وكانت هذه هي كل متعلقات حضرة المأمور وغادر سعادته المعتقل لآخر مرة. فقد حصل على رتبة المقدم وخرج من الخدمة. في نفس الوقت لم تشفع له خدماته الكثيرة ومحاولاته المستمرة لتحويل

حياة المعتقلين إلى جحيم. لم يهتم أحد باستغاثاته التلغرافية وتوسلاته الشفهية لكي يبقوا عليه في الخدمة. امتصوه كالليمونة ثم ألقوا به على الطريق، هل يتعظ الآخرون؟ بالعكس جاء من بعده ضابط مؤهل اسمه التونسي وراح يمارس نفس أسلوب سابقه مع بعض التطور. ولا أعرف أين ذهب التونسي بعد ذلك، ولكنني لم أصادفه حتى الآن في أي مكان.

المهم أن هذا الضابط الذي طردوه من الخدمة زارني بعد ذلك بسنوات في دار روز اليوسف. وبعد أن جلس يستعرض أمامي مآثره وأياديه البيضاء علينا! طلب مني أن أسعى لتوظيفه في المؤسسة. ولما أبدت له اعتذاري لعدم وجود وظيفة تليق بمقامه العالي في المؤسسة أبدى استعداداه لقبول أي وظيفة، فكل الوظائف تليق بعد الخروج من الخدمة! وبعد أن قضى في مكثي فترة طويلة قال للعبد لله: ما هو كل الناس اللي كانوا في المعتقل يشغلوا هنا. وحبكت النكتة مع العبد لله فقلت له.. مضبوط.. بس اللي كانوا في العنابر.. مش في الإدارة!

المهم جاء اليوم الذي انتظرته طويلا. حضر حلمي العيسوي في المساء إلى العنبر ونادى على اسمين من المعتقلين. محمد عبد الواحد رئيس نقابة عمال الغزل والنسيج والعبد لله. ثم طلب منا إحضار ملابسنا ومتعلقاتنا لأننا سنرحل في الصباح الباكر إلى القاهرة. سألته.. إلى أين؟ فرد باقتضاب.. ما عرفش. حملنا حقائبنا وذهبنا خلفه.. فإذا به يضع كل منا في زنزانة منفردة من زنزانات التأديب. زنزانة انفرادية بلا نور وأرضيتها تراب، وديب الحشرات تلتقطه

الأذن بوضوح، وكان للحجرة شباك مغطى بأسياخ حديد، ولكنه كان يسمح لشاغل الزنزانة بالتحدث إلى الواقف خارجها. وجاء الضابط حلمي العيسوي في الليل وراح يتجاذب الحديث مع العبد لله. أعدت سؤاله عن المكان الذي سذهب إليه قال.. علمي علمك.. وراح يسألني عن الخلاف بيننا وبين الحكومة. فأجبتة بأني لم أكن مختلفا مع الحكومة. وحتى في موقفها مع عبد الكريم قاسم لم أختلف معها. ولكنني لم أكتب حرفا في صفها وآثرت الصمت لأنني كنت أدرك أن الخلاف ليس في مصلحة أحد، وأن الهدف الوحيد من الخلاف هو تدمير عبد الكريم قاسم وتدمير عبد الناصر في نفس الوقت.

سألني.. لماذا قبضوا عليك؟ أجبتة بأني لا أعرف السبب ولم أسأل أحدا في الحكومة حتى هذه اللحظة. وقلت له ضاحكا.. لقد جاء إلى بيتي ضابط اسمه طوسون وطلب مني أن أذهب معه إلى مكتب المباحث العامة بالجيزة، أخبرني بأن المهمة لن تستغرق ساعة على الأكثر.. ولكن الساعة أصبحت ساعات، واليوم صار أياما، والشهر صار شهورا، والشهور صارت عاما، والعام أصبح أعواما. وابتسم العيسوي ابتسامة بلا معنى وقال .. مسائل غريبة!

وبالطبع لم أنم طوال الليل. لأن زنزانة التأديب التي حشروني فيها لم تكن تسمح بالنوم. وفي الخامسة صباحا دخلت المعتقل عربية بوكس ووضعوا أيدينا في الحديد، ووضعونا خلف العربة في حراسة نصف دسته من العساكر، بينما جلس الضابط برتبة نقيب بجوار السائق. وكان الضابط مسلحا بمسدس إيطالي سريع الطلقات. واخترقنا

الطريق الصحراوي من الفيوم إلى القاهرة. وفي وسط المسافة توقفت السيارة ونزل الضابط ليقضي حاجته في الصحراء. وطلبت منه أن يفعل نفس الشيء ولكنه رفض. ثم شرح الأمر بعد ذلك.. بأن قضاء الحاجة بالنسبة لي يستلزم فك الحديد وهو أمر ممنوع في كل الظروف وحسب التعليمات!

المهم أننا وصلنا إلى الجزيرة في نهاية الأمر واخترقنا ميدان الجزيرة وانقبضت نفسي بشدة عندما ألقيت نظرة على قهوة عبد الله ورأيت العمال يضربون فيها معاولهم والجزء الأكبر منه تحول إلى أنقاض ورأيت المجنون عبادة يذرع الميدان في خطوات عسكرية وقد ازداد جنونا واتسخت ملابسه وصارت ذقنه في حجم المكنسة. يا سبحان الله.. تغير كل شيء، حتى الميدان نفسه تغير. اختصروا أرصفته ووضعوا بعض الأسوار الحديدية القصيرة حول المناطق الصغيرة المزروعة بالنجيل على جوانب الميدان، ونظموا سوقا للباعة الجائلين على ناصية الميدان من نهاية شارع عباس.

ولكن على رأي تشارلز ديكنز.. من أنا الذي يعيب على المدينة لأنها تغيرت، وقد عدت إليها أنا نفسي وقد غيرتني الأيام!

الفصل الحادي والعشرون

عندما دخلت مبنى المباحث العامة لمحت الدكتور لويس عوض واقفا في الممر الضيق المظلم الذي يفصل بين المكاتب. كان يرتدي بدلة مكسرة وقميصا مكرمشا، وكان واضحا أن شعر رأسه لم يعرف طريقه إلى الحلاق منذ شهور، وكانت نظارته الطبية مغبشة، وكرافته مطوية وملفوفة كأنها حبل غسيل. وعندما اقتربت من المكان الذي يقف فيه الدكتور لويس عوض، بادرت قائلا:

«المصليحي» أول مرة!

صباح الخير يا دكتور.

فأجاب قائلاً:

جود مورننج سعادة البية.

وأدركت أنه لم يعرفني، فقد كان منظر العبد لله يختلف تماماً عن منظر الشخص الذي اسمه محمود السعدني، ولم أشأ أن أصدمه بعد أن تصور أنني في حال يسمح بإطلاق لقب البية على شخصي الضعيف، وبعد خطوات من المكان الذي كان يقف به الدكتور لويس، أصدر الضابط أمراً للعسكري الذي كان مربوطاً معي بالتوقف والانتظار، وتركنا الضابط وغاب طويلاً وبعد حوالي نصف الساعة خرج من أحد المكاتب شخص متوسط الطول أسمر البشرة تنبت على خده حسنة كبيرة، اتجه نحونا ماداً يده وهو يهتف بحرارة:

- أهلاً سعدني بيه.

ولم أتمالك نفسي فأجبته بمنتهى الغيظ:

- بيه.. بيه إيه ونيلة إيه.. فين البيه ده؟

وقال ويده ما زالت ممدودة في الهواء:

- طبعاً بيه ونص كمان.

قلت وأنا أنظر نحو الكلبش الذي يقيد معصمي:

- أنا آسف لأنني مش هاقدر أسلم عليك علشان ايدي مربوطة بالحديد وصرخ الرجل في العسكري.

- فك الحديد يا عسكري.

رد العسكري ببرود:

- لا ما فكش حد أنا.

وعاد الرجل يصرخ في وجه العسكري بشدة:

- أنا العقيد حسن المصيلحي.. ولما أقولك فك الحديد.. تفك الحديد على طول.

وعاد العسكري يقول بنفس الهدوء.

- أنا ما باخدش أوامر من حد إلا من الضابط اللي معايا.

وفي تلك اللحظة التي تأزم فيها الموقف بين العقيد والعسكري وصل الضابط المكلف بمهمة ترحيلنا إلى مبنى المباحث، وعندما أصبح في مواجهة العقيد، دق الأرض بكعبه وضرب تعظيم سلام للبيه العقيد، وعلى الفور انهار العسكري ومال على يد العقيد لتقبيلها، ولكن العقيد سحب يده بشدة وأمر الضابط بأن يأتي بي وبالعسكري

إلى مكتبه. وفي الطريق إلى مكتب البية العقيد راح العسكري يولول
كامرأة فقدت سبعها، لاعنا اليوم الذي كلفوه فيه بهذه المهمة الصعبة.
وعندما أصبحنا في حجرة البية العقيد حاول العسكري أن يعتذر
للبية، ولكن العقيد نهره وأمره بالصمت، ثم فتح درج مكتبه وأخرج
منه ورقتين من فئة العشرة جنيهاً ومده يده نحو العسكري قائلاً
له:

خد دول مكافأة علشانك.. انت عسكري ميري.. واوعى تسمع
كلام أي حد وتفك مسجون إلا إذا أمرك الضابط اللي معاك.

ثم نظر المصليحي إلى الضابط وقال له اديله أمر يفك الحديد.

وأصبحت يدي طليقة لأول مرة منذ غادرنا معتقل الفيوم في
الفجر. وبعد أن أمر الضابط والعسكري بالانصراف دعاني إلى
الجلوس وطلب لي فنجان قهوة مضبوطاً ثم عزم علي بسيجارة، ثم
أشعل لنفسه سيجارة وراح يدخن في هدوء.

جلست أتأمل الرجل الذي يجلس أمامي، إذن هذا هو حسن
المصليحي، الرجل الذي سمعت عنه قصصاً أشبه بالأساطير في جميع
السجون التي نزلت بها، هذا الرجل الضئيل الذي تبدو على وجهه
الطيبة هو بعبع الحركة الشيوعية في مصر، لقد تصورت من خلال ما
سمعت عنه أنه طويل القامة مفتول العضلات له وجه قاتل محترف.
وبعد فترة صمت طويلة نظر نحوي نظرة فاحصة ثم قال:

- تعرف ان مصر كلها كلمتني عنك.

سألته على الفور:

- انت اعتقلتني ليه؟
- انت ذكي وهتعرف لوحدك.
- أنا مش عارف أي حاجة.
- لزم الصمت فترة وراح يعبث ببعض الأوراق التي أمامه ثم سألني:
- أخبار زمش إيه؟
- زي ما انت شايف.
- قهقهه عاليا ثم قال:
- عارف ان حزبك ده دخل تاريخ الحركة الشيوعية وعملنا له ملف عندنا في المباحث.
- معقول؟ بقولك دي يعني زي ما انت شايف.
- ما انا عارف.. بس الشيوعيين خدعوك وكثير منهم دخلوا زمش. هتفت مدافعا عن أعضاء الحزب:
- ولا واحد وأتحدى.
- قال وهو ينقر بسن القلم على المكتب:
- حتى أسعد حلیم؟
- حتى أسعد حلیم.
- مش بقولك انت رئيس حزب طيب.. عارف أسعد حلیم ده مالوش علاقة فعلا بالشيوعيين المصريين.. عارف ليه؟ لأنه

بيحتقرهم.. لأن مستواه من مستوى خروشوف وماوتسي تونج
ومولوتوف.. ومين تاني في الحزب مش شيوعي؟ عبد الموجود
إبراهيم أبو زيد؟

- دا راجل طيب وبتاع ربنا.

رد ساخرا:

- ما كلنا طيبين.. عارف الطيب ده أنا جفته هنا في مكتبي قبل
ما اعتقله وقلت له انت عندك عيال بطل اللي بتعمله.. عارف كان
بيعمل إيه؟

- أنا في الحقيقة عرفته في السجن بس.

كان بيوزع منشورات في العنابر والمصيبة أنه عامل حدق وفاهم
إني نايم على وداني يوزع ألف منشور في العنابر ويجبلي خمسة ويقوللي
أنا لقيت دول.

ساد الصمت بيننا بعض الوقت.

قطعه هو قائلًا:

- وأحمد شوقي عبد الهادي بتاع منيل شيحة.. راخر طيب؟!!

- دا مش طيب بس.. دا راجل غلبان كمان.

- شفت بقى إزاي انك رئيس حزب طيب وزى الزوج آخر من
من يعلم.. عارف شوقي ده كان بيعمل اجتماعات في بيته وضم أخوه
الصغير للتنظيم.. وبعدين دا أخطر واحد لأنه دخل الشيوعية في قرية
صغيرة.. وعلشان يحرم هايكون آخر واحد يخرج من المعتقل.

قلت للمصليحي:

- لو قعد شهر تاني هايموت.

- لو مات يبقى مصلحة.. الراجل أبوه طيب وحافظ كلام ربنا..
ولو مات ده يبقى فايدة لابوه؟

سألني إذا كنت أرغب في فنجان قهوة آخر، فشكرته وطلبت منه
أن يسمح لي بالانصراف إذا كان قد تقرر الإفراج عني قال لي وهو
ينهض من مكانه:

- أنت حر منذ دخلت مكتي، وتستطيع أن تذهب إلى بيتك
أو تذهب إلى مكتبك، وأنت منذ هذه اللحظة مواطن حرّ لك كافة
الحقوق وعليك كافة الواجبات. ومد يده إلي مصافحا، ثم استدعى
أحد المخبرين وأمره بأن يحمل البقجة التي كانت معي حتى الشارع،
وبالفعل وجدت نفسي في الشارع أحمل في يدي بقجة ومنظري يوحى
لمن يراني أنني كنت نائما بالبدلة تحت كوبري عباس.

وقفت عدة دقائق في الشارع أتلفت حولي غير مصدق أنني
أصبحت حرا، واستنشقت نفسا عميقا ودخل صدري كمية ضخمة
من الهواء المختلط بعدام السيارات، ومع ذلك كان أنقى هواء دخل
صدري منذ حوالي عامين!

عبرت شارع نوبار إلى الرصيف الآخر، واتجهت إلى مكان عصير
قصب وطلبت كوبا من العصير لم أكن في حاجة إليه في الحقيقة،
ولكنني كنت فقط أريد ممارسة حرיתי في الشراء واستخدام الفلوس
كغيري من البشر. كان أمام الدكان جمع من الناس نظروا نحوي

نظرات مستريية مما جعلني أتناول الكوب وأشرب نصفه بسرعة ثم أترك الكوب بما فيه وأهرع مسرعا في اتجاه ميدان الأزهار.

حاولت أن أستوقف أكثر من تاكسي، توقف بعضها بالفعل، ولكن كانت أول نظرة من السائق نحو العبد لله كفيلة بتغيير رأيه ليسرع بالفرار.

أخيرا وصلت إلى ميدان الأزهار (باب اللوق) ووجدت سيارة تاكسي راكنة على رصيف وبدون سائق، ركبت في المقعد الذي بجوار السائق أنتظر، بعد قليل جاء السائق، وبعد أن فحصني بنظرة شاملة سألني بدون مبالاة:

- أي خدمة إن شاء الله.

أجبت:

- فيه جماعة جنبنا هنا ها يروحوا معاك مشوار بعيد.

- وما خدتش تاكسي من هناك ليه؟

- لأن أنا ساكن هنا وضربولي تليفون عاوزين تاكسي.

مديده نحو البنديرة وكسرها وقال:

- طيب ما فيش مانع.. بس انتظار كثير هناك يفتح الله؟

ثم قال:

- انتظرنى شوية لحد ما اشرب الشيشة.

وغاب عشر دقائق قبل أن يعود، وقاد السيارة بمحاذاة سكة

حديد حلوان وبين الحين والآخر كان يجتلس النظر نحو ملابسي
المهلهلة وحذائي المخيط في أكثر من موضع، ثم سألني سؤالا ونحن
نقترب من سعد زغلول:

- بتشتغل إيه من غير مؤاخذه؟

- على باب الله.

- المهم الصحة والستر.

توقفت بنا السيارة أمام مؤسسة روز اليوسف، تركت البقجة
في السيارة وغادرتها وعندما حاولت الدخول استوقفني عم حسين
البواب وسألني بحدة.

- انت رايح فين؟ بوابة من غير بواب، توقفت أمامه برهة ثم
قلت له:

- إزيك يا عم حسين.. أنت مش عارفني؟ دقق طويلا في وجهي
ثم هتف:

- يا خبر.. إزيك يا سعادة البية.. انت لسه طالع من السجن
دلوقت.. إزي الأستاذ فتحي والأستاذ زهدي والأستاذ حسن فؤاد
حمد الله على السلامة يا بيه.

صعدت على السلم المتهالكة ودخلت صالة التحرير ولم يكن
بها إلا صلاح جاهين، كان يرسم كعاداته. وشدني صلاح ودخل بي
مكتب الأستاذ إحسان. الذي فوجئ بمنظري فصاح مندهشا:

- إيه ده؟ انتوا محبوسين ببدلكم؟ قضيت فترة في مكتب الأستاذ

إحسان واتصلت تليفونيا بصديقي الرسام طوغان لكي يمهد لعودتي عند زوجتي ووالدتي، ثم غادرت روز اليوسف بعد نصف ساعة وعندما لمحني السائق ترك مقعده مسرعا وفتح لي الباب الخلفي، ولكنني آثرت الجلوس بجانبه وراح يعتذر وهو في طريقه إلى الجيزة، وعرفت أنه سأل حسين البواب وراح يسألني عن أحوال المعتقلين وعن عددهم، وهل كلهم من الصحفيين والمحامين والفنانين. ثم قال:

- ما تأخذنيش يا بيه.. اللي ما يعرفك مجهلك..

وعندما وصل إلى بيت طوغان رفض أن يتقاضى مليا وأقسم بالطلاق أنه لن يتقاضى أجر هذه التوصيلة قائلا:

- ده أقل شيء نعمله يا بيه.

ثم تركني وانصرف بعد وعد منه بزيارتي في مكتبي بـروز اليوسف هأنذا في بيت طوغان أخيرا. وبعد قليل سأكون في بيتي، لقد انتهت رحلة الضنى والعذاب.. أو هكذا تصورت!

الفصل الثاني والعشرون

لحظة دخلت بيتي لأول مرة بعد هذا الغياب الطويل
ورؤيتي لأفراد أسرتي، أدركت أن طريق الضنى
والعذاب قد بدأ. كانت ابنتي هالة قد أصيبت بالشلل
أثناء وجودي في السجن.

أجمل سنوات العمر!

أما الشقة التي كانت تقيم بها أسرتي الصغيرة، فقد اضطروا إلى تركها بعد ثلاثة أشهر من سجنني ولجأت الأسرة إلى بيت والدي. أما الوالد نفسه فقد سقط طريح الفراش نتيجة انفجار في المخ، تركه مجرد جثة متحركة، ومخلوق بين الحياة والموت. وبدأت على الفور في رفع الأنقاض التي تساقطت فوق رأس الأسرة. وعندما اصطحبت معي العبقري العظيم أنور المفتي لفحص والدي، ترك لي شيئاً أشبه بالروشتة، ولكنني اكتشفت بعد مغادرته المنزل أن الذي كتبه كان شهادة وفاة، ولكن لأن مسألة الحياة والموت من شأن الخالق الأعظم، فقد بقي الوالد على قيد الحياة ثلاث سنوات كاملة، يعيش على السوائل ولا يغادر الفراش، ولا يتكلم ولا يسمع، ثلاث سنوات وهو مجرد جثة ينقصها الدفن.

أما ابنتي هالة فقد قرر طبيب الأطفال العالمي علي عبد العال ضرورة إجراء عملية جراحية لها في بريطانيا وأشار بإجرائها عند الدكتور (أوزمان كلارك) وسافرت إلى لندن بالفعل وعرضت الأمر على الدكتور المذكور ولكنه اعتذر عن عدم إجراء العملية، وأشار بإجرائها عند دكتور بروكس. وقابلت الدكتور بروكس الذي وافق على إجراء العملية وحسبت الحسبة فوجدت أنني أحتاج ألف جنيه مصري.

وعندما عدت إلى القاهرة اكتشفت أن الحصول على هذا المبلغ دونه قطع الرقاب، وكتبت مقالا في روز اليوسف بعنوان (عبقري للبيع) وأبدت استعدادي لبيع نفسي لأي راغب في الشراء مقابل ألف جنيه أعالج بها هالة، وقلت في المقال إن البضاعة حاضرة والتسليم على الفور، واستعرضت مواهبي وقلت: أنا أستطيع أن أرقص وأغني وأطبخ أيضا وأكتب أحيانا وأتشقلب وأعمل عجيب الفلاحة مقابل الألف جنيه.

وفي الصباح زارني في مكتبي زائران يرتديان نفس الملابس وعلى وجهيهما، نفس السمات، وقدما أنفسهما للعبد لله بأنهما من رئاسة الجمهورية، وقلت لنفسي: يا فرج الله يبدو أن العقدة انحلت وكل شيء سيكون على ما يرام. ولكنني اكتشفت بعد دقائق أنها جاءت للحديث معي؛ فكيف يكتب مثل هذا الكلام؟ وما هو الهدف على وجه التحديد؟ وهل الهدف هو التشجيع على النظام؟ ثم سألني أحدهما سؤالاً محددا: هل تقدمت بطلب إلى رئاسة الجمهورية لعلاج ابتك بالخارج؟ ولما أجبته بالنفي أشار بإصبعه على الورق الذي أمامي وقال اكتب طلبا الآن، وكتبت الطلب وسلمته له. وانصرفا بعد أن أوصاني أحدهما بعدم الخوض في هذا الحديث مرة أخرى. ولم أتلق ردا منهما حتى هذه اللحظة، ولكن الذي حدث بعد ذلك أن يوسف السباعي يرحمه الله اتفق مع إحسان عبد القدوس على تسهيل بعض المصاعب، فأصدر لي تذكرتين للسفر إلى لندن على الطائرة الهندية مقابل نشر إعلانات لها بروز اليوسف، واشترت مني المؤسسة كتابا في سلسلة الكتاب الذهبي على أن أكتبه بعد ذلك، وصرفوا لي ثلاثة شهور مقدما من مرتبي واشترى مني الدكتور سعيد قدرى أربعة كتب للأطفال في سلسلة كانت تصدرها منظمة اليونسكو، وليلة السفر زارني صديق لا أنسى جميله، هو الكاتب الإسلامي الكبير محمود شعبان، وأعطاني

مائة وخمسين جنيها إسترلينياً وقال: هذه هديتي لهالة في رحلة علاجها. واستطعت قبل السفر العثور على شقة في عمارة حديثة، رفض صاحبها الطبيب تقاضي أي خلورجل أو مقدم من أي نوع، ولم تكن هذه الحالة مع العبد لله وحده، ولكنه فعل ذلك مع كل السكان.

سافرت إلى لندن مع هالة وفي ذهني أن ملكة إنجلترا ستكون على رأس المستقبلين في مطار لندن، باعتباري من كبار المستثمرين ولكنني اكتشفت هناك أن المسالة ليست سهلة كما تصورت وأن شفاء الله سوف يتم ولكن بعد خمسة عشر عاما، يجري خلالها عدة عمليات لهالة في الحوض وفي الركبة وفي القدم. المهم أن هالة شفيت في النهاية وتم علاجها مرتين بعد ذلك بأمر من الرئيس جمال عبد الناصر وعلى نفقة الدولة، وعولجت بعد وفاة عبد الناصر لمدة سنتين على نفقة الشيخ زايد رئيس دولة الإمارات العربية، وأجريت لها عملية صعبة في مستشفى (دولس هل) على نفقة الشيخ سلطان بن محمد حاكم الشارقة، ووعدت حكومة الثورة الليبية بعلاجها في عام ١٩٧٥، ولكن يبدو أن انشغال الدولة الليبية بجلائل الأعمال حال بينها وبين تنفيذ هذا الوعد، وللحقيقة وللتاريخ فإن آخر عملية أجرتها هالة في لندن غطى تكاليفها الرئيس صدام حسين رئيس العراق، وبهذا تكون هالة قد تحولت من مجرد مريضة إلى رمز قومي!

كل شيء والحمد لله بعد فترة السجن صار على أحسن وجه، وعندما دخلت السجن في عام ١٩٧١ جاءني مندوب من وزارة الصحة في سجنني وطلب مني رد المبالغ التي صرفت على هالة في لندن في عهد جمال عبد الناصر وقلت لمندوب وزارة الصحة ساخرا.. إن علاج هالة تم بناء على قرارات جمهورية أصدرها جمال عبد الناصر

رئيس جمهورية مصر العربية حسب الدستور والقانون ولم تعالج بقرار صادر من مهرب الحشيش كتكت، وعلى العموم.. فليس أمامك إلا اللجوء إلى القضاء لاسترداد هذه الفلوس مني، حيث إنني مفلس وسجين وحتى عفش بيتي تحت الحراسة!!

انتهت أيام السجن بكل متاعبها ولكن متاعب ما بعد السجن كانت أخطر. ولكن العبد لله استطاع بفضل الله أن يتصر على كل المتاعب وأن يتجاوزها.

تبقى هنا كلمة لا بد من قولها: فهذه الفترة التي قضيتها في سجن الواحات، وسجن القلعة، وسجن الفيوم كانت من أخصب فترات حياتي تعرفت على تيار سياسي كان له وجود في الساحة المصرية واكتشفت وسط هذا التيار مجموعة لآلئ كان يمكن أن يكون لها شأن كبير في مصر لولا اهتمامها بالعمل السياسي وإصرارها على أن تقول كلمتها رغم كل الظروف.. العالم الاقتصادي الكبير الدكتور عبد الرازق حسن. والكاتب الأديب الفنان محمود أمين العالم، والاقتصادي العالمي إسماعيل صبري عبد الله وزميله فؤاد مرسي، ورجل القانون اللامع علي الشلقاني، والناقد الكبير إبراهيم فتحي، والعالم الكبير الدكتور فايق فاروق، والأديب الموسوعي الدكتور لويس عوض، والصحفي اللهلوبة عبد الملك خليل، والمطرب النوبي الكبير محمد حمام، والذي اكتشفنا موهبته في السجن، وكان أول اشتغاله في الفن في مسلسل تليفزيوني من تأليف العبد لله وعشرات من الصحفيين والكتاب الحقيقيين، من أول لطفي الخولي إلى فتحي خليل إبراهيم وفتحي خليل عبد الفتاح وعبد الستار الطويلة وألفريد فرج وغالي شكري وفيليب جلاب ومصطفى طيبة وعشرات من

الفنانين على رأسهم وليم الملك وعشرات من السياسيين على رأسهم شهدي عطية ومحمود المانستري وأحمد طه وفوزي حبشي ومحمد شطا والدكتور حمزة البسيوني وأديب ديمتري وسيد عبد الله إلى جانب عشرات من أصدقائي من فنانين ومفكرين.. على رأسهم الفنان الذي فقدته مصر حسن فؤاد والفنان جمال كامل والفنان الكبير زهدي، وكانت سعادتي بلقاء هؤلاء خلف الأسوار لا يعادلها إلا الحسرة على إهدار كل هذه الطاقات المبدعة بسبب غباء البعض وغرور البعض، من أمثال فهمي حبيب. والذي يدعو إلى الحسرة أن أمثال فهمي حبيب لا تستطيع أن تضعهم في أي خانة، فلا هم صحفيون ولا هم فنانون ولا هم مفكرون ولكنهم وكما أثبت التجارب من سقط المتاع، مجرد نبت شيطاني، وجدوا في التنظيمات السرية مجالا لاجترار حقدهم وفك عقدتهم بالسيطرة على كل هذا الطابور الطويل من الموهوبين.

كانت مقاليد الأمور في التنظيمات السرية في يد هؤلاء وأضاعوا زبدة مصر في معارك وهمية محكوم عليها بالفشل. وتحت ثوب السرية الواسع، تسرب المئات من الجهلاء والصياع كان وجودهم في التنظيم ضروريا لحسم الصراع لصالح القادة أمثال فهمي حبيب الذين هم من سقط المتاع وتبددت أربعون سنة من العمر في شعارات جوفاء وكلمات فارغة من أي مضمون، وعبارات مسبوكة.. أمثال الحنجوري المتنامي في اللانهاية المترامي عند الشفق لحظة الغسق المتأجج بفعل أنفاس الشغيلة وعرق العمال من أجل عالم يسوده الرخاء والماء والهواء. والجلاء بالدماء، من أجل تأصيل المبادئ وتسديد البنادق في الخنادق ثم بعد ذلك يمكن شرب الكبتشينو في الفنادق!

ما أعظم التضحيات وما أبخس النتائج! ودفع الشيوعيون

المصريون دم قلبهم من أجل الحصول على لا شيء وبددوا العمر من أجل تحقيق لا شيء وخرج الجميع من المولد بلا حمص. واكتشفوا بعد فوات الأوان أنهم لم يكونوا في المولد... ولكنهم كانوا في سوق لم يستفد منها أحد إلا فهمي حبيب وأمثاله حيث صار البعض منهم دكاترة وأغلبهم حصل عليها من المنطقة الحرة في مطار تشيكوسلوفاكيا وبعضهم حصل عليها من سوبر ماركت في هولندا، وكان الثمن ضياع عشرات ومئات من المواهب المصرية الحقيقية.

يالها من فترة رهيبة، فترة بدأت خلال الحرب العالمية الثانية واستمرت حتى سقوط الاتحاد السوفيتي. ولكن والحق أقول استطاع هذا التيار أن يقاوم ويقاوم. وإن كان قتالا أشبه بمعارك فارس السيف الخشبي ضد طواحين الهواء. ولكن الخطأ التاريخي الذي ارتكبه هو إيمان القيادات إياها بأنهم وحدهم الذين يملكون مفاتيح الحقيقة وهم وحدهم الذين لديهم الحلول الجاهزة لكل المشكلات وهم وحدهم المثقفون وبقية خلق الله جهلة وأنهم المناضلون الوحيدون على هذه الأرض وما عداهم جواسيس وعملاء المخابرات المركزية ومرشدون لأجهزة المباحث ولم ينبج من هذا الاتهام أحد حتى أشرف الناس من أمثال محمد عودة والمرحوم فيليب جلاب والمناضل الوطني مصطفى طيبة، خطأ قاتل أدى بهم إلى العزلة والتفوق والابتعاد عن دنيا الناس. حتى الكاتب الشاعر عبد الرحمن الخميسي اتهمه أحد الصياع في سجن أبو زعبل بأنه مدسوس على المعتقلين لمعرفة أخبارهم لحساب جهاز المباحث.

وفاض الكيل بعبد الرحمن الخميسي ذات صباح فصرخ في وجوه مجموعة من المعتقلين من أمثال الصايغ إياه... يا حشرات... أنا عبد الرحمن الخميسي، دوري في مصر أهم بكثير من دور أغلب

الوزراء الذين حكموا مصر، وأنتم تتهمونني بأنني أتجسس عليكم
لحساب المباحث ومن أنتم؟ أنتم مجموعة من الأوباش لو عرضوكم
في السوق ما دفع أحد فيكم فلساً واحداً!

ولكن.. لأن كل شيء مكتوب على الجبين لازم تشوفه العين ولأن
ما كان سيكون. كان لا بد أن تنتهي التنظيمات الشيوعية إلى ما انتهت
إليه، فتتظيم يؤسسه يهود قادمون من وراء البحر، لا بد أن ينشأ غريباً
ويظل غريباً ويستمر غريباً وينتهي غريباً كما بدأ. فلم يشعر الشعب
المصري في أي لحظة بوجود تنظيم شيوعي حقيقي في الشارع المصري
ولم تشعر الجماهير بحركة هذا التنظيم في أي وقت.

ولكن يبقى من التجربة المرة عشرات من هذه النماذج الرفيعة والمواهب
العظيمة التي ذكرنا بعضها من قبل، ويبقى أيضاً أن الغالبية العظمى منهم
يغفر لهم أنهم من أصحاب النوايا الحسنة والهمة العالية وأنهم تعرضوا
للتعذيب وللتشرد وليس من أجل مصلحة شخصية ولكن من أجل ما
تصوروا أنه لمصلحة مصر وكانت الغالبية العظمى من هؤلاء الشرفاء
والقلة فيهم من الأغبياء أصحاب النظرة القصيرة والحقد على كل موهبة.

وعلى كل حال. بقدر العذاب الذي عايناه في السجن مع
الشيوعيين فإن الفائدة التي خرجنا بها كانت بقدر المعاناة وهي فترة
بالرغم من كل شيء أعترز وأفخر بها. ولو عادت الأيام من جديد.
لتمنيت أن أخوضها وكما حدثت من قبل.. وبالتهام والكمال..

والحقيقة أن الفترة التي قضيتها معهم قد أثرت تجربتي وأضافت
إلى ثقافتني، كما أنها أنضجتني كسياسي وجعلتني أعمق فهماً وأشد
صبراً وأطول نفساً مما كنت عليه. باختصار خرجت من سجن
الواحات سعدني آخر غير الذي كان!

الطريق إلى زمش



ولأني حمقري (مزيغ من الحمار والعبقري) فقد كنت أظن أن كل رجل ضاحك رجل هلاس.. ولأني حمقري كنت أرفع شعاراً حمقرياً «أنا أضحك إذن أنا سعيد»، وبعد فترة طويلة من الزمان اكتشفت أن العكس هو الصحيح، واكتشفت أن كل رجل ضاحك رجل بائس، وأنه مقابل كل ضحكة تفرقع على لسانه تفرقع مأساة داخل أحشائه، وأنه مقابل كل ضحكة ترسم على شفثيه تتحدر دمة داخل قلبه.. ولكن هناك حزن هلفوت، وهناك أيضاً حزن مقدس.. وصاحب الحزن الهلفوت يحمله على رأسه ويدور به على الناس.. التقطية على الجبين، والعرشة في أرنبة الأنف، والدمعة على الخدين.. يالالي! وهو يدور بها على خلق الله يبيع لهم أحزانه، وهو بعد فترة يكون قد باع رصيده من الأحزان وتخفف، ويفارقه الحزن وتبقى آثاره على الوجه، اكسسواراً يرتديه الحزين الهلفوت ويسترزق..

لكن الحزن المقدس حزن عظيم، والحزن العظيم نتيجة هموم عظيمة، والهموم العظيمة لا تسكن إلا نفوساً أعظم.. والنفوس الأعظم تغلق نفسها على همها وتمضي.. وهي تظل إلى آخر لحظة في الحياة تأكل الحزن والحزن يأكل منها، ويمضي الإنسان صاحب الحزن العظيم - ككل شيء في الحياة - يأكل ويؤكل، ولكن مثلاً وقد يمضي بسرّه إلى قبره! ولذلك يقال: ما أسهل أن تبكي وما أصعب أن ولكن هناك أيضاً ضحك مقدس، وهناك ضحك هلفوت.. الضاحك في الأعماق صار عبقرياً، وإذا كان مجذباً من الداخل أصبح بلياتشويس قفاه! ونحن أكثر الشعوب حظاً في إنتاج المضحكين.. مصر العظيمة جيل عشرات من المضحكين، ولقد استطاع بعضهم أن يخلد ولمع بعضهم كبالونة منتفخة بالهواء، بعضهم أصيل وبعضهم فالصو، بعضهم مثل وبعضهم مثل الذهب القشرة.

Bibliotheca Alexandrina



0743132

محمود السعدني



6 221102 026581

دار الشروق

www.shorouk.com